

رَحْلَةُ طَافُورٍ

في عتالمة القرن الخامس عشر الملالدي

ترجمة وتقدم

الدكتور حسن حاشي

١٧٨٨٧

١٦٥١
طواف

تَحْلِيْلُ طَافِي

فِي عَالَمِ الْقُرْآنِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِائِلًا

ترجمة وتقديم
الدكتور حسن حبشي



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

Shiabooks.net



طبعة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
جميع الحقوق محفوظة للناسر

٢٠٠٢/٧٧٠٩	رقم الإيداع
977-341-068-4	I.S.B.N الترقيم الدولي



الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٣١ ش بورسعيد - القاهرة
ت : ٥٩٢٣١٢٠ - فاكس : ٥٩٢٣١٧٧

فهرست

رحلة طافور

س
ط

مقدمة الترجمة العربية

١

الفصل الأول :

بدء الرحلة . كونت لسة . جبل طارق . قادم . ساحل
الغرب . جزائر البليار . العاصفة . جنوة .

٩

الفصل الثاني :

جنوة . مقاضاة التجار . سان لورنزو . الأملاك الجنوبية
في الخارج . السكان . الثورة . بيزا . فلورنسا . بستويا
بولونيا . البابا بوجين . فرارا . صكوك التبادل . البندقية .

١٨

الفصل الثالث :

رومة . البابا . الأسوار . التبر . الفاتيكان . نزل ماركس
أوريبيوس . الكولوسيوم . بعض الكنائس . سوء حال
المدينة . سكانها . الحيوانات الضاربة .

٣٠

الفصل الرابع :

زيارة بعض المدن الإيطالية . مقابلة كونت أرينو . رافنا
والبندقية . الاستعداد للرحلة .

٣٥

الفصل الخامس :

زارا . راجوزا . كورفو . خليج كورثة . دير إغريق .
ميدونا . كريت . رودس . الاستتارية . الوصول إلى بافا .

الفصل السادس :

الرسو بيافا . بيت المقدس . القبر المقدس . بيت لحم . أريحا .
الأردن . البحر الميت . الحكم والتنفيذ . مسجد الصخرة .

الفصل السابع :

مضادة قبرص . رامة . بافا . بيروت . قبرص . طافور
سفير إلى سلطان مصر .

الفصل الثامن :

الرحيل من قبرص . دمياط . الحمام الزاجل . نهر النيل .
التماسيح . الرحلة في النيل إلى القاهرة . الماليك . استقبال
السلطان المملوكي . المطرية . الأهرام . الفيطة . الزراف .
لعب الكرة .

الفصل التاسع :

الرحلة إلى سيناء . تجارة التوميات . دير سانت كاترين .
التفكير في الرحلة إلى الهند . نيكولا دي كونتي بروي
قصة حياته . البحر الأحمر .

الفصل العاشر :

العودة من سيناء . نيكولا يتابع قصته . القديس جون .

الفصل الحادي عشر :

الوصول إلى القاهرة . قصة بطرس الرندي . الجلوس للحكم
بين الناس . الحياة في شوارع القاهرة .

الفصل الثاني عشر :

الإسكندرية . نيقوسيا . الرحيل إلى قبرص . موت رئيس
الاستبارية . انتخاب خليفته .

الفصل الثالث عشر :

السفر إلى القسطنطينية . غرق السفينة . القتال بين الكتلان
والجنوية . وصول سفارتين من بيزنطة . بعض الجزر والمدن .

الفصل الرابع عشر :

القسطنطينية . الإمبراطور يوحنا باليولوجس . أسيرة طافور .
قصة الحرب الصليبية الرابعة . إستقبال طافور في البلاط .
مغادرة الإمبراطور إلى أوربة .

الفصل الخامس عشر :

أدريا نوبوليس . وصف السلطان المماني . البحر الأسود .
الوصول إلى طرايزون .

الفصل السادس عشر :

طرايزون . المنتصب . كافا . سوق الرقيق . شراء المؤلف
لثلاثة من العبيد . تجارة الكافيار . اثنان العظيم . التتار .

الفصل السابع عشر :

المودة للقسطنطينية . أيا صوفيا . الخلفات المقدسة . تمثال
جسفيان . الهيدروم . تمثال العدالة . القصر . المكتبة .
سوء حال المدينة .

الفصل الثامن عشر :

بروسه . بيريه . الرحيل عن القسطنطينية . طافور بنقذ
بعض الرقيق النصارى . ميقلين . سالونيك . العاصفة .
راجوزا . انكونا . سيالاتو . الوحش البحرى .

الفصل التاسع عشر :

البندقية . الخليج الجديد . الإستيلاء على بضائع طافور ثم
ردها إليه . حفل عرس البحر . صكز القديس مرقس .
الإمبراطور بربروسه والبابا .

الفصل العشرون :

صفة البندقية . الجنودول . كنيسة القديس مرقس .
الحكومة . التجارة . ثراء الشعب . الترتيبات الصحية .
دقة العدالة . الترسانة . البهارستان . أملاك البندقية .

الفصل الحادى والعشرون :

مناذرة البندقية . إتفاق بين البنادقة وأهل ميلان . فرارا .
البابا يوجين وبيزنطة . إنعقاد الجمع . الحكومة .

الفصل الثانى والعشرون :

الطريق إلى ألمانيا . عبور الألب . محرقة جونا . جازيل .
الحمامات . غسل الذهب . ستراسبورج . الحيلة ضد النار .
ميتر . الراين . كوبلنز . الوصول إلى كولونيا .

الفصل الثالث والعشرون :

كولونيا . الخانات . أسقف ديتريش . الكاتدرائية .
معجزة بالسكنيسة . السوق . الرحلة في الراين . دوق
كليفس . نيميخين . بوالى ديك . بروكسل . فيليب الطيب .

الفصل الرابع والعشرون :

بروجس . أراس . غنت . انتورب .

الفصل الخامس والعشرون :

لوفان . بوالى ديك . فرانكفورت . كولونيا . ميتر .
أمر الرحلة وإطلاقهم . طافور بفقد سيفه . بازيل . مبارزة
في شافهاوزن . كسبار . نورمبورج . براج . حاكم ميلسين .

الفصل السادس والعشرون :

برسلاف . الإمبراطور ألبرت الثانى . الحياة في البلاط .
ملك بولنده . برسلاو في الشتاء .

الفصل السابع والعشرون :

مغادرة برسلاو . الرحلة إلى فينا . مهاجمة طافور في
الطريق . فينا . الإمبراطورة إليزابيث . بودا . نويشتات
فردريك دوق النمسا . الألب . فريولى . تريفيسو . بادوا .

الفصل الثامن والعشرون :

فرارا . البابا يرحل إلى فلورنسا . البندقية . فيرونا .
فلورنسا . البابا والإمبراطور . بيزا . بولونيا . البندقية .

العودة للوطن . رافنا . برنديزي . مضيق مسينا .
الحوريات . جزائر ليباري . بالرمو . سرقسطة . جبل إتنا .
تونس . مردينيا .

ال لوحات

- لوحة رقم (١) إمضاء طافور بخط يده ، نقل من
أرشيفات قرطبة أمام صفحة ٥
لوحة رقم (٢) خريطة كتلانية للعالم سنة ١٣٧٥ »
لوحة رقم (٣) مبارزة من حولية هولندية ترجع إلى
القرن الخامس عشر لليلادي أو مستهل
السادس عشر ١٢٣ »
لوحة رقم (٤) الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوجس
في كنيسة قصر ديكاردي بفلورنسا ١٨٤ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الترجمة العربية

تحتل كتب الرحلات مكانة هامة في ثبت المصادر التي تتضمن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب في مختلف العصور، ومع ذلك فإنها لم تجد العناية الجديرة بها من قبل المشتغلين بالدراسات التاريخية والاجتماعية، رغم ما تحتفل به هذه الأسفار من مادة تلقى ضوءاً على شتى جوانب المجتمعات في أوربة والشرق على السواء، وعمدنا بذخيرة طيبة من المعلومات التي نفتقدها في الكتب السياسية والحوليات التي تكون — في العادة — قد دُوِّنت تحت دوافع معينة، فتطس أحياناً — عن قصد وتدبير — أموراً لو نسكشفت لبدت نواحي كثيرة من التاريخ المدون، ومجمل القول إن كتب الرحلات ترقى إلى أن تكون من المصادر الأصلية في تبيان الأحداث الرئيسية والجانبية الفاضلة وتنقلها من هامش الفكر إلى بؤرة النظر والإدراك الصحيح والتفسير للمقول المطابق لحقيقة الواقع، ثم إنها لا تخلو — بنسب متفاوتة بين بعضها والبعض الآخر — من مادة لا تتوفر في سواها، وذلك بسبب تغلفها بين طبقات الشعب التي قل أن تعياً بها كتب التاريخ للألوف، ومن ثم كانت الرحلات ذات أهمية خاصة من حيث العنصر التاريخي، وهي في الوقت ذاته تسكون — في أغلب الأحيان — بعيدة عن التحيز؛ هذا إلى أن ما تتضمنه إنما هو نتيجة مشاهدة عيان في أكثرها.

ولقد اهتم الغرب بالرحلة منذ ظهور الإسلام اهتماماً يسترته لهم سعة الرقعة الإسلامية المربية الجديدة، ودفعتهم إليه رغبتهم في الوقوف على أحوال

شعوب هذه الأقطار والتعرف عليها عن قرب ، إلى جانب عوامل اقتصادية تتمثل على وجه الخصوص في التجارة أو كملاء في تناول السلع ، هذا بالإضافة إلى دوافع روحية ، فليس من جيل في أن المسلمين الأوائل كانوا يرحلون من بلد إلى آخر . رغم اختلاف الأقطار - جريباً وراء حديث أخذوه عن ثقة حجة لا يرقى إليه الشك دون أكثرات عما بلاقوه في سبيل ذلك من مشقة بالغة وما يصادفونه من أخطار الطريق ، وما يصيبهم من مكائدة مادية تكاد تجعل نطمع سير التحقيق ، والمشودة صعب المال ؛ ولا مشاحة في أن تاريخ العرب حافل بأرحالة الذين نعرف أسماءهم وإن صاعت آثار مدعاهم ، وبقي البعض منها كاملاً غير منقوص أو في صورة نتف مبعثرة في نوايا الكتب ، وهي جديرة بأن يتوفر البعض على جمعها عسى أن تتكون منها ومن الآثار خطية السكاملة مكتبة تامة - أو شبه تامة - تستدرك وانقصها على مرة الأيام .

واقعد شهد الغرب - كما شهد الشرق - رحالة كثيرين ، نعل أذيعهم . ذكرأ التاجر البندقى «ماركوبولو» ثم «بيكولو دي كوتى» ، وهماك من هؤلاء أيضاً «بيرو طافور» الذى أتاحت له الفرصة أن يرحل في النصف الأول من القرن الخامس عشر إلى كثير من بلاد أوربة وإلى مصر سفيراً وباحثاً وناحراً ورجلاً متطالماً لمعرفة حقيقة عالم يومه الجغرافى والسياسى والدينى ، واقعد كانت هذه الفترة فترة إرهاب في تاريخ الإنسانية إذ كانت فجر عهد جديد من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية ، فقبل أن يلفظ ذلك القرن أسفاسه سنوات قلائل سقطت القوة الإسلامية في الأندلس ، وأخذت بعض دول أوربة تتكفل لمصابقة مصر اقتصادياً لتمطيلها عن ممارسة نشاطها التجارى لاسيما في تجارة

الكارم ، كما قامت محاولات أخرى جانبية في هذا الميدان ذاته وقبل ذلك
تقريباً - لقطاعها تجارياً أو لتحويل بحرى النيل ، ووضعت في كل هذا
تقارير مختلفة على مستويات عالية سياسية ودينية .

وعلى الرغم من أن صاحب هذه الرحلة كان أثيراً لدى ملك فشتالة إلا أن
العموض يكتنف سنوات طويلة من حياته ، والواقع أن ما كُتب عنه حتى
الآن لا يشفي علة للمنى بوضع ترجمة واقعية له تلم بدقائق عمره وتعتبر سجلاً
له ، أو تتضمن الأعمال المختلفة التي قام بها ؛ وإنما كانت صالة المادة عنه ، وودية
إلى عدم التأكد من مهبط رأسه ، فالإبهام الشديد بنفسى السنوات الأولى
من نشأته ، ويمتد هذا العموض حتى ليخلف سنة مولده ووفاته ومقام الأعمام
التي عاشها

ويرجع الذين كتبوا عنه - وهم قلة - أنه وُلد في قرطبة ، ويستدلون
على صحة هذا الرأي ببعض الوثائق التي جمعها أحد الكتاب الإسبان وإن
كانت الإشارة فيها ليست صريحة كل الصراحة بدرجة تقطع الشك وتثبت
اليقين بقرطبية مولده ، وإنما كان عمل الأب فيها وإن كنا لا نعرف أنفتح
عيناه - هو الآخر - فيها أم أنه طارى عليها ، وهل وُلد أبه « بيرو »
وهو لا يزال في قرطبة ؟ أم أنه نزح عنها - بسبب ما - إلى بلد آخر ؟ ، وإن
كان « بيرو » نفسه قد أشار في رحلته هذه إلى مقابله لترجم السلطان برسباى ،
وهذا المترجم أشبيلي الأصل ، وذكر له رحلتنا أنه هو ذاته وُلد في مدينة
أشبيلية .

ولا يستبعد في هذه الحال أن يكون الأب « خوان دياز طامور » قد
انتقل بالأمرة من قرطبة إلى أشبيلية حيث وُلد له « بيرو » ، وبذلك لا يكون

ثم شك فيما قاله طافور عن أشبيلية مولده؛ ثم إنه ليس هناك ما يدعونا لإسكار رأيه حول مكان ولادته^(١) إذ لا نستطيع في نسجته إلى إشبيلية - مكانا كانت فيه أول صرخة له - ما يجعلنا ننزل قوله عن مكان مولده مرة الزعم؛ ونستطيع أن نحلص من هذا إلى الأخذ بأن أشبيلية كانت البلد الذي خرج فيه إلى الحياة.

وإذا كان الجدل قد قام حول مهبط رأسه فإن هناك تشككا حول عام مولده، فليس هو بالمعروف على وجه التحقيق، وإن رجح القول بأنه كان في مطلع القرن الخامس عشر، وللتفق عليه أنه كان سنة ١٤١٠ م وأنه عاش قرابة ثلاثة أرباع قرن، إذ يستدل من بعض الوثائق التي جمعها أحد الكتاب (واسمه رفائيل ريميز) - ومن بينها وثيقة بقلم زوجة طافور - أنه مات حوالي سنة ١٤٨٤^(٢).

وقد انخرط «بيرو طافور» في سلك الخدمة العسكرية في «جيان» تحت لواء لويزدي قزمان الذي يهديه كتابه^(٣) هذا، وحارب معه فيما بين عامي ١٤٣١، ١٤٣٢ حتى إذا عقدت الهدنة بين غرناطة وقشتالة قام برحلته هذه التي امتدت من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩، فلما عاد منها استقر في قرطبة وتزوج

(١) Letts : Pero Tafur, Trevels and Adventures, p. 8

إلى أن ما قاله طافور لترجم السلطان من أنه من مواليد أشبيلية إما كان الدافع له عليه هو رغبته أن يبال عطفه ورعايته، لأن الترجم اليهودي كان هو الآخر أشبيلي المولد.

(٢) cf. Boletín de la Real Academia de la Historia, Vol. XII, pt. IV, 1902.

(٣) J. de la Serna & Palencia : Historia de la Literatura Española, Madrid 1949, p 95 وأشكر في هذا التوسم مدني الأستاذ الدكتور أحمد مختار المعادي - أمدني - من المراجع الإنسانية المنطقة طافور وفام بترجمتها.

في سنة ١٤٥٢ م Dona Juana de Horozco التي أنجبت له ثلاث
بنات وولداً ، ويرجع أن ابنه مات قبله .

والظاهر أن طافور كان يعتقد أنه من ذرية أباطرة الدولة الشرقية ،
وتؤكد هذا إشارته إلى أن من بين أسباب زيارته القسطنطينية « رغبته في
استكناه حقيقة نسبه الذي أنبى عنه أنه نبع في الأصل من هذا المكان ،
وأن له هرقاً يمت لامرق الإمبراطوري بوشيجة القرنى » ، ثم يسوق قصة
لا نعرف مصدرها التاريخي بشأن نزاع قام بين أحد الأباطرة والبلاء ، وانضم
ابن الإمبراطور إلى صفوف الأخيرين ، وبعد مصادمات عنيفة بين المتنازعين
اضطر الأمير الشاب للفرار إلى إسبانيا ، حيث عرف باسم كونت « بدور » ،
وانجب ابناً سماه دوق « استيفان إلان » واستقر به اللقام في قشتالة ، وتزوج
الأمير الهارب من إحدى أحوات ملكها ، وأكرمه أهلها لما أبداه من براعة .
في الحرب ضد المسلمين ، ورد طليطلة لطاعة حين تمردت على ملكها الشرعي ،
حتى إذا مات هذا الأمير دفنه القوم في كنيسة للوك القدماء في طليطلة ،
وزينوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته » ، وهي ذات
الأسلحة التي يحملها مؤلفنا طافور لأنه يمت بمرق إلى هذه الأسرة ، ونحسب
أن خيال طافور كان أبعد من الواقع في هذه الناحية ، وإن كان هو يزعم أن
حننا باليولوجس الثامن قد واقعته على ذلك .

ومهما يكن الأمر فقد شغل طافور نفسه بالأمور السياسية في بلده ، إذ
راه يساهم في حملة هنري كونت لبلدة ، التي شنّها على المسلمين في جبل طارق ،

ولسكنه لقي حنفاً أمام عيني طافور الذي يمدحه ويقول في هذه المناسبة
 « اسكننا راجمين يرمضنا الحزن لمقدنا هذا القائد المحنك ، واشييد قلعين
 إلى قشتالة ومها إلى سان لوكار^(١) » . ولقد كانت حلة الكونت على جبل
 طارق حقة من سلسلة الحجرات العدوانية التي كانت تحرك أوربة العربية
 لاسيا إسبانيا والبرتغال في ذلك الوقت ، والتي بلغت ذروتها في إسقاط قرطبة
 والحكم الإسلامي عام ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) .

* * *

استغرقت رحلة طافور المدة الممتدة من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩ ، وهي فترة
 خصيبة من حيث الحركات التي شهدتها وسبقها ، وكان مجال رحلته يعمض
 الأقطار الأوربية ومصر ، ولقي في هذه السفرة الطويلة أحداثاً عجيبة تصور بجلاء
 مدى ما كانت عليه أوربة حينذاك من تأخر فكري وفوضى سياسية ، وقد
 أتاح هذان العاملان الفرصة الطيبة لظهور الإقطاع الذي استشرى بصورة
 خطيرة في تلك القارة ، والواقع أن الفوضى السياسية التي حتمها لم تنفخ بظهور
 الإقطاع بل لازمه وصحبه وإن ظهرت في صور جديدة في شتى الأقطار
 الأوربية إذ ذاك ، وإنما أخذ نجمها في الأفول بظهور بعض شخصيات
 استطاعت أن تجمع السلطة في يديها دون الأسراء والنبلاء والكونتات
 والأدواق ، ولكن هذه الشخصيات لم تستطع أن تحرر نفسها من الطامع
 الإقطاعي وإن كان شكل يختلف عن سابقه ، وتمثل هذا في قيام هنري الثاني
 ياخذترا (١١٥٤ - ١١٨٩ م) وفيليب أغسطس بفرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣)
 وفردريك بربروسة في ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) ، وكان المظهر الذي

(١) انظر الرحلة ، ص ٣ .

ظهرت به هذه الفترة بالذات - أعني منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر حتى الربع الأول من الخامس عشر - هو استئثار النظام الكنسي، وكان إلى جانب ذلك تصحيم شأن الكنيسة وازدياد كواثرها وتعددتها حتى لقد أصبحت على حد قول أحد المؤرخين المحدثين^(١) - « دولة مركزية مغلقة، امتدت سلطاتها القضائية على شئ الأخطاء والجرائم »، على أن هذه البيروقراطية الكهنوتية لم تلبث أن وجدت من يمارسها بظهور جماعات ممن اصطبح العرف التاريخي - المستمد أصوله من إيماءات القرون الوسطى - على تسميتها بالمهرطقة الذين كرهوا في الواقع امتداد سيطرة رجال الدين خارج نطاق واجباتهم الدينية، واتساع نفوذهم انبساطاً شاملاً جميع مرافق الحياة الآدمية اليومية، وأصبحت الكنيسة تسيطر - بفضل ما ادعته من حقوق وخاصة هبة قسطنطين المزعومة - على مقدرات الفرد^(٢).

على أن هذه الحركات للمارضة لسلطان رجال الدين - وليس للدين نفسه - وجدت استعابة من نفوس فئات قليلة، لكنها كانت ذات أثر بارز أدى في النهاية إلى ازدياد التضارب بين السلطين الزمنية والروحية، وضعف سلطان الكنيسة، بل إن هناك من كبار رجال الدين من وقفوا ضد البابوية، ونرى إيماءة بسيطة لهذه الناحية في رحلة طافور حيث يشير إلى ما جرى بين « مجمع بازيل » وبين البابا يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧ م) فقد حلّمه المجمع، ووقف « لويز دي أمارال » للمروف بأسقف « فيزو » في صف القوة الزمنية، حتى لقد كان على رأس السفارة التي غادرت البندقية إلى القسطنطينية

Flick : Rise of Medieval Church, pp. 603-604. (١)

Thorndike ; Hist. of Medieval Europe. pp. 197 ff. (٢)

لحمل الأمير بطور يوحنا الثامن وبطرك القسطنطينية لحضور جلسات هذا الجمع .

ولقد تضمنت الرحلة في ثناياها — وفي مواضع متعددة من الكتاب — إشارات إلى مثل هذه الأمور التي كانت تسود أوربة في ظل نظام مهيار من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك صورت المدى البعيد المحزن من الضعف الذي بلعته الإمبراطورية البيزنطية التي سقطت نهائيا بعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء رحلة طافور ، ولم تكن الإمبراطورية في الغرب أحسن وضعاً من مثيلتها في الشرق ، فقد باغت ذورة الضعف بموت سيجسمند ثم ابنه ألبرت الهابسبورجى الذي استقبل طافور في برسلاو ، واقد أدرك طافور مبلغ قوة العثمانيين إذ ذاك ، وهو في كلامه عنهم يظهر تقديره لإيهم وإعجابه بهم ، ولم يفقه ذكر الأحوال في أرمينية وسيطرة مصر التجارية في البحر الأحمر ثم في القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، هذا إلى نفوذها وصلاتها بالحيط الهندى ، وأشار في صراحة إلى ما كانت تعانيه الكنيسة الرومانية ومنازعاتها مع الإمبراطورية الغربية .



أول ما يلاحظ على رحلة طافور أنها خلت من ذكر النواربخ التى تساعد من غير شك على تحديد قيامه بها وأوقات زيارته للأماكن المختلفة التى تضمنتها سفرته الطويلة لأقطار ممتدة يخالف بعضها بمصاًفى كثير من مفاحى الحياة وأساليبها ، غير أن ذكره بعض الأحداث الهامة وملاقاته لأشخاص معينين أسراى قد يسرا لنا أن نعرف متى قام بهذه الرحلة للمتعة ، ذلك إن إشارته في مستهل رحلته إلى حملة كونت ليله على طارق وملاقاته للوت غرقاً بمحمدسواثين

من أسوأ بدأت في سنة ١٤٣٥ ، إذا أنه شرع في رحلته قبل موت كوست هنري الذي حدث في مسهل سنة ١٤٣٦ كما يرجح أكثر المؤرخين ؛ وإلى جانب هذا يعرف من رحلته أنه في أثناء وجوده في جنوة تار أهلها على دوق ميلان الذي نصب من نفسه حاكماً عليها ، وإن كان ذلك قد تم أيضاً رضاء الجنوئين أنفسهم ، والمعروف أن جنوة قاست كثيراً من الخضوع للمحتل الأجنبي ، فاستسلمت آونة للآلمان ، ثم لأهل نابلي ، ثم لأهل ميلان من بعدهم ، وعلى أية حال فقد كانت ثورة جنوة ثورة عارمة ترجع إلى سبب هام هو أن مملكة نابلي كانت قد آلت إلى أفونس الأراجوني الذي أصبح إيطالياً في مشاعره وأبحاهاته مما دعى الأهالي لتلقيه « بالمعظم » ، لقباً استعفه عن جدارة بفضل عطفه على الآداب والفنون ، غير أن هذه المملكة كانت تتنازعها الأربعمينات من القرن الخامس عشر أحزاب « أراجون » و « أنجو » ، وإذا كانت جنوة تنظر بعين الاعتبار بطبيعة الحال للفوائد المادية للترتبة على نشاطها التجاري ، بالإضافة إلى عداوتها التقليدية للأراجونيين فقد خُيل إليها أن صالحها يقتضيها الوقوف إلى جانب « أنجو » ، وسلكت بالفعل هذا السبيل ، وطبعاً أن يؤدي ذلك الاتجاه من جنوة إلى غضب « أفونس الأراجوني » ملك نابلي ، ومن ثم كان لابد من اصطدام الجانبين ببعضهما ببعض أن أجلاً أو عاجلاً ، وحدث ذلك المصادم يوم ٥ أغسطس ١٤٣٥ أمام جزيرة « بونزا » حيث دارت الدائرة على ملك نابلي « أفونس » ، ووقع أسيراً في أيدي الجنوية ، كما وقع في الأسر معه بعض كبار وجوه مملكته ، فأسلحهم إلى دوق ميلان « فيليبو ماريا » الذي سرعان ما أطلق سراحه هو ومن معه ، مما أثار حنق الجنوية وغضبهم على « فيليبو » ، واندلعت هذه الثورة يوم ٢٧ ديسمبر ١٤٣٥^(١)

J. C. De Sismondi : Hist. of the Italian Republics , (١)
pp. 209 — 210 .

ومن هذا يستدل على أن طافور كان في جنوة في تلك السنة^(١)

نم إنه يشير في موضع آخر^(٢) إلى إبحاره من البندقية إلى الأرض المقدسة وكان ذلك يوم الاحتفال بعيد الصعود ١٧ مايو ١٤٣٦ ، وفي نوفمبر من العام التالي ١٤٣٧ زاره في القسطنطينية حين أبحر إمبراطورها يوحنا الثامن بالبولوس ، الذي قبل - حوقاً من إردباد سلطان الترك - توحيد السكبيستين اليونانية والرومانية ، اكن رجال الكنيسة الشرقية رفضوا هذا الاتفاق واستقبلوا الإمبراطور بعد عودته بشتي أبراع الإهانات .

* * *

وإذا كان طافور قد بدأ رحلته هذه في سن مبكرة ، إذا كان وقتئذ يهازم الخامسة والعشرين من عمره ، وهي سن لا تمكن صاحبها من رصد كل شيء براه رسداً دقيقاً ونسورة تتضمن تحليل الأحداث تحليلاً صحيحاً ، إلا أنه استطاع - في كثير من الدقة - أن يصف كل ما وقعت عليه عيناه وأحسه بوجوده ، ومع أن هذا الوجدان كان بسيطاً بل ساذجاً في أكثر من موضع إلا أنه يشير في وضوح إلى أن صاحبه كان في الوقت ذاته رجلاً قد نمرس بشتي أساليب الحياة ، وليس من شك في أنه اشتمل بالتجارة على نطاق أوسع من النطاق الخافي ومارسها ممارسة عملية ، ولا يستطيع هو - أو غيره - إنكار هذه الصفة . فصفحات رحلته تفيض بما يكشف القناع تماماً عن قيامه بممارسات تجارية ضخمة يستعدهم فيها رجالاً لحسابه الخاص ، وإن عمليات التفاوض التجارية لنهاب عليه - رغم تدينه - فيودها على حضوره الصلاة والقداس ، ولكنه

(١) رحلة طافور ، ص ١١ .

(٢) رحلة طافور الفصل الخامس ، ص ٤١ .

لا يكاد يهرع منها حتى يهرع إلى الكنيسة ليؤدى واجب الرب ، كما أذى
حقوق الفرد الإنسان

كذلك يستدل من كتاباته على حبه للرحلة حباً جرى في دمه وحمله على
الاعتماد بالأحطار ، فقد توسل بشق الوسائل حتى استطاع أن يحصل على إذن
بزيارة دير سانت كاترين ، فاستجاب له السلطان الأشرف برسباي وأمدّه
بثلاثة جمال وسار عابراً الصحراء « التي لا حياة فيها ، واقينا في ذلك مشقة
كبيرة واكتنفنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدة
حداً عجزت منه كيف يستطيع أى امرئ احتمالها » ، واستغرقت هذه الرحلة
الشاقة منه خمسة عشر يوماً ، ثم إنه وهو في سبناه نشاق نفسه لزيارة الهند ،
ويحاول قيم دير سانت كاترين نفيه عن هذا المرض وبمعارضه « كل المعارضة »
لكنه لا يلقى إليه سمماً ، وإنما ينتظر وصول القافلة القادمة من الهند التي يلتقى
بأحد رجالها وهو « نيكولو دى كونتى » الذى يحدثه عن أخبارها ووعدها
وثرواتها ، ولكنه لا يكاد يعلم منه بإزماعه المضى إلى هناك حتى « يفضى إليه
في الحال بوجوب التخلي عن تلك المحاولة التي لا يمكن إتمامها مهما صدقت
النية ^(١) منه » ، ويقول له في ختام حديثه ماها إياه من السفر إليها « إني
أستعاضك بالله . . . أن لا ترك هذا المركب الجنوني نظراً لشدّة الشقة ، وحسامة
امشقة ، وشدّة الخطر » ، ثم يمدد له « نيكولو » الصواب التي تحمل من سفره
وحده أسراً مستعجلاً ^(٢) .

(١) رحلة طاوور ، ص ٧٨ .

(٢) الخطر الرحلة ، ص ٨٠ .

وإن حبه للمحاطرة ليتجلى في رغبته في رؤية للسلطان العثماني في عقر داره ،
 فينتسب الإذن في ذلك من « دراجس » نائب الإمبراطور يوحنا الثامن ،
 ويستعيب له « دراجس » ويرسل في طلب فئة من التجار الجبوية ليدروا
 لصاحبها رؤية السلطان مراد الثاني الذي يبعث في طلبه حين يعلم بحبر مقدمه ،
 فيشتقي به ويصمت صمغحات رحلته وصده الجثماني ووصف حاشيته وكيفية إقامته
 وحروجه للصيد ، بل إنه ليدخل مذكرات الأتراك ويلم بكل ما فيها ، ويصف
 ذلك كله وصفاً دقيقاً وبمقالات الكثيرين عن عاشوا في البلاط العثماني أن
 يذكره تفصيلاً كما ذكره طافور ؛ وليس من شك في أن بصيرته السامعة
 قد ساعدته على وصف القاهرة وشوارعها الحافلة إذ ذاك وأسواقها وما بها
 من مختلف التجارات الواردة من شتى أنحاء العالم ، كما يصف الحلاقين والطباخين ،
 ولا يفوته ذكر العواكح وأطباق الخشخاش والسقائب ، وهذه صور انقراض
 الكثير منها ولكنها كانت يومذاك مألوفة ، وإنه ليضيف إلى معلوماتنا عن
 الإسكندرية شيئاً جديداً حين يشير إلى « مكان كبير عثمانيها لاستقبال المصريين
 القادمين والراجلين على السواء » ، ثم يشير إلى دمياط حيث يطلب من واليها
 جلد تمساح وأنه إياه ملك قبرص ، ولا تفوته النكتة هنا فيقول « إن رائحة
 (أي رائحة الجلد) كانت شديدة الكراهية ، ولم يكن أحب إلى نفسي من أن
 أخذ مني ائنة الرأى اللطيفة بدلاً من جلد هذا التمساح » .
 والرحلة حافلة إلى جانب ذلك بوصف المدن الأوربية التي زارها طافور ،
 وهو وصف فريد في مادته من حيث القيمة التاريخية .

. . .

أما الرحلة نفسها — كما كتبها طافور — فقد ظلت مدة أربعة قرون
 رهن الظلام حبيسة المخطوطة ، ولم يقيض لها أن ترى النور إلا في سنة ١٨٧٤

حين قام الأديب الإسباني Marcos Temerez de la Espada (متوفى عام ١٨٩٨) بنشرها لأول مرة باللغة الإسبانية تحت عنوان *Andarques é viajes de Pero Tafur per diversas partes del Mundo avidos (1435-1439)* أى رحلات ومشاهدات بيرو طافور لأجزاء مختلفة من العالم (١٤٣٥-١٤٣٩) ، على أنها لم تلق ما تستحقه من الاهتمام الجدير بها ، فلم تظهر لها سوى ترجمة واحدة كاملة باللغة الإنجليزية قام بها «مالكولم لينس» عام ١٩٢٦ ونشرت في مجموعة *Broadway Travellers* التى كان يشرف عليها سير ديفنون روس والأستاذة إيلين باور بعنوان *Pero Tafur , Travels and Adventures* ، أما الترجمة الكاملة النائية فهى هذه الترجمة العربية .

على أن هناك طائفة من العلماء والؤرخين والباحثين الأوربيين استعملوا النص الإسباني استعمالاً مجزواً ، وكان أولهم الوثائقي «ماس لاترى» ، إذ اعتمد عليها بعد عشر سنوات من ظهورها في صفتين فقط في كتابه «تاريخ أساقفة جزيرة قبرص اللاتين *Histoire des Archeveques Latins de l' ile de Chypre* (*Arch. de l' Orient Latin*, II , Paris 1884) ، ثم وردت الإشارة إليها في السنة التالية (١٨٨٥) حين اعتمد منها العالم الألماني «هايد» ماجاء بها من معلومات خاصة بالتجارة وذلك في دراسته القيمة الفذة لهذا الموضوع الذى اعتمد فيه كلية على المصادر والوثائق الأولية في مختلف دور المحفوظات الأوربية وخطبات العصور الوسطى وضمها كتابه *Histoire du Commerce du Levant au Moyenage* . وكان استعماله لمادة التى ذكرها طافور - نتيجة مشاهدته وخبرته - على مجال أوسع من مجال سابقه «ماس لاترى» .

ولما كان مطلع القرن الحالى عهد المؤرخ الألمانى شولته فوضع كتابه المسمى

Geschichte der Mittelalterlichen Handels und Verkehrs zwischen Westdeutschland und Italien mit Ausschluss von Venedig (1900)

والمعنى تكلم عن مدينتى بروجس وأنتورب وتضمنهما التجارى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وأسواقهما المختلفة والبضائع الموجودة بها ، متعمداً بما ذكره طافور فى رحلته هذه مادة لدراسته ووصفاً لمشاهد عيان لا يرقى إليها الشك فيها احتوته من أخبار .

°

ثم جاء العالم الروسى المؤرخ هنرى بيرين فرسم فى كتابه History of Begium صورة ثانية لطائفتى المدينتين السالفتين الذكر وأهميتهما وتوسعهما التجارى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى معتمداً فى ذلك على رواية طافور ، ولكنه نقل كل ما جاء عنهما من « شولته » الألمانى ، ولم يستعمل هو نفسه النص الأصيل الذى نشره « لا إسبادا » ، ومع ذلك فقد جاء عرضه وتحليله واستنباطاته دقيقة فى عرض ملامح الازدهار التجارى لأنتورب وروجس ؛ فلما كان ختام الربع الأول من القرن الحالى نشر وليم ميلر بحثين فى المجلة التاريخية الإنجليزية (English Historical Review, 1923 & 1926) حمل محورها إمبراطورية طرايزون ، معتمداً على ماورد بشأنها فى رحلة طافور .

ثم كانت بعدئذ ترجمة مالكولم لينس فى سنة ١٩٢٦ التى قدم لها مقدمة استعرض فيها فصول الرحلة ، وقد ترجمها عن الإسبانية وزودها بكثير من الحواشى التى أصاب فى معظمها وجاسه الصواب فى القليل منها ، ولكنه استطاع بهذه الترجمة الإنجليزية أن يجعلها قريبة إلى يد الكثيرين من الباحث والقراء الذين تقف الإسبانية حائلاً بينهم وبين مطالعتها والاستفادة منها بالصورة المرجوة ، ولقد كانت هذه الترجمة الإنجليزية حاملة المؤرخ الروسى

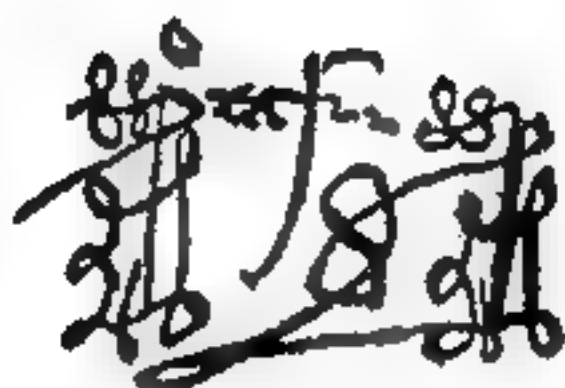
فازيليف Vasiliev على كتابه بحث له في مجلة بيزانثيوم (١٩٣٢) أشار فيه إلى رارتي طافور للقسطنطينية، واكتفى قاريانيف باقتباس صفحات مطوّلة من الرحلة شملت معظم المقال، كما أشار في الوقت ذاته إلى الاختلافات البسيطة بين الأصل الإصباتي وترجمته ليقس .

ستدل من هذا التثبت على أن استعمال « رحلة طافور » كان مجزوءاً ، ولكن هذا الاستعمال بواسطة أعلام البعثات وجهابذة التورخين يشير بحلا إلى القيمة الضخمة التي صمّمها طافور كتابه ، والتي كانت المصدر الأساسي لدراسات هامة مترنة ؛ على أن هناك جواب أخرى ما زالت مطلوبة وأخصها الأوضاع الاجتماعية وأساليب الحياة اليومية في البلاد والمدن التي زارها رحالتنا ، وهي جواب تمهيد ملامح صريحة وحديثة عن ذلك العصر وتلك البقاع ، وعنى بهذا الدكتور سميد عبد الفتاح عاشور فقد تناول هذه الماحبة في دراسته عن (العصر المائليكي في مصر) ، واستعمل الرحلة في إمداده بمادة جديدة عن القاهرة حينذاك ، وكذلك الدكتور أحمد درّاج في رسالته عن عهد السلطان رسباى . وإن الصفحات التي تركها طافور عن القاهرة لجديرة بأن تكون نواة لبحث أو بحوث تضيف جديداً إلى معلوماتنا عن مصر القرن الخامس عشر .

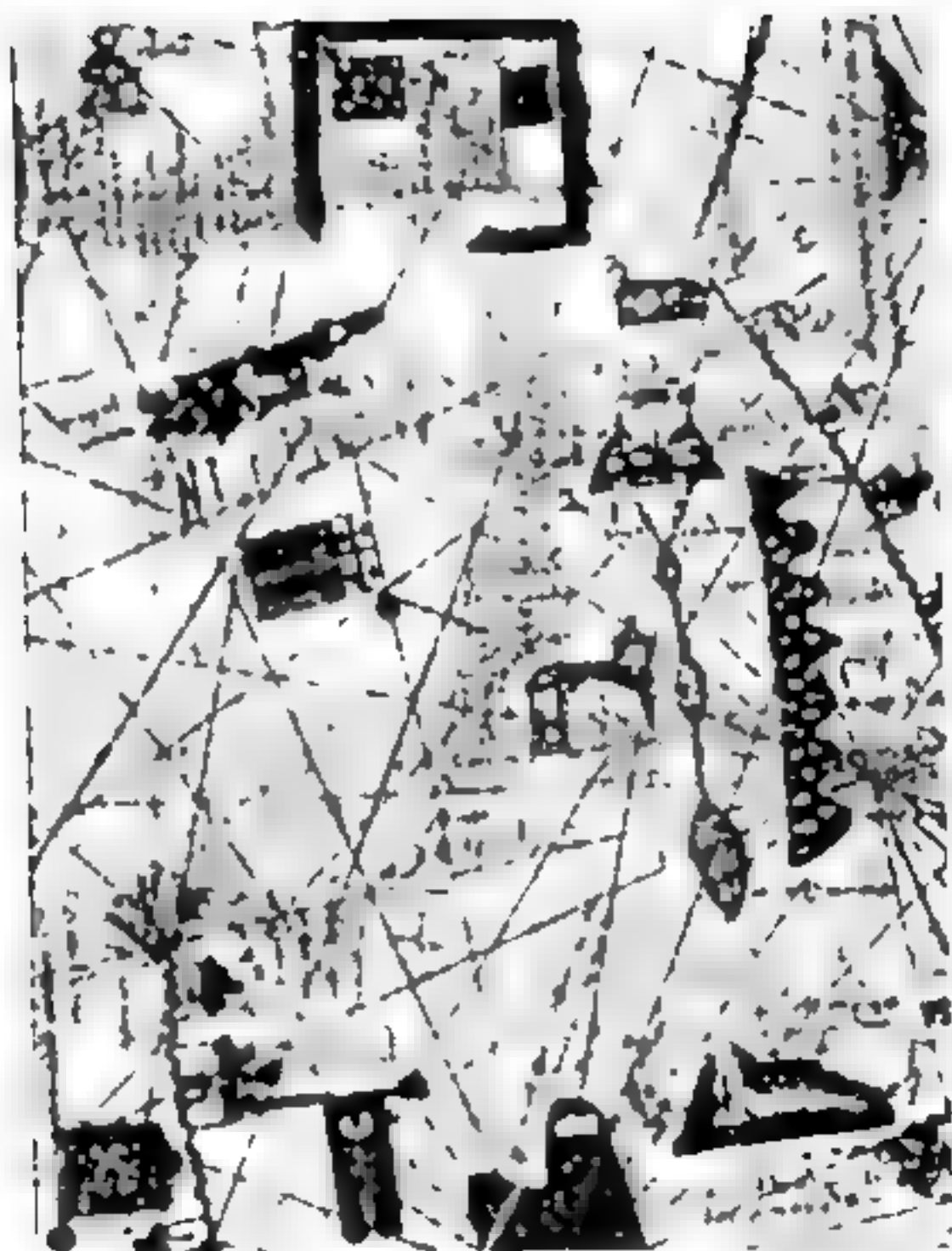
• • •

وبعد فإن أقدم هذه الرحلة لأول مرة في لغة الضاد ، راجياً أن تكون مموّاة للبعث ، ومن الله التوفيق

حسن حبشى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَحْرُوظَةٌ فِي أَرْخِيفَاتِ مَرْطَبَةٍ



قسم من خريطة كنتاكية للعالم سنة ١٢٧٥

الفصل الأول

بدء الرحلة . كونت لبله . جبل طارق

فارس . ساحل المغرب . جزائر

البلار . العاصفة

حسوة

فردنا القلاع وغادرنا ميناء « سان لوكار دي براميدا » ، وكان سفرى
في سفينة من سفن غايسيا لأننى كنت قد أعددت عدة الرحيل دون أن يكون
لدى شيء من الجياد أو سواها من الوسائل الضرورية للفرار ، وظلنا
مبحرين طوال يومنا هذا واليلة التى تلتها ، حتى إذا عطفنا على رأس الطرف
الأخر دخانا المضيق ، وبلغنا — مع انبلاج ضوء النهار — جبل « كارنيرو »
عند مدخل جبل طارق ، وأرسينا على مقربة من البلد ، وطالما عددا كبيرا
من سفن الملك ، وغرابا من أغربته جاءت صحبة كونت لبله^(١) الذى وجدناه
قد أرسى على مسافة نصف فرسخ من جبل طارق ، بصحبته ألف ومائتا فارس
 وخمسة آلاف من المشاة وبرفته ابنة أيضا ، وإذ ذاك غادرت السفينة وصيبت
قُدُما لمقابلة السكونت الذى سره لقائى ، واستند به العجب كيف تمكنت
من القدوم رغم ما كنت أعانيه من مرض ألم بى حديثا ، ثم أخذ فى مشاورة
فرسانه مُقضيًا إليهم بسبب وجوده هناك ، وكان قد أبقي هذا الخبر مكتوما
عنه حتى اللحظة ، وكان الأمر كما يلى : لقد أنبأ بعضهم أنه لا يوجد فى
جبل طارق عشرة من المسلمين القائلين ، على حين أن ألفا من الرجال قل أن يكتموا

للدفاع عن حصن عظيم مثل هذا الحصن الذي لن يلبث أن يقع في يديه إن هوباعته بالهجوم . لذلك رسم أن يتجمع فرسانه عند الدخول الواقع على اليسار ؛ أما هو فيكرّ بمن معه من المدججين بالسلاح كرة خاطفة على تلك الباحة من الجبل المتاخمة للرفأ ، حيث دخل الملك ألفونسو .

ورسم الكونت أيضاً لابنه « دون خوان » أن يرحب عن طريق البحر على برج « تورتو » القائم على الجبل ، وفي هذه الأثناء يكون الياسكيون قد مضوا قداماً في سمهم وغرابهم لمهاجمة حصن « كازال دي ديمونوير » الواقع على أعلى قمة هذا الجبل .

على هذا النمط رتب الكونت كل شيء ، فلما كان اليوم التالي انطلق كل فريق — بعد فراغه من القداس — إلى الباحة التي اتفق على وقوفه بها ، ثم خرجنا نحن بعدئذ واقتربنا من البلد ، حتى إذا بلغ الجزر مداه غادرنا السفن وتحركنا شطر السور ، بيد أننا لم نصطحب معنا في ذلك اليوم مدفعتنا ، إذ لم يكن هنأ يومذاك إلا استطلاع عدد النائمين بالدفاع عن هذا المكان . لكننا لم نكد نصاقب السور حتى لقي خمسة عشر رجلاً أو مشرون من رجالنا مصرعهم ، واضطربنا اضطراباً لم نلقِ معه بالاً إلى أن المدة أخذت في الارتفاع حتى أصبحنا نخوض في المياه إلى ركبنا . ولما رأى الكونت عجزنا عن القيام بشيء ما — إلى جانب أننا لم نجلب معنا مدفعتنا — فقد أصدر أمره بأن نمود على أعقابنا إلى البحر ، فارتد الرجال إلى القوارب ، بينما تحارب الكونت لجمع الآخرين ، وبينما هو يتأهب قوثوب في اتقارب الأخير هو وعشرة أو اثنا عشر فارساً ممن ظلوا معه على الشاطئ أدرك العدو أن لم يبق غير شردمة قليلين ، وقد انسحب الآخرون دون إصدار أوامر بتنظيمية هذا الانسحاب بالسهم والمدافع ، وعرف العدو أن الجميع قد ركبوا البحر حين أوشك القارب

الأخير على الرحيل ، وإذ ذاك قامت جماعة من فرسان المسلمين يبيعون العشرين
وطائفة كبيرة من مشاتهم وحملوا على القارب — وكان صغيراً قد أثقلته حمولته
فاقترب من فيه ، وابتلع اليم الكونت ومن معه ؛ حدث هذا في الوقت الذي
كانت فيه التداير الأخرى قائمة على قدم وساق ، ونهض بقية الرجال بأكثر مما
يستطيعون من الأعمال ، ولم يُستثنَ من ذلك سوى من على الشاطئ من
المرسان الذين لم يحدوا أنهم من يقاتلونه فلم ترَ من العودة بدءاً ، وانسكفأنا
واجمين يرمضنا الحزن لقدنا هذا القائد المحمك في البر والبحر على السواء ،
واثنينا قافلين إلى قشتالة ، ومنها إلى « سان لوكار » التي كان إقلاءنا عنها
من قبل .



وجبل طارق قمة بامت من للامعة منهاها ، وخبرها ذائع في شق ربيع
الدنيا ، وهو يقوم عند فم المضيق ، حيث يلتقي المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط ،
وأرضه شديدة الخصب ، أما المدينة فتشرف على المدخل المؤدى إلى الأرض
الرئيسية الشديدة الضيق والتي تمتد من هناك إلى قمة الصخرة مسافة تقرب
من فرسخ ، وهي حصينة القصور حافلة بالبساتين والكروم والمياه العذبة ،
وتجثم في بقعة شديدة الانخفاض واقعة على سيف البحر ، ونهض خلفها
الصخرة التي تضرب بقمتها إلى العنان ، حتى ليحسب رائياً أنها تمس السماء
ثم تنتصب معتدلة ، وعلى الرغم من مظهرها القوي من ناحية الغرب إلا أنها
تبدو من الشرق أكثر صلاحية ، ومرقوها أمين كل الأمان ، وهو عبارة
عن لسان من البحر يدخل في اليابسة حتى يباغ أرض الجزيرة الخضراء ، ويمتد
مسافة ثلاثة فراسخ صالحة كلها لرسو السفن .

عادراً هذا المكان ، وركبنا المضيّق وعمن فشاهد رأس طريف ، ومررنا
 بميناء قّادس وسواء من الأماكن الواقعة على الساحل ، ثمّ دخلنا ميناء
 « تراميدا » عدسان لوكار ، حيث تلقّاننا من بها بقلوب أقلّ اشراحاً عما
 كانت عليه حين رحيلنا عنها من قبل ، فجمعت ما كنت قد جهزته ،
 وامتطيت ظهر مركب كبير يملكه « خيرونيمو دي فولتاخو » الذي كان
 قد قدم من جنوة بسفينتين أخريين تابعتين « لاسنبان دوريا » و « خيرونيمو
 دوريا » ، وعليهما جماعة من الجنود للدفاع عنهما ضد القطلونيين ، كما أبحر
 عليهما معظم البجنوبة الذين كانوا في أشبيلية لما كانوا يحملونه من
 الأموال الضخمة .

* * *

دخلنا وراءنا ميناء قّادس ، وبأمانا ساحل إفريقية وقد أدركنا مدينة
 تسمى « أصيلة » ، حيث كان علينا أن نفرغ شحناتنا بها ونأخذ أخرى
 جديدة مكانها ، وهذه البلدة ملاصقة لرأس « اسبارتيل » وتابعة لكث قّاس ،
 ومن ثمّ كان عليها وال من قبيلة وهو فارس بربري اسمه « مصالة
 ابن مصالة » .

وأصيلة مدينة وافرة المصونة ، غير أنها تزخر بالحيوانات والطيور
 أكثر من أي شيء آخر ، فأقمنا بها ثلاثة أيام ، ثمّ أطلعنا منها ودخلنا مصيّق
 جبل طارق ، فلما حانت ساعة صلاة الغروب أبصرنا في الظلام سفينتين
 كبيرتين حبيبتائهما من سفن القطلونيين ، فمدنا أدرأجتنا إلى الوراء وأرسيما
 بعيداً عن طليجة ، بيد أن السفينتين مضيتا في طريقهما إلى قّادس ، فلما كان
 اليوم التالي تابعتا الرحلة وبلغنا « سدة » حيث علمنا من أحد القوارب

الباسكية أن هذين تاركين من مراكب الأسطول الجنوى ، وأنهما جاءا
من جبوة لمصاحبة سفننا الثلاث ، فأرسلنا في سبعة وغادرنا السفن وطلبنا
قارباً صغيراً ذا شراع واحد ، وأخذنا الرسائل إلى قاص طالين أن تنتظرونا
بها الشواني وإلا فلنقلقنا في مائة حيث كان علينا أن نفرغها حولتنا
ونترود فيها من جديد .



وبقينا ذلك اليوم في سبعة ، وخرجت لتفقد المدينة ومشاهدة ضواحيها
التي بدت لي أجهل ما تكون منظراً ، ودلت على أنها بلد كبير ، وليس من
شك في أن لو استولى عليها ملك^(١) قشتالة وزينها للناظرين لأضحت بسبب
عوامها أعظم بلاد العالم فتنة .

وأرضها على وجه العموم خصبة رغم وعورتها ، والإقليم جبلي ، غير أنه
توجد به ميناء صالحة وأرض فسيحة ، وفاكهة وفيرة ، ومياه غزيرة ، وأما
ما سوى ذلك من المدينة فقد بلغ من القوة مبلغاً عظيماً ، إذ يوجد على أحد
جانبي الجبل مكان صخري يحوطه سور بسمونه « الالمانيان » ، لا بد وأن
يبلغ من العظم ثابته لو قدر له ما كان ينبغي أن يكونه .

وتعج جبال سبعة هذه بالأسود التي يبلغ عددها هنا أكثر منه في أي
مكان آخر بالعالم ، ويمجز العد عن إحصاء ما بها من القناقد والقرود والفهود
والدببة والخنازير ، ويقال إنه يشك فيما إذا كان يوجد ثم مكان آخر على
الجانب الإمبري أعظم من هذا المكان ارتفاعاً وأكثر جيالاً ، ويقال إن
سبب ذلك قربه من الغرب ووقوعه على هذا الجانب من الضيق .

ورحلنا عن ستة مخلفين إفريقية على يميننا وأوربة على يسارنا ، وأبحرنا
في المصيق ، حتى أرسينا على ساحل مدينة مالقة التابعة لملك غرناطة ،
حيث أرسى التجار وأفرغوا بها بضائعهم ثم تزودوا بسلع أخرى غيرها ،
فأقما بها تسعة أيام سوا .

وفي أثناء إقامتنا هذه وصلت السفينتان اللتان مرگتا بنا فقللنا رجالناهما
إلى سفننا وحملنا البضائع وعادت إلى قادس لأخذ بضائع أخرى إلى هولندة ،
على أنه لم يكن لنا شاعل أثناء هذه الأيام النعمة سوى استئلاء المطر بروعة
مدينة مالقة التي أثرت في تأثيراً طيباً ، سواء من ناحية موقعها — رغم عدم
وجود ميناء لها — أو من ناحية تربتها — رغم قلة حيرها — ، غير أن كل
ما فيها حسن ولا يتقصها شيء من البساتين والقواكه .

والمدينة منبطة ومعظمها مسور ، وعلى جانبيها حصنان يصل بينهما ممر له
حائط بسمونه « جبر الفار » ، وهي تفيض مثنى أنواع للتاجر ، ولو كانت
تابعة لنا لسكانت أحسن مما هي عليه ، غير أن جميع أنواع التجارة كان لابد
لها من أن تذهب إليها من قطرنا الذي لا يحاف قط من أى مكان في حورة
السمين ، ويتدفق البحر تدفقاً يباع جدرانها حتى ليستطيع أى أسطول من
الأغربة سدّ بعض الأرمات إلى الأرض الواطنة ، إذا أن اللطافة الممتدة إلى
البحر شديدة الانحماض رغم حصانة توويرها من ناحية البحر ، وهي عاصمة
بالأهل الذين تتألف غالبيتهم من طبقة التجار ، وإن قلّ البارح منهم في
فنون الحرب .

وبعد أن قضى الجنوية تسعة أيام في مالقة جمعوا بضائعهم وحمزوا السفن

بالسلاح وأعدوها للإبحار ، إذ كان عليهم أن يسافروا قرب الشاطئ من لسان في البحر إلى لسان آخر على طول امتداد بلاد ملك أرغونة ، وتابعنا الإبحار على طول ساحل غرناطة ، واجتزنا « سالورينا » وحصن « المنكب » و « الميرة » حتى أدركنا قرطاجنة الواقعة في بلادنا ، فدخلنا الميناء ومكثنا هناك يوماً ونحن في انتظار سماع أخبار الكتلان .

وقرطاجنة كميناء - في تقديري - من أحسن موانئ العالم ، أما البلدة فرائدة ، وقد رحلنا وأبحرنا موازين لشاطئ « أرغونة » ، مارين « بلسكة » ، حتى غدونا على مقربة من « بلنسية » حيث أسدانا الهمض النصيحة بمعدرة الساحل والخروج إلى عرض البحر ، فلما جاء اليوم التالي لمبارحتنا الشاطئ قاربنا جزيرة « إيفيشيا » التابعة لملك أرغونة ، ومن ثم تابعتنا طريقتنا جاعلين « قطالونيا » و « برشلونة » على يسارنا ، مارين بحزائر « ميورقة » و « منورقة » التابعة للملك نفسه ، ودخلنا خليج « ليون » الذي يسمى بهذا الاسم حين خروج المرء منه ، أما عند مدخله فيعرف بخليج زربوبة .

وحدث في ذات يوم عند صلاة الغروب أن هبت عاصفة هوجاء أرفقتنا على المروء أمامها طوال الليل ، فلما كان الغد كنا جدّ بميدين .

أما الشينيتان الكبيرتان فقد دفعتهما الرياح بلا أشعة شطر سردينيا ، ومضى شهران لم نسمع فيها خبراً عنهما ، غير أن سفينتنا التي كانت لا تزال محتبذة شرعها الرئيسي - وإن لم يبق منه غير جزء بسيط - فقد طلت مصابغة للجزيرة التي يسمونها بجزيرة « نيتان » قرب شاطئ بروقفس ، وبقينا يوماً هذا واليلة التالية له ونحن في خطر مقيم ومثقة بالغة ، بيد أننا تابعتنا السير ، حتى

إذا كانت الغداة وصلنا إلى نيسى ، وكانت الليلة ليلة عيد الميلاد فالفينا
مراسينها وأصلحتنا أشرعتنا ، ثم سافرنا إلى مدينة « سافونا » الجميلة التابعة
لجنوة ، وبقينا بها يوم عيد الميلاد^(٢) ثم أبحرنا في اليوم التالي ونحن جد قريبين
من البر مقارين للشاطئ على بعد أربعين ميلا من جنوة وهي أجمل منظر
في الدنيا . ويبدو الساحل من سافونا إلى جنوة — لمن لا يعرفه — أشبه
بمدينة واحدة موصولة ، وهو أهل بالسكان ، مزدحم بالدور .

الفصل الثاني

حنوة . مقاساة بعض التجار . صان لورنزو .

الأملاك الجنوية في الخارج . السكان .

الثورة . يزنا . فلورنسا يستوبا .

بولونيا . البابا أبوجين . فرارا .

صكوك التبادل

البدعية

...

دخلنا ميناء جنوة على مقربة من الحاجز القائم بها ، واستقبلنا رجالها ونساؤها بغاية الترحاب وإن كانوا جدّ محزونين أسفاً على الركّيبين ، إذ لم يدم أحد ما جرى لها ، وغادرنا السفينة وزلنا إلياسة ، لكن قبل دخولنا للمدينة قطعنا مسافة نصف فرسخ حتى بلما كنيسة سيدتنا كورونا وفاء لنذر نذرناه أثناء العاصفة ، ودبرت لنفسى مكاناً أقيم فيه طوال الليلة عشر يوماً التي سأبقاها في جنوة ، والواقع أننى كنت فى ميس الحاجة إلى الراحة ، إذ أرهقنى الإسهالك فى العمل وأمضى الحزن وأجهدتى دوار البحر ، وأحسست بشدة نقتى على نفسى ، وكانت هذه أول مرة بدأت أعرف فيها الله ، إذ انقضت على بضعة أيام وأنا منهمك فى مقاضاة فئة معينة من التجار الذين لم يحترموا بعض صكوك التبادل النقدي التي كانت معى ، غير أن الدوج^(١) — وكثيراً من سادة هذا البلد — أظهروا لى مزيداً من الاحترام وأحاطونى برعايتهم ، وحمّلوا التجار على أن يدفعوا لى استحقاقى وضدّ النفقات التي تحملون إياها .

والمدينة قديمة جداً ، ويرعون أن بانها هو « جانوس » أمير طروادة بعد تدميرها^(٥) ، والواقع أنها تبدو أشبه بعمل رجل ذاق حرارة الهريمة ، إذ أنها مقامة على جبل سامق الارتفاع مشرف على البحر ، وجميع بيوتها أقرب ما تكون شبهاً بالأبراج ، وهي مؤلفة من أربعة طوابق أو خمسة وقد تزيد عن ذلك ، على حين أن شوارعها شديدة الضيق ويصعب اقتحامها ؛ والتربة جد قحطاء غير أن أهلها أهل جد وعمل ، وهم يجلبون الليرة من جميع نواحي العالم ، ومن ثم فالمدينة وافرّة للثروة كما لو كانت الأرض خصبة .

ولها ميناء رائع ورصيف به رجب ومنارة تظل موقدة طول الليل ، ويوجد على الشاطئ الآخر للميناء برج ثان شديد الارتفاع ، به هو الآخر منارة حتى لا يضل أحد ما الطريق إلى مدخل الميناء ، وبلغت نفقات ذلك كله مبالغ طائلة .

والأديرة رائعة جداً شأنها في ذلك شأن كنائسها التي أعظمها السكينة اسماء « بسان لورنزو » التي بلغت الغاية في الجمال ، لاسيما سقيفة بابها ، ويحتفظ القوم بالكأس المقدس للمصنوع من زمردة^(٦) واحدة ، وهو في الواقع أثر مدهش من الخلفات للقدسة ؛ أما حكم المدينة وإدارة جميع أملاكها فهي يد الأهالي الذين مكنتهم جدم وحكمتهم من الاستحواذ على كثير من المدن والفلاع في الداخل ، كما ساعدتهم ذلك أيضاً على احتلال بعض الجزر في البحر . فلهم جزيرة « خيوس » و « ميتليني » ، وتبعهم في جزيرة « قبرص » المدينة المسماة « بالماغوصة » التي استولوا عليها حين أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته معهم إلى جنوة^(٧) ، وقد ولد أبو الملك الحالي^(٨) هناك في « فاروس » ، وسمى « جانوس » نسبة إلى مولده في جنوة ، وهم يملكون أيضاً مدينة « بيريه » التابعة للقسطنطينية ، ومدينة أخرى تدعى « كافا »

الواقعة في طرف البحر الأسود والشابية لإشبيلية في ضحاها إن لم ترد عليها ، وللعسوية بمعنى القلاع في بحر أزوف وكذلك في تركيا .

والشعب الجبوى شعب بحرى قوى جداً ، وتعتبر شوائى المدينة على الخصوص أحسن شوائى العالم على الإطلاق ، ولولا المنازعات العنيفة الناشئة بين أهلها لامتد سلطانهم على كافة أنحاء الدنيا ، وهم أهل جد لم تدسهم الرذائل ولم ينغمروا في المتع الجسدية التى لا تشجع عليها طبيعة البلد ، هذا بالإضافة إلى ما هم عليه من الثروة وحب النظام . أما فيما يتعلق بالنسب فيهم إذا رأوا أحداً — رجلاً كان أو امرأة — قد أسرف في ملبسه إسرافاً لا مبرر له فرضوا عليه غرامة . وبشرتهم جميلة جداً وإن لم يكونوا طائى الوجوه رغم العناية بهم ذكوراً وإناثاً من حيث التغذية ، وهم يقومون النساء بأحجامهن ، فأفرعن طولاً أقلهن مهراً ، وإذا رملت المرأة لم تزوج ثانية ، فإن فعلت ذلك لاكت الألسن سيرتها بقالة سوء .

* * *

وفي أثناء الاضطرابات التى ألمت بالناس دخل دوج « ميلانو » المدينة مع فريق من النافرين . وتولى حكمها ، غير أن أهلها تمردوا — حلال إقامتى بها — على الدوج^(٩) وقتلوا واحداً من فواده القيمين بها ، واسمه « باسينو اليتا » ، وهدموا حصنه القريب من المدينة ، وقد دعانى القوم لرؤية السحن الخفيف الذى كان يلقى فيه ملوك أرغونة ونفارة بمن يقع في أسرهم من العرسان .

ويوجد السمك — وإن كان بقله — في البحر عند جنوة ولكن الموجود منه شديد الصغر . ولا جدال في أن لو كان رجال الأمم الأخرى قد طبعوا

كالجدوية على حب الرحلة موكلين يبقاع الأرض يذرعونها وتطول عيبتهم
عن ديارهم تهتد الخطر الجسم عفة نسايمهم ، غير أن القوم هنا يقتدرون الناحية
الأحلاقية تقديرأ عظيما ، حتى إنه قل أن ترتكب امرأة الفحشاء ، فإن جرى
مثل ذلك لم يكن لها من عقاب سوى القتل .

غادرت جنوة وسافرت مبحراً على طول الشاطئ المزدحم بالسكان ،
ومضيت إلى « مسترى ليقانت » ، ومنها وصلت إلى « برتوفينيرى » في
اليوم الذى ثار فيه الأهالى ضد دوق ميلانو وملك أرغونة ، إذ كان الدوق
قد سلم المكان للملك .

وبرتوفينيرى ميناء جيد تواجهه جزيرة تعتبر خير وقاء له ، والبلدة
شديدة المناعة لوجود حصنين يقمان عند طرفيها . ولقد أبحرنا من هنا إلى مدينة
« سبيزيا » الكبيرة التابعة لجنوة ، فابحدرنا منها إلى « لربنشى » ، وهى حصن
قوى من أملاك ملك أرغونة ، ثم جئنا بعد ذلك إلى « بيتراسانا » ، حتى
إذا كانت ساعة صلاة المروب وصلنا إلى خارج « ليجهورن » ، وهى ميناء
بيزا ؛ وكان كونت « موديككا » قد جاءها من نابلى فى أربعة عشر غراباً فأخذ
سفينةنا وبعث بجميع من كان بها من الجنوية إلى الأغرية ، على أنه كان من
جهة أخرى حفيأبى ، ولقينى لقاء كريماً عظيماً ، وأمدى لى رغبته أن أرحل
لساعتى ، غير أن بعض الفرسان القفالوسيين أخبروه بمدى الخطر الداهم الذى
أعرض له من جانب الرجال المستحيين فى تلك النواحي الذين يستأجرهم
كونت^(١) فرانشسكو قائد الفلورنسين إذ ذاك ، وكان حينئذ شديد التحيز
للجنوية ، ولقد سمع الكونت منى كيف ثارت « بورتوفينيرى » ضد ملك

أراجون ، وأن « نيكولا »^(١١) بتشينو « كان هناك مع رجاله وكيف عدت معه إلى « ليرتشي » ووجدنا الحصن في أمان وسلامة ، ولكن المدينة في فتنه وقد نهبا الثوار وهاجوا « ميزيا » و « بورتوفينيري » برأويحراً ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليهما رغم تخريبهم ما حولها .

أرسلني بعدئذ كونت « موديك » و « نيكولا بتشينو » إلى « بورتوفينيري » وأعطاني أربعة أسرى من الجنوية تأكيداً لحسن معاملتي ، فما بلغت « بورتوفينيري » — حيث كنت معروفاً بها — وجدت مراكباً أبحرت فيه إلى « لجهورن » ، وإذا دخل المركب نهر « بيزا » وصلت إلى المدينة ، وإنه لمن الممكن على السفن — وقتئذ — أن تصل إلى الأسوار ، ولقد مرّ وقت من الأوقات بلغت فيه يبرامارج القوة والثروة ، ولها أملاك كثيرة ما بين أراض وجزر ، وقد غدى البيازنة الآن خاضعين للفلورنسيين بعد أن كانوا سادتهم بالأمس .

بعد معدرتي « بيزا » وصلت إلى « فلورنسا » ، وعلى بعد عشرة فراسخ من تلك البقعة عبرت قطاراً كثير الفواكه ، واجتازت قرى كبيرة كانت مفرقة من السكان إبان الحروب البيزية ، وتشتهر فلورنسة بصحافتها وثروتها وجمالها من الداخل والخارج .

وهي تقع في سهل تقوم على جانبيه الضواحي المدينة ، ويشتمل في الوسط نهر يصل إلى « بيزا » ، غير أنني لن أطيل الكتابة عن هذه المدينة مرحلاً كلامي عنها إلى وقت آخر^(١٢) .

عبرت جبال الألب من فلورنسا إلى « ستويا » ماراً في طريق كثير من القرى حتى بلغت بولونيا ، حيث بقيت البابا « إيوجين »^(١٣) ، ولقيني

من كان بها من القشتاليين بأعظم آيات الترحيب ، كما أكرم القس
والفرسان وفادتي وأصروا على مرافقتي حين التمسيت الإذن من النابلي التوجه
إلى بيت المقدس ، وأحباب ملتصق ونفختي ببركاته ، كذلك أعطاني صدك
غفران تام عندما تخين ساعة اللوت ، ولقد بقيت مستجماً هناك خمسة عشر
يوماً شاهدت خلالها الحفلات التي يشترك فيها الأشراف والعامة معاً على السواء ،
وكان الوقت منتصب الشتاء حيث اعتاد الناس تسلياً أنفسهم والاحتفال بهدوء
زيحاتهم وإقامة أعراسهم .

وتعتبر للديبة نفسها جزءاً من لمبارديا ، وهي عظيمة الضخامة آهلة
بالسكان ، تتوفر فيها جميع حاجات المعيشة ، ومن أجل ذلك تسمى « بولونيا
السيئة » وأروع ما فيها بيوتها وشوارعها ، كما أن حاناتها قد بلغت العاية
من الحسن ، وأما أماكنها وأديرتها وآية في الجبال ، ومن أعظمها دير « القديس
دومينيكو » المبشر المدفون به جسد ذلك القديس اللغوياني الذي كان أحد
مواطني قشتالة ، وهو « قزمان » الأصل من ناحية الأب « وأساري » من
جهة الأم ، ولقد كان الأخ الأعظم « دون لويس دي قزمان » مدعياً
من نفس البيت ، ولقد أرسل إلى كبير خدام قصره « بدرو دي قزمان »
الذي كان سفيراً لدى البابا وعضواً في سفارة ذلك جوان طالباً إليه أن يقوم
بزيارة المسكن المدفون به القديس دومينيك ، وحرف مبلغ معين من المال به
كان قد أعطاه له لهذا الغرض ، ففعل ما أمر به .

واقدرأبت المصلي والمعبود ، وهما الآن على أبداع صورة من الزينة
ولكنهما كانا مهملين من قبل أشد الإهمال ، كما نقشت حولهما ورسمت
أسلحة قزمان التي أمر بعرضها هناك الفارس الطيب « دون لابس دي قزمان »
رئيس إخوان « كلا ترافا » .

ويحرق عبر المدينة نهر يرجع الفصل إليه فيما هي عليه من فتنة ، كما يوجد بها ، آلة عين ماء بطواحيها ، بعضها لطعن الفلال والآخر للتوابل ، وغيرها لتعطيف الأسلحة وصناعة الورق ونشر الأخشاب وغزل الحرير ، ومن ثم ينتفع الأهالي بالمياه بشق الطرق . وتوجد على أحد جانبي المدينة قلعة ذات جدار من الحصباء التي تقاوم بشدة طلقات التيران ، كما تقوم هنا جامعة من أشهر الجامعات في الدنيا تدرس فيها جميع فروع العلم ، وتري الطلاب من مختلف الجنسيات وأعظم لرجال يعملون فيها باستمرار ، والمدينة تابعة للكنيسة .

وفي أثناء إقامتي في بولونيا اشترت حمادي ، وركبت ورجالي إحدى السفن ، ووضعت بها بضائتي وسافرت إلى « فرارا » عن طريق ذلك النهر الذي وصفته آما ، وهو شديد الضيق حتى إنه لا يمكن لأكثر من سفينة واحدة المرور به ، وإذا حدث أن التقت به سفينتان اضطرت إحدهما إلى الجنوح إلى الشاطئ حتى تمر الأخرى ، وتجمد مياهه كل ليلة ويهمل الأهالي قوارب قد غطيت قيعانها بالحديد ، ومن ثم يروحون ويفقدون بها ليلاهل النهر ، ويحطون الثلج بأعمدة ذات رؤوس حديدية مدببة ، وبذلك يشقون طريقاً للمسافرين به ، وتري الأطفال يرحلون ويبتون مؤتلين وحود بالجليد بكثرة .

وقد استطعنا أن نصل عن طريق النهر إلى نهر « بو » ، وهو من أكبر مجاري المياه في الدنيا وأحد القروع الأربعة التي تتحدر من جبال الألب الألمانية ، ووصلنا عبر هذا النهر إلى مدينة « فرارا » التي ماكدت أبلعها حتى مثلت بين يدي صاحبها الركيز^(١) ، وحببت بها ثلاثة أيام ثم عاودتها عن طريق النهر إلى مدينة « فرانكلنو » ، وتابعت سيرى بعدئذ بالسفن

في النهر ذاته حتى وصلت إلى البقعة التي تدخل البحر وتبلغ مسيرة
يوم واحد .

. . .

بلغت البندقية^(١٥) عند الغروب ، وقد قام على اليمين والشمال كثير من
الكنائس والأديرة والخانات ، وكلها في الماء كالبنطقة ذاتها ؛ وما كادت
قدماى تطآن اليابسة حتى أسرع لروية كنيسة القديس مرقس المبنية على
مشارف المياه ، وأدبت الصلاة بها ، فلما فرغت منها ذهبنا إلى حان اسمه
« السكة »^(١٦) La Storie وهو من أحسن الأنزل بها وأروعها فأقمنا به
يومنا هذا والليلة التالية له ، فلما كان الغد بعد انتهاء القداس رحلت أسأل عن
الصبر في « سلفستر موروريني » حيث كانت معى صكوك مألوية تدفع من قبله ،
وسرعان ما وجدته فأخذ أحدها ونقدني القدر المطلوب ، وهذه طريقة
لا يتوقفون قط عن الدفع بها ، ذلك أنه على الرغم من استعمال جميع التجار
في كل ناحية من نواحي العالم صكوك الدفع هذه إلا أن القوم هنا أسرع الناس
لقبولها ، ولقد قضيت ذلك اليوم معه ومع « كارلامدروزي » وهو أحد
التجار الذين كانوا في إشبيلية ، وظل أمدأ طويلا وهو يستأجر بعض المناجم ،
وقد توثقت أواصر الصداقة بيني وبينه في بيت السيد « دون لويس » ،
ومن ثم رحب بي أجل ترحيب ، وأباح لي التمتع بالخربة في داره التي بقيت
بها طول فترة مكثي في البندقية .

وحين كنت هناك رحلت أستفسر عن سفرتي إلى بيت المقدس ، وعلمت
استعانة المهرض بها قبل ثلاثة أشهر حيث لم تجر عادة سفن الحجاج على الأبحر
حتى يوم الصمود في شهر مايو ، وأحييت أن أقضى تلك المئرة في زيارة العالم
المسيحي ، ومنها بلاط الإمبراطور وبلاط ملك فرنسا ، غير أن أصدقائي التجار

الذين التفت مشورتهم نصحتوني بالتخلي عن هذه الفكرة إلى حين عودتي من أداء فريضة الحج لبيت المقدس ، على أن أقوم في أثناء ذلك بالتجول في أنحاء إيطاليا وهذا أمر جدير بالاهتمام ، وإذ كان موعد الصيام الكبير قد دنا فني استطاعتي قضاءؤه في رومة ، ثم الرحيل بمدن إلى نابلي ومقابلة ملك أراجون ، وذكروا لي أنه بعد إبحار ذلك كله يتبقى لدى عشرون يوماً أو أكثر قبل إبحار السفن إلى بيت المقدس ، ورأيت أن هذه خير نصيحة محضوني إياها فاستعجبت لها ، ومن ثم مضيت لزيارة إيطاليا ، فشاهدت كثيراً من المدن الكبرى والصغرى والقرى والقلاع ، حتى إذا جاء الصوم الكبير ذهبت إلى رومة ، بيد أن البابا « إيجين » كان إذ ذاك في مدينة « بولونيا » كما قلت آنفاً حيث أخرجته من رومة فريق من المشايخين الذين امتشقوا السلاح ضده ، والذين كانوا يرومون قتله ، فإن لم يكن فأمره ، إلا أنه فرّ في قارب على نهر التيبر ومضى إلى « فيزا » ، ومن هناك إلى فلورنسا ثم إلى بولونيا .

الفصل الثالث

رومة . الناما . الأسوار . النيج . القانيكان

نزل ماركس أوليبوس . الكولوسيوم

بعض الكنائس . سوء حال المدينة

سكانها . الحيوانات الصارية

أقيمت في رومة^(١٧) طوال فترة الصوم الكبير زائراً المعبود والمباني القديمة التي بدت لي أروع ما تكون صناعة ، ولا يقتصر الأمر على عجزى عن وصفها بل أشك في أنى يستطيع تقديرها التقدير الجديرة به ، وأرجو الصفح إن قصرت في بيان عنها وفي وصف ما عاينه رومة من نخامة وعظمة ؛ ولا أقدر على السهوض بمثل هذا الأمر ، طراً لدى الهميد من التعريب الذى ألم بهذه المباني القديمة ، وما طراً عليها من تعبير وتدهور ، ومع ذلك فمن الجلى البين أنها تبدو لها طابعها أنها كانت في فترة من الفترات بالغة الفخامة رغم ما حاق بها من الأهوال ، بعد أن أخذت رومة في السقوط من جراء الممارعات التي شت أوارها بين أبنائها الأسماء أنفسهم ، ورغم الدمار الذى أزلها منها الملوك الذين حاربوها ، ورغم يد الزمن التي تطحن كل شيء بشقاها . أضف إلى ذلك أن البابا القديس حريجورى كان قد رأى جموع المؤمنين وقد انشالوا إلى رومة طلباً لنجاة أرواحهم بتمزيقهم الدهشة ويستبد بهم الدهول لروعة الماني القديمة ، حتى أنهم ليقضون وقتاً طويلاً في تملّيحها والإعجاب بها ، وينسون

العرض المقدس الذي قاموا من أجله بهذه الزيارة ، ومن ثم أنفذ البابا أوامره
بتحريب كل أو عظم الآثار التي طاولت الزمن منذ القدم .

. . .

ومحيط دائرة المدينة كبير جداً ، وتمتد أسوارها محتضنة إياها مسافة
أربعة وعشرين ميلاً أعنى ثمانية فراسخ من فراستخنا ، وهذه الأسوار في بنائها
وارتفاعها تظهر كأنها قد فرغت للاحتظة معها يد مبتدع صناع ، أما نواحيها
التي هدمت فقد كان الطامة يعضون منها إليها بين آن وآخر لأن العمل من
الضخامة بالدرجة التي يتعدى معها التخريب المقصود ، وإذن فلا عجب أن
ظلت هذه الأسوار على حالها وبقيت كما بناها الأقدمون .

وبحري في وسط المدينة نهر حمله الرومان إلى هناك وبذلوا جهداً شاقاً
وأجروه في وسطها وهو نهر « النير » ، وجعلوا للنهر أخدوداً جديداً يزعم
الزاعمون أنه من الرصاص ، ومدوا القنوات بين أطراف المدينة وتشرف على
مدخلها وخارجها بنية سقي الجياد ولأداء سواها من الخدمات اللازمة للباس .
فإذا دخلها أحد ما من جهة غير تلك الجهات كان لابد له من أن يفرق ،
وهي جانبي النهر تقوم الطواحين التي تجمل من المدينة وحدة قائمة بذاتها .

وعلى أحد صفتي النير حصن قائم على ربوة ظلت تتراكم وترتفع حتى
صارت جبلاً ، وحول الحصن سور شاهق الارتفاع به أبراج كثيرة قوية
ويسمى حصن « سنت أبلو » ، وهو يقوم على جسر مشرف على نهر النير في
الطريق إلى كنيسة القديس بطرس التي تعتبر مركز الرسل ، ويقال إنه اجتاحت
رومة ذات مرة طاعون تفش بها واستمر أمداً طويلاً ، وأوحى إلى البابا
حريجوري بوجوب الخروج في موكب إلى كنيسة واقعة عند أحد طرفي المدينة

تسمى كنيسة « القديسة أجاثا » حيث كان يوجد صنم يعبدوه الوثنيون بل
 ويتقرب إليه المسيحيون سرّاً ، لأن بعض الشعائر الوثنية ظلت حية باقية ،
 فلما وصل البابا في موكيه إلى الكنيسة وجاء إلى الصنم انطاعت منه حلبة أشبه
 بالرعد وتهاوى قطعاً ، فلما أبصر البابا هذه العجيبة تابع موكيه ، وبينما كان
 عائداً خائفاً إلى كنيسة القديس بطرس عند الجسر الواقع عند سفح هذا الحصن
 تحلى للجمع مع ملك قد حرد سيقاً في يده وكله ملطخ بالدماء ، ثم أخذ يمسحه
 بمياهته ليزيل ما علق به من تلك الدماء ، ثم عاد فوضعه في غمده ، فمدّ هذا
 الأمر إشارة إلى هدوء الرب وأنه لا يريد أن يموت أكثر ممن ماتوا ، وهكذا
 انهارت الوثنية ، وأطاح على الحصن منذ ذلك الحين حصن « القديس أجاثا » ،
 ولا يزال يسعى إلى اليوم بهذا الاسم وقد نصب عليه تمثال ملك ، وأخذ البابا
 جريجورى هذه المعجزة وغيرها من الأمور القوية العجيبة التي جرت في رومة
 بعد الاعتبار ، ومن ثم شرع في هدم كثير من المباني القديمة لأنها صرقت
 أنبياء الحجاج عن الأماكن المقدسة ، غير أنه لم يخطئها جميعاً ، ولا زال
 الذين يذهبون اليوم إلى هناك — إذا أرادوا مشاهدة الأشياء الجليلة —
 يتضون إلى هذه الأطلال قبل أي شيء آخر .

ومسكن البابا ملاصق لكنيسة « القديس بطرس » على منحدرات تل
 « أفنتين » ، وهذه هي البقعة التي كانوا يستعملونها من قبل لعمان حرية
 روما ، وهي ذات الطريقة التي يصطعونها لضار الملة التي يعتبر البابا حامياً ضد
 المراطقة الذين يرغبون في محوها ، وحررت عادة الأباطرة على البقاء هناك عدة
 أيام قبل تنريحهم كما لو كانوا يصكرون ضد أعداء الكنيسة ، ثم يتسلطون
 بعدئذ التاج المصنوع من الذهب في ساحة من الاحتفالات التي أعجز عن

تصليها ، أما مسكن البابا فكان متواضع ، وقد كان غير مرتب حين كنت هناك .

. . .

وكنيسة القديس بطرس^(١٨) بيعة شهيرة ، ومدخلها رائع جداً ، وتصعد المروإ إليها بدرجة بانح الارتفاع ، وتحلى سقفاً القيفساء الكثيرة ، أما الكنيسة من الداخل فصحة وإن تسكن شديدة البساطة ، وقد بلغت من السوء والقدارة حداً كبيراً ، وقد تهدم أكثر نواحيها ، وبوجد على عین الداخل عمود يسامى ارتفاع برج صغير ، وفيه « القيرونيكا » المقدسة التي إذا أريد عرضها فتحت «تحة في سقف الكنيسة ودُلِّي منها صندوق خشبي أو مهدّ جلس فيه خورمان ، فإذا زلا رفع الصندوق أو المهد وأخرجوا « القيرونيكا » في توقير عظيم وعرضها على الناس الذين تحشد زرافاتهم هناك في ذلك اليوم الوعود ، وكثيراً ما يحدث أن تصبح حياة المصلين في خطر لكثرتهم وشدة تراحمهم .

وعلى مسافة أبعد قليلاً يوجد عمودان كبيران قد أحيطا بالخشب يُربط إليهما من به مس من الشيطان ، وقد بشر سيدنا من هذين العمودين بين أهالي بيت المقدس ، وأمامهما الحبل الذي شق به يهوذا نفسه ، وهو في ثمانية ذراع الرجل أو أكثر ، كما يوجد في المحراب الأعلى جسداً القديسين بطرس وبولس ، وفي يوم معين من أيام السنة يكون غفران الخطيئة والعقاب ، كما يوجد هنا أيضاً الكرسي الذي جلس عليه القديس بطرس ، والذي يجلس عليه البابا يوم انتخابه ، والواقع أنه من الخير أن ينظر الأغراب إلى هذا الكرسي بالتوقير لأنه ليس بالتقوى ولا بالموقر .

وبهذه الكنيسة كثير من المعابد ، ويقوم في الجانب الآخر منها برج^(١٩)

عالٍ صنع من قطعة واحدة من الصخر أشبه بقطعة اللاس المثلثة الجواب قد رعت على ثلاثة قوائم نحاسية ، ويمدُّ الكثيرون هذا البرج شيئاً مقدساً فتراهم يزحفون بين الأرض وقاعه ، وكان قد أقيم تمجيداً ليوليوس قيصر وخصص لدفنه ؛ وبأعلاه ثلاث تقاحات ذهبية كبيرة فيها تراب الإمبراطور يوليوس قيصر ، ولا شك في أنه بناء نغم رائع التنظيم بالغ العراية وهو يسمى بمسلة قيصر ، قد نقش في وسطه وأسفله بل وعلى أعلاه أيضاً نضج رسائل قديمة مكتوبة على الحجر ، وإن سمعت قراءتها الآن ، ولسكها تشير في الواقع إلى أن جسد يوليوس قيصر مدفون هنا ، وحول هذا البرج كثير من العماثر التي آكل معظمها إلى أطلال دائرة .



وسكان مدينة رومة قلة إن هم قيسوا إلى حجمها ، ويذهب الكثيرون لاقول بأنه نظراً لتدهور المدينة وقلة عدد سكانها فإنه يخرج من بين أطلال المباني الكبيرة ومن المخازن ومن الصهاريج والبيوت ومن الأقبية العميقة المهجورة الآن هواء سام يضر بالأجسام الآدمية ، ومن ثم يقال إن رومة مدينة غير صحية ، على حين أنها كانت عكس ذلك يوم كانت حافلة بالسكان ، بل إنه ل يبدو - حتى اليوم - أنه حيث يزدحم السكان بنعم الداس بصحة أحسن كما هو الحال في « كامبو دي فياري » وهو حي كبير وكذلك « كامبي دوليو » ، وهو الآخر حي كبير أيضاً ، وفي « جلتيو » التي هي أشبه مانكون ، قرية كبيرة ، أما بقية أنحاء المدينة فلا تضم سوى قليل من المنازل البعثة .

كانت كنيسة القديس يوحنا أول كنيسة أقيمت بين الشعوب اللاتينية ، ومن هذه الكنيسة يستمد الآباء القديسون أنقابهم التي بها يصبحون مطارنة ،

وفي هذه الكنيسة وحولها أشياء فريدة تستحق المشاهدة ، فيقال إن هذه الكنيسة كانت البيت الذي احتفظت فيه رومة بثروتها ، وبها بوابة «تربيان» التي فتحها قيصر حينما استخرج الثروة - والتي ظلت حتى ذلك الوقت مغلقة ، ولما اعتنق الإمبراطور قسطنطين العقيدة الكاثوليكية وأعطى ممتلكات الإمبراطورية للكنيسة ومنحها إياها التمس من البابا سلفستر إصدار مرسوم بشأن هذه البوابة من أجل أرواح الذين يمرون بها باعتبارها كانت من قبل ملأدا لمن يحمي بها ، فإذا قدم هارب ما وبلغ بوابة تربيان لم يستطع أحداً ما أخذه معها بنفت جريمته وذلك تقديراً للكنز الموجود ، ورسم البابا في البداية بحجب خطيئة كل من يعبرها وإسقاط عقابها ، مما جعل البعض على تمدد ارتكاب الخطيئة على أن تغفر لهم بعد مرورهم من هذه البوابة ، ومن ثم أمر البابا بإغلاقها وأن تفتح مرة كل مائة سنة ، ثم خفضت المدة إلى نصف قرن من الزمان ، والآن فإن البابا راض بما رسم .

ويوجد بهذه الكنيسة رأسا القديسين بطرس وبولس ، وهما أثر عظيم جداً وآيتان لفقران الخطيئة ومحو العقاب حين عرضهما كما يحدث أثناء عرض فيرونكا في كنيسة القديس بطرس .

وإلى جانب تلك الكنيسة يوجد مذبح صغير يسمونه «قدس الأقداس» به صورة للسيد المسيح تبدأ من النار إلى أعلى وهي منقوشة على حجر ، ويقال إن سيدتنا العذراء التمس من القديس لوقا - وكان رساماً قديراً - أن يرسم هذه الصورة بعد موت ابنها ، فقبل رجاءها ورسم الصورة التي هي في الواقع عمل من أعظم الأعمال قداسةً وأنسب ذكرى للسيد الذي كان ولا تزال له القوة على جميع الأشياء ، والصورة تظهر بجلاء هيكله وعمره وشكله وكل ما كان عليه ، وعلى حده الأيسر خال هو رمز إنسانيته ، وهي أقدس شيء

وأعظم أثر في رومة . ويحرس الصورة على الدوام - وساعة بعد ساعة - أربعة رجال مسحون بصولجانات حديدية ، فإذا كان يوم معين من السنة وهو عيد العذراء في منتصف أغسطس خرجوا بهذا الأثر المقدس محروساً رجال مدججين بالسلاح ، وحملوه وسط مظاهر الفرح وساروا به في موكب إلى كنيسة القديسة ماريا الكبرى ، حيث يبقى طوال هذا اليوم وتلك الليلة ثم يعودون به في اليوم التالي إلى موضعه الذي كان به ، وتعفر إذ ذاك خطايا جميع من يكونون حاضرين ، على أنه لا يسمح قط لأية امرأة بدخول الكنيسة ، ويقولون إن السب في ذلك هو ما حدث ذات مرة من أن امرأة تحدثت بما جرى فاشطرت شطرين ، وعلى باب هذه الكنيسة ناقوسان يقال لهما كانا أول ناقوسين صمعا في العالم .

ويجرى انتخاب البابا في كنيسة القديس يوحنا ، حيث تقام مختلف الاحتفالات ، ويقسم البابا التاج الثلاثي ، وتحفل الكنيسة بكثير من آثار القديسة هيلينا أم الإمبراطور قسطنطين التي بمث بها ابهما حينما كانا في الأرض المقدسة .

أما الكنيسة فكبيرة ولسكها ليست غنية ، وبمقتضاها حسن البناء ، وتعوزها المطافة والزينة الحيدة ؛ على أنه يوجد خارجها ميدان كبير به كثير من المباني والتذكارات القديمة ، ويقوم بها تمثال « ماركوس » (٢٠) الذي كان سبباً في رفع الحصار عن رومة ، والذي أراد أن يقتل الملك وقتل عشيقته ، فأدان نفسه وأسر بحرق ذراعه اليمنى ، ويرى محتطياً جواداً كبيراً من الحراس المذهب ، ويطل كل من التمثال والحصان على أنهما من يد ماهر صناع في حرفته ؛ ويوجد حول الميدان وعلى مقربة منه كثرة متنوعة من التماثيل

الحجرية والرحامية والأحجار التي نقش عليها نقوش قديمة .

وعلى مقربة من الميدان يقوم «الكولوسيوم» الذي يقولون إنه لا يئس منه قط في العالم بأجمعه من حيث حجمه وعظمته ، وعلى الرغم من استعجاله أكثره إلى أطلال إلا أن ما بقي منه يشير إلى ما كان عليه من فحامة وروعة ، وبطول ما الكلام لو أردنا الحديث عن الكيفية التي حافظ بها الرومان على «الكولوسيوم» وتوقيفه وعن التمثال الذي كان عندهم هناك ^(٢١) ، فقد كان كبيراً جداً حتى إن قدميه كانتا على الأرض على حين تبلغ رأسه أقصى ذروة في السقف وترتفع ذراعه اليمنى ، على حين يمسك يده تفاعلة كبيرة ، وهي موجودة الآن على باب القديس يوحنا اللاتيران ، ومعنى هذا في زعمهم أن العالم بأجمعه في قبضته ، ومن هنا يقال إنه جاءت العادة بحمل تفاعلة أمام الأباطرة ، وبصيفون إلى ذلك أن هذا التمثال كان محاطاً في وقت من الأوقات تماثيل لجميع ملوك العالم وأسرانه ، وقد شدت رقعة كل واحد إلى قدم هذا التمثال الكبير سلسة ، فإذا عرف أن أحد الملوك أو الأسراء قام بانشورة صد رومة كسرا القوم تمثاله وصدرت الأوامر بإعلان الحرب عليه . ومهما تكن الحال فإن «الكولوسيوم» يدل على أنه كان في زمن من الأزمنة بقاء رائعاً وفاخراً .

وتوجد على مقربة منه قصور أكتايوس أوغسطس ^(٢٢) التي يقال إنه بناها وحصنها لما قصه عليه أحد السليين من سقوط تمثاله إن جاءت المدراء بولد ، وكان هذا ما حدث من انهيار قصره يوم مقدم سيدنا ومولده ، ويقال إنه في كل سنة حتى الآن يسقط جزء يوم مولد السيد المسيح ، وتوحد هه رومة كبيرة تشبه التل ، ويبدو جلياً أن هذه الرومة نتيجة سقوط بعض المباني البالغة الصحامة ، حيث يقسنى للمرء رؤية كثير من الرخام والأحجار الكبيرة

وعبرها من الأشياء التي تكشف النتائج عما كانت عليه ، وبوجودها أيضاً دير
شهير لأبناح «القدّيس برنارد» يسمى بدير «سانتا ماريا نود» .

ورومة كنيسة يسمونها كنيسة «سنت كروس» للقدسية محفوظة بها
النبوذة التي كانت مرفوعة على صليب سيدنا وعليها لقبه «عيسى الناصري
Jhs Nazarenu» وجميع ما في هذه الكنيسة - من أرضها وحدرانها وكل
شيء آخر - مصنوع من تراب جيء به في السفن المصعد من بيت المقدس ،
وذلك حين أرسلت القدّيسة هيلينا الآثار القدّسة إلى رومة ، وهاتم المعبرة
الثامة للخطيئة وبسطة العقاب، وتوجد كنيسة تسمى كنيسة «القدّيسة مارية»^(٢٣)
كانت فيما سبق المكان الذي يعقد فيه الشعب الروماني مجامعهم ، وهي قائمة على
أعمدة كبار تملوها طبقة من الرصاص ، ويخصص يوم واحد في السنة لمنح
العفران بها ، كما توجد كنيسة أخرى خاصة بطائفة مهيمنة من الراهبات يوجد
بها رأس القدّيس «يوحنا المعمدان» حيث يمنح للعفران في يوم عيده ،
ويحاوره صود كبير مصنوع من حجر واحد أقيم تخليداً لذكرى الإمبراطور
«تراجان» الذي جاء من قشتالة وكان من أهل «بدرازا» ، وهو الذي سنّ
لرومة قوابلها التي لازلتنا ولازال الرومان يعملون بها حتى يومنا هذا ، سواء
في الحرب أو في تصرف الأمور العامة ؛ ويوجد أيضاً ثلاثة أو أربعة أقواس
ولعل الرومان أقاموا أكثرها تمجيداً لشرف المنتصرين منهم ، ومن بينها
قوس^(٢٤) رائع جداً عميل تعظيماً ليووليوس قيصر .

ونمة كنيسة أخرى تدعى كنيسة «سانتا ماريا آرا كولي» تحتها حجرة كبيرة
على شكل قبر كان الرومان يعقدون بها مجلسهم في بعض الأحيان ، وجرى فيها
اغتيال يوليوس قيصر على أيدي «كاسيوس» و«بروتوس» ، ويتألفها كنيسة

«سانت ماريا ماجورى» حيث يمنح العفران التام بها في يوم معين من السنة؛
ويوجد عند الباب - في الميدان الكبير - صود من الرخام السماقي يحمل ثمنه عن
التقدير ، وتحمل هذه الكنيسة أيضاً بكثير من الآثار المقدسة .



ويتصل بها كنيسة «القديس براسادا» التي يوجد بها نصف العمود الذي رفع
عليه المسيح ، ومسعى بها أيضاً جثمان القديس «جيروم» الطوباني الذي يمنح
العفران التام يوم الاحتفال بميده ، أما الكنيسة التي حبس فيها القديس
بطرس فتسمى بكنيسة « بطرس المصفد » حيث يمنح العفران كذلك ، وخلف
أسوارها تقوم الكنيسة التي أعدم^(٢٥) فيها القديسان «بطرس وبولص»
والتي يوجد بها بعض الميرون ذات المياه الشافية ، وهنا أيضاً تم نعمة العفران
التام ، ويجاورها دير القديس بولص ، وهو دير شهير جداً للاخوان المبشرين ،
وفيه أيضاً يمنح العفران .



وتتوفر بهذه المدينة أشياء أخرى كثيرة ومما يده ، ويتم بها العفران ، كما
توجد فيها مبان مذهشة يستغرق وصفها أمداً طويلاً ، ولما كان الذين يقدمون
لزيرة الأماكن المقدسة يحصون وقتهم في الإعجاب بالمباني القديمة والأطلال
وقد أمر البابا جريجورى بتعطيلها أو تحطيم معظمها حتى لا يشغل الحجاج بالهم
بها ، وحتى ينصرف اهتمامهم إلى الأماكن المقدسة وحدها ، ومع ذلك
فإنه لم يستطع هدمها جميعاً ، إذ أن ما بقي منها ليظهر ما كانت عليه هذه الأشياء
أو بعضها يوماً ما .

وهنا كان قبرا « رومولوس » و « ريموس » أول بناء روما ، كما نصب
كذلك كثير من التماثيل للرجال والنساء تذكيراً خالداً لأعمالهم . وأما رومة

التي كانت رأس العالم وأصبحت الآن ذيله فلم تفقد شيئاً من شعائرها التي كانت لها يوم كان العالم بأجمعه يدين بالخضوع لها ، ولكن تعاسة أحوال المدينة اليوم تحمل من العار التكلم عنها ، ويقال إن الرومان — رغبة منهم في ألا يفقدوا مكانتهم كسادة للعالم وقت أن كانوا مسيطرين عليه — يقومون في يوم معين من السنة بتقديم احتجاج رسمي إلى البابا معلنين أنهم لا راوا مستعدين لإحضار العالم كما كان الحال قديماً ، وأهم لم يفقدوا حقوقهم وإنما جردهم البابا منها ، ويقومون بهذا الاحتجاج الرسمي يوم الثلاثاء الذفر ، ولو شاء الله أن يكونوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم ولم يكونوا — كما يقول الإيطاليون عنهم — شعباً غير ذي قيمة لما مارسوا كل رذيلة ، ولما لعنهم الجميع .

ولم أجد في روما واحداً استطاع أن يكون قادراً على إنباتي بحبر تلك الأشياء القديمة التي كنت أستفسر عنها ، ولسكهم قادرون بلا شك على تزويدي تماماً بأماكن جميع الحانات وسواها من الأماكن ذات السمعة السيئة ، ويقال إن الناس لا يفتاؤون أبداً غداهم في بيوتهم مهما كانت الظروف ، وهيات أن يذاتى لأى معجزة أن تحملهم على ذلك ، وليس من شك في أن ما يسهم ومظاهره — داخل بيوتهم وخارجها — يكشف بجلاء عن حقيقتهم ، وينصب قولي هذا على أغلبهم ، إذ أنه لا جدال في أن بين هذه الكثرة جماعة من الصالحين ، ويقال أكثر من ذلك إن رومة تضم بين جوارسها من السكان رغبم قلة عددهم أكثر مما يضمه أى بلد نصراني آخر في العالم ، غير أنه يوجد بعض نواح داخل أسوارها تبدو كأنها النسابات الكثيفة ، حتى يقال إن الحيوانات المفترسة والأرانب والتعالب والذئاب والعزلان بل والقناقد تعيش في الكهوف .

. . .

ورومة لوحان يزعم القوم فيما يزعمون أنه حدث ذات مرة شجار بين

العامة والنبلاء ، طلب فيه الشعب معرفة العيب الذى يذهب من أجله النبلاء
بالخدمة دونه ، على حين أنهم جميعاً أبناء أب واحد هو آدم وأُمهم بالتالى جميعاً
حواء ، وقال العامة فى نقش تحتوه ^(٢٦) :

*Cum Pater Adam nobis sit, mater Eva, Cur igitur non Sumus
nobilitate Pares ?*

« إذا كان آدم قد خلق من أجلنا ، فيا أمنا حواء لماذا نحن غير متساوين
فى كرم الأصل ؟ »

وإذ ذاك أجابهم النبلاء : « كل الناس يفسدون بتصرفاتهم ، ويصبحون
أقل درجة ، واسكن التفضيلة أرفع ، والأخلاق تطوّر إلى الارتقاء »

*Degenerant omnes viciis, sunt que minores, exaltat Virtus,
nobilitantque mores.*

ومن ثم يقال إن لنبلاء سلطة شرعية تفوق سلطة العامة . أضف إلى
ذلك أن هذا كان السبب الذى من أجله نص القانون على أنه لا يحق الرجل
أو المرأة من الشعب أن يتولى منصب التفضيلية ، وقد شجّب هذا القانون فيما
بعد حين اقترح « سالوست » تعيين — جايوس ماريوس فى مجلس السبييت .

الفصل الرابع

رحلة بعض المدن الإيطالية . مقالة

كوت أرييو رافنا والبندقية .

الاستعداد للرحلة

غادرت رومة وبلغت « فيتربو » ، وهي مدينة رائعة جداً حيث توجد بها حمامات ذات مياه ساخنة يقال إنها تشفى جميع العلل وتذهب شتى الأمراض ، كما يقولون إن البابا أنفذ أوامره بهدمها استجابةً لالتماس طبيبها الخاص ، ولا يعرف أحد الآن أى أنواع الأمراض تبرئ هذه المياه ، وإن عاد الاعتقاد أنها شفت في فترة قصيرة — منذ إنشائها — مرض الاستسقاء ، كذلك يوجد في « فيتربو » جثمان القديسة روضة القدس .

تركنا فيتربو ومررنا بحدن « نارفى » و « تيرنى » و « سبوليتو » ، حتى أدركنا في النهاية « بيروجيا » الذائعة الصيت التي ولدها القائد العظيم « برككيو »^(٢٧) و « سفورزا » والد دوق ميلانو الحالي .

وهذا الإقليم بأحده أهل بالسكان ، حتى تبدو المدن والبلاد والقلاع وكأنها قد اتصل بعضها ببعض الآخر .

غادرت بيروجيا إلى « أستيسى » التي ولدها القديسان فرسيس وكبير ثم احتوت أرضها جثمانيهما ، وهي مدينة ناهية ، تضم بين جواربها ثمانية أو عشرة أديرة للرجال والنساء من أتباع الطوباني البارك فرسيس ، ويقع الدير الرئيسى في أكبر ميادينها ، ولما مضيت للنزول فيه وجدت به واحداً من

أتباع كريدنال قشتالة الذى كان صديقاً حميماً لى وأقامت بالدير مستعجلاً ثلاثة أيام سوبيا ، والشائع أن جسد القديس فرنسيس مدفون فيها ببقعة ما يدلون الطالب عليها ، وإن كان الحق أنها غير معروفة على وجه التأكيذ حتى ولا لمن بالدير ذاته ، ولا يعرفها حقاً سوى البابا الذى أفضى بسرّها إلى أحد الكرادلة وإلى واحد من الإخوان الرهبان . وهذا الدير يبلغ من الروعة أقصاها ، ومن إبداع الصنعة منهاها .

. . .

رحلت بعدئذ إلى «جوييو» التابعة لكونت «أدينو» من بيت ملاتسكا^(٢٨) ، بيد أنى صادفت فى الطريق عسكرياً مدججاً بالسلاح قد أقامه كونت فرانشسكو الذى كان إذ ذاك قد شنّ حرباً على البابا واستولى على كثير من الأماكن ، فنصحتى البعض أن أرسل حياذى من «أسيسى» بصحبة رجل معروف هناك كان ماضياً لمقابلة الكونت ، وذكر لى هذا البعض أنه يرى الخير لى فى ذهابى مترجلاً، فامتدأت مشورته ، وبعد مسيرة يومين ونصف يوم أدركت «جوييو» ، وهى مدينة كبيرة تابعة للكونت الذى وجدته إذ ذاك ماضياً فى موكب مترجلاً لتحية كريدنال كولونيا أخى زوجته وابن أخى البابا مارتى ، ثم أبصرته قادماً وقد أحاط به رجال الدين وهو يرتل معهم حيث قابلوا الكريدنال وتلقّوه لقاء كريماً ، فقدمت معى للكونت ورفعت إليه احترامائى والتفت منه -- محبةً فى الله -- أن يمد يد المعونة لى ، فإنا لا رجل فقير قادم من روما وماضى فى طريقه إلى بيت القدس ، وكان رجالى قد تخفّوا عنى ، إذ كنت قد طلبت إليهم عدم مصاحبى ، فالتجى لى الكونت جابياً وبادرنى قبل كل شىء بالسؤال من أين جئت ، فقلت «من أسبانيا» ، وحينئذ أخذ يستوضحنى عما إذا كنت عريق الأهل ، فقلت «أجل» ، فسألنى إن كنت فارساً فرددت عليه بالإيجاب ، وتطرق بعدئذ فرغب فى أن أخبره كيف جئت وعما أحْتَاجه ،

وقصيت إليه محبر مقدس وحضورى سيراً على الأقدام ، وزدت فثبتت ألى في غير حاجة إلى شيء ما لاستكمال رحلتى بسبب ما توفر لى ، ودكرت له أنى ما حدثت متذكراً على هذه الصورة إلا لرويته والتحدث إليه ، فهاقنى حينذاك وقال « سوف أبذل كل ما فى قدرتى لمساعدتك حتى ولو لم تقبل » ، إلا أننى أحبته بعدم قدرتى على قبول شيء ما أنا كالت الظروف طاك أن لى كل ما احتاجه ، ولأننى صممت على ذلك قبل معادرتى وطنى ، ورغم هذا فقد استمقانى يومين الاستنجام والتمعة ، حتى إذا انقضى هذان اليومان بهت فى طلب أحد أتباعه وأمره بمراقبتى طوال تحوالى فى ولايته حتى أبلغ ميناء « ريميني » التابعة له ، على أن تكون جميع مصاريف سفرتى هذه على نفقته فلما بلغت « ريميني » وجدته قد هبأ لى مركباً وكل ما احتاجه فى رحلتى إلى البندقية .

وعندما صممت بفراق الكونت أخذنى من يدى وهضى بى إلى حجرتى ، وطلب إلى أن آخذ كل ما أأما فى حاجة إليه ، وأعطانى ثلاثة أزواج من كل من قصائمه وملابسه الصوفية ومناشفه ، وإن يكن قد أزعجه كل الانزعاج رفقى قبول أى شيء آخر غير ما أخذت ، ثم ودعنى وداعاً رقيقاً كما لو كنا يدين مقساوين ، وألح على أن أذكره فى صلواتى ، وأن أعاود زيارته وأما فى طريق أوتى ، إلا أن للوت قد مديده إلى هذا الكونت الطيب ، وبقال إله مات ميتة كريئة جداً ورفع إلى مرتبة القديسين .

وتحفل « حيبو » بكثير من الخلفات المقدسة التى من بينها أصبع يد يوحنا المعمدان البنى التى أشار بها حيث قال « هذا هو حمل الله » *Ecce agnus Dei* رحلت مع ذلك التام وباءت « أرينو » التابعة للكونت فلنسا بها

يوماً واحداً رحلةً استغرقت يومين بلغنا في نهايتهما مدينة «ريمبي» الكبرى التابعة هي الأخرى للكونت ، وأقت بها يومين ، حمزلى خلالها التابع قارماً شحنة بالزاد ، ودفع جميع نفقات السفرة حتى أبلغ البندقية ، فلما هممت بفرافه قال لى : « سيدى المارس ، لقد أمرى مولاي الكونت بأن أعطيك مائة دوكانت رها هي ذى الآن » ، فطلبت إليه أن يشكر اللوق شكراً عطيها على شفقتة وكرمه ، إذ لى من المال ما يكفى جميع حاجاتى ، وقلت له : « إن وجدت نفسى فى صائقة فى طريق عودتى إلى وطنى فأنى لا بد ملتس منه مساعدته إياى ، هذا إلى أن رحوى قريب » ، ثم رجونه أن يقبل لى بدى الكونت نيابة عى ؛ ومن ثم اطلق كل منا فى سبيله .

ركبت سفونق وأبحرنا ، فبلغنا فى اليوم التالى مدينة رافا الكبيرة الموغلة فى القدم وإن تكن غير زاهرة بالسكان ، وصادفتنا ريح رخاء ، حتى إذا كان وقت المغرب أدركنا البندقية فتلقانى أصدقائى التجار لقاء طيباً ، ووجدت الأموال التى تركتها عند مفادرتى إياها فى يد أمينة ، وأقت فى بيت صديق « كارلوه وروسيو » ثلاثين يوماً أو أكثر ، حتى جاء يوم الصعود الذى يقع فى شهر مايو الذى يؤذن فيه للسفن — لاسيما سفن الحجاج — بالإقلام^(٩) ، وقد اتفقت أنما إقامتى هذه مع قائد السفينة — كما جرت العادة — على تسكالييف رحلتى وتموينى بفحيرة من المأكولات المحفوظة لوجبات الإفطار والعشاء والعشاء ، وكذلك أحر السفر ذهاباً وإياباً ، فكان خمسة وثلاثين دوكاناً عن كل شخص ، ولما كنت قد فكرت فى الإقامة بالقدس فقد دفعت عن نفسى وعن تابعى^(١٠) الاثنين مبلغ ستين دوكاناً أى عشرين دوكاناً عن كل واحد منا .

ولقد أمضيت بالبندقية فترة من الزمن حلوة مريحة ، لم أتكلف فيها من
البغلة غير شيء زهيد ، وكفت أخرج كل يوم لمشاهدة كثير من الأشياء
الرائعة البهجة ، وتأتى الأخبار كل ساعة من جميع أقطار الدنيا لشدة نشاط
حركة الملاحة ، كما تصل السفن باستمرار من شتى المواحي مما يقتضى
المرء الاستفسار عن السفن إن هو شاء التماس نبأ ما من أى مكان .

الفصل الخامس

رادا . راجوزا . كورفو . خليج كورثة

دير اعرقى . ميدونا . كريت . رودس

الاسطارية . الوصول الى يافا

رحلنا يوم عيد الصمود بعد تناول البركة وأبحرنا ظهراً واتخذنا جانب الخليج الأيسر لأخذ المونة ، ميممين وجهنا شطر إسكلاثونيا [دلاشيا] ، والجانب الأعظم منها يندق ، وتتناثر على طول الساحل كثير من المرافق ، الأمينة والجزر والنوابي ، فلما كان اليوم الثاني بلغنا بلدة تدعى « بارزوا » حيث ركبنا البعر منها إلى مدينة « زارا » التابعة للبنادقة ، ثم وصلنا إلى « راحوزة » الداخلة ضمن أملاك الإمبراطور ، وظلنا طول هذا الوقت نمر بجزائر تابعة لإسكلاثونيا ، بعضها أهل بالسكان والبعض الآخر مقفر ، والإقليم جبلي قعل ، وأهل أطول من رأيت قابة ولكن ما أعظم همجيتهم ، وترى في هذه الدواحي أحسن أنواع البزاة في العالم باستثناء البزاة البرونجية ، ويقال إن الفصاة موجودة في أماكن كثيرة بها .

تابعنا رحلتنا على طول الخليج مارين مدينة « فالوما » الكبيرة التي سقطت حديثاً في أيدي الترك ، فلما غادرنا إسكلاثونيا أبحرنا مصافين لألبانيا وهي جزء من نفس هذا الساحل ، وتركنا إيطاليا ورأس « سبارتيقنتو » على يميننا .

ويمتد خليج البندقية مسافة ثمانمائة ميل بين إيطاليا وإسكلاثونيا ،

وتقع في نهايته جزيرة « كورفو » التي يسميها البنادقة بياهم ، رغم أن البندقية تبعد عنها في الواقع بمائة ميل ، ويوجد على اليد اليمنى ذلك الجانب من إيطاليا المسمى « بأبوليا » وأرض « لافورو » ، أما على اليسار فتقع إسكلافونيا التي كانت تعرف قديماً بدماشيا وكذلك جزء كبير من ألبانيا .

ويسكن الإغريق جزيرة كورفو التي استولى عليها منذ أمد قريب لادريشلاووس ملك نابلي^(٢٠) ، وكان أحذه إياها بنية الاستيلاء على بيت المقدس التي يسعى نفسه على كسبها ، ويقال إن حاجته إلى المال فيها بعد حملته على بيع الجزيرة إلى البنادقة الذين آلت ملكيتها إليهم الآن ، وقد بقينا بها يومين في انتظار ربح مواتية ، فلما كان اليوم الثالث أقامنا مبحرين إلى « مودون » ببلاد اليونان ، وقد مررنا هذا اليوم بخليج « بتراس » على شاطئاته وتمتعنا بمتعة كبيرة بمنظره ، وتقع هنا مدينة « كورنثة » ، وهي مدينة قديمة جداً وذات أبنية رائعة ، ولكنها الآن قليلة السكان قلة بالغة ، ويدخل هذا الخليج الأرض ويكون بالثقائه بالخليج الآخر الذي يدخل من الناحية الأخرى ، شبه بحيرة المورة ، التي كانت تسمى في الأزمنة السحيقة « بأخيا » ، ويحكمها إمبراطور القسطنطينية ، وهي إرث ثلاثين الأكبر الذي يسمونه بطاغية المورة ، وبتوغل هذان الخليجان توغلا كبيراً في الداخل حتى ليقال إن المسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز ميلين ، وقد حدث ذات مرة أن أراد أحد أباطرة القسطنطينية أن يحيل شبه الجزيرة إلى جزيرة لكنه رجع عن فكرته لأنه مثلاً رأى مشيريه واستجابة لنصيحتهم ، إلا أنه أحاطها بسور شديد المنعة لا يزال يرى حتى اليوم .

فلما كان اليوم الرابع أصبحنا مواجهين لمدينة « مودون » ، وقبل

وصولنا إليها ستة أميال مررنا بجزيرة صغيرة يقوم بها دير شهير لإخوة
« سنت باسيل » اليوناني الذين يسميهم اللاتين بالرهبان .

ولما كانت الريح قد هدأت وكفت عن المهبوب فقد رغبت في رؤية
الدير ، فسألت ربان السفينة أن ينزلني إلى الشاطئ ، وحلت معي بعض
السمك ، إذ لا تسمح نظم هؤلاء الرهبان لهم مطلقاً بأكل اللحوم ، فتلقونا
بالفرح العظيم ، وأطلعونا على ديرهم ثم ما لبثنا أن رحلنا ، وقد أخبرنا سكان
الجزيرة أن الرهبان يعيشون عيشة بالغة القداسة ، ويسمى الدير بدير
« سدانقان » (٣١) .

وصلنا هذا اليوم إلى « مودون » (٣٢) الواقعة بين هذه الجزيرة وجزيرة
« سابيزا » ، فأرسلنا بها لنفوس السفينة ولتمكن ربانها وركابها من إنجاز
بعض الأعمال الخاصة بهم هناك لأنهم كانوا بتادفة والمكان تابع للبندقية ،
ويبلغ عدد سكانها ألفي نسمة ، ويكتنفها البحر من جهتيها ، وهي حصة
القسور منيعة التحصين ولكنها منبسطة الأديم ، وأبصرت بها كثيراً من
البسائين الحافلة بمختلف أنواع الفاكهة ، وأرضها شديدة الخصب تشبه في ذلك
أرض الأندلس ، والسكن بها طيب ، ولغة سكانها اليونانية وإن حكمتها
البندقية . وعلى بعد ستة أميال منها مدينة « كورون » التي تقع في الخليج
الأخر الذي نكملت عنه وهي مدينة كبيرة وقلمة حصينة ، واليونانية هي
لغة الحديث هنا أيضاً ، وإن شابهت مودون في أنها تحت سيادة البندقية ،
ويعتلك البنادقة هذه الأملاك في شبه جزيرة المورة لأنها مراکز حيوية
لتجارهم ، والقوم هنا آرياء جداً لأن هذه الأماكن هي موانئ يفرغ فيها
جميع ضروب تجارة اليونان والبحر الأسود ، فبقينا بها ستة أيام ، ثم أبحرنا

شطر « كاندريا » التي كانت تسمى قديماً « بكرتيا » حيث حكمها ذات مرة الملك « أجائون » الذي قاد الإغريق ضد أهل تروجا .

وقد تركنا بحر الأرخبيل على يسارنا ، وهو مليء بالجزر التي يزدهم بعضها بالسكان على حين يقفر منهم البعض الآخر ، ورأيت من بينها جزيرة « سبتيرا » المسماة عند اليونان « بيتريل » ، حيث أميلك « باريس » هنا « بهيين » وحملها إلى طروادة ، كما أبصرت كذلك صحرة قوية ناعمة الملمس شديدة الارتفاع ، يتوسطها كهف ارتفاعه مائتا قامة^(٣٣) وعمقه أكثر من ذلك .

والمسافة من « مودون » إلى جزيرة « كربت » ثلاثمائة وخمسون ميلاً اجتريناها في مدى يومين وإيلتين وصلنا بعدها إلى ميناء « كاندريا » ، ولما كان لاتين كربت لا يعرفون سوى مدينة كاندريا فإنهم بطاقون هذا الاسم على كل الماسكة ، والجزيرة شديدة الخصب عامرة بالمدن الرائعة والقلاع الحصينة^(٣٤) .

وسان أهلها اليونانية ، والحكومة تابعة للبندقية التي ترسل كل سنة درقاً لحكم ، وقد ثار أهل الجزيرة منذ أمد غير بعيد ضد البنادقة الذين أرسلوا قوة عادت لاحتلال السكان ، وصدر قرار بتعديد بقعة معينة من الجزيرة يجمع دراعة أى شيء فيها كما يمنع بها نكاثر للماشية ، ويستهدف هذا القرار الحد من الرعاة الذي يتمتع به أهلها لتوفر كل شيء لديهم .

ومدينة « كاندريا » كبيرة جداً تحمل بالمباني الضخمة الكثيرة ، ويقال إنه يوجد على بعد ثلاثة أميال منها قصر التيه الذي شيد « ديدالس » بالإضافة إلى كثير من الآثار القديمة الأخرى ، والديانة حسنة البناء زاخرة بالبساتين

الجليلة والمياه الوفيرة ، أما الميناء فمشهور وله حاجز صناعي رائع لصد الأمواج ، كما تكثر بها الطواحين الهوائية ، وتطير فوق الجزيرة — في فترة ممينة من السنة — أسراب كثيرة جداً من الشواحين قل أن تجد لكفرتها شارباً لها ، وقد بقينا هنا ثلاثة أيام ثم أبحرنا إلى « رودس » تاركين بحر الأرخبيل والجزائر المتعددة على يسارنا ، والمسافة من « كانيا » إلى رودس تقدر بثلاثة ميل ، فلما كان اليوم الثالث بلغنا الجزيرة ووجدنا هناك بعض الأغربة والسفن التابعة لك أراجون ، غير أننا سلحنا أنفسنا ورفقنا راياتنا الثلاثة الصغيرة التي عليها صورة بيت المقدس ، فلما شاهدنا القوم تركونا في الحال وأبحروا .

• ومدينة « رودس » منبسطة الأديم ولكنها محصنة بخندق وسور ، ويوجد على أحد جوانبها مكان منفصل يقيم فيه فرسان بيت المقدس المعروفون « بالاسبتارية »^(٣٥) ويسمى « كولا كيم » ، وفيه البيارستان الذين اشتقوا اسمهم منه ، وهو من أحلم بيوت العبادة التي تشي لى رؤيتها ، والواقع أنه لا يمكن أن يبرز بناء من حيث روعة المارة أو الزينة أو كثرة المنونة ، ويستقبل الفرسان أى عليل بطرق بلبهم ، ومن وافقه منيته من زلأته المرض حُبَّتْ حُطِيتُهُ وُرى من عقابه ، بل إن أولئك الأشخاص الذين يزورون المستشفى ينعمون بتقارلات ممينة ، ويقع هذا البيارستان على يسار الدخول إلى « الكولاكيم » ، وقد بناء دوق « أنطوان » دى ثلوثيان « كبير فرسان الاسبتارية » للكتلاني للولف .

وقد رحلنا من هناك لمشاهدة المدينة واجترنا كثيراً من الشوارع وبيوت الفرسان ، من بينها بعض مُزَلْ وخانات يتناول فيها الأجانب طعامهم وتم فيها مقابلاتهم ، ولكل أمة مكانها المستقل عن الأمم الأخرى ، وبشرف على رعاية كل بيت من هذه البيوت فارس يركل إليه أمر تأدية ما يحتاجه مارلوها

حسب منهم ، ويوجد عند نهاية مسكن الفرسان — وعلى اليد اليسرى — كنيسة القديس يوحنا التي يدعون إليها دائماً لأداء صلاتهم وعقد محاسنهم ، وتزخر هذه الكنيسة بكثير من الخلفات المقدسة ، ومن بينها — كما يقولون — الوعاء الذي غسل فيه المسيح بديه وجزء كبير من النقود التي بيع بها ، وكذلك بعض الشوك الذي توج به ، وصغار من الصليب الذي رفع عليه ، وغير ذلك الشيء الكثير ، فإذا جاء الفرسان لانتخاب كبيرهم أقسموا على هذه الآثار المقدسة قاطعين العهد على أنفسهم بأنهم سينهجون الحق متخذين الحيدة شعارهم في اختيار أجدر القوم بتولي هذا المنصب ؛ ويوجد أمام هذه الكنيسة البيت الذي يقيم به كبير فرسان الاسبتارية وهو مسكن عادي بسيط ، ويقوم بخدمة هذا السيد اثنا عشر فارساً يسمون « بلرفاق » ينشاورون معه وبأكلون دائماً على مائدته .

ويقوم الفرسان في كل يوم من أيام السنة بإطعام اثني عشر من الفقراء وخدمتهم بأيديهم ، لا بمنعمهم من ذلك إلا انشغالهم بالمرضى أو تفتيمهم عن الحاجة .

ويوجد خان آخر لاستقبال حجاج بيت المقدس الذين ينزل كل واحد منهم الرواق الخاص بوطنه ، فيجد كل شيء حاضراً ومجهزاً له إلا الطعام ، كما توجد كنيسة أخرى بها بعض القس الذين يمثل عملهم في تلاوة القداش للعجاج ، وهدفهم من هذا كله إبعادهم عن العنادق العامة ، ويقوم الفرسان بزيارتهم ، أما من أراد استصحاب ضيف معه فيجوز له ذلك بإذن من كبير الفرسان الذي يعرف بالمارشال .

وبتوفر بحزيرة رودس الطعام والنبذ ، كما أنها تحفل بالسائين التي خصص الجانب الأكبر منها لمائدة كبيرهم الأخ الأعظم يوزعها بين من معه من إخوانه

الإثني عشر ، ويوجد في الجزيرة أيضاً قلعة يسمونها قلعة « يوديجو » ، ويمكن أن يقال الكثير عن هذه القلعة الطيبة من العرسان ، ولكنني أنزكم الآن لأتحدث عن أشياء أخرى .



رحلنا عن رودس وصعدنا « بقشيل الروج »^(٣) وهي جزيرة مواحية لساحل أرمينيا ، كما أنه قلعة حصينة جداً تابعة للعرسان ، واتخذنا الطريق إلى قبرص محادين شاطئ تركيا حيث يسكن كبار السادة الأتراك وكذلك السكرمان ، ولورد كانديلور ولورد ستاليا وسوام من الحكام الأقوياء ، وهناك أخذونا إلى مدينة يقال إنها خربت من جراء خطيئة اللواط ، ثم أبحرنا لمدة ثلاثة أيام على طول ساحل خليج « ستاليا » حتى وصلنا إلى جزيرة قبرص مارين بمدينة إسمها « ألباف » ، غدت الآن مقبرة من السكان لفساد هواها ورداءة مأثها ، ولما لم نجر عادة حجاج بيت القدس بالنزول في الجزيرة في رحلتهم الخارجية فلست بمستطيع في هذا المكان أن أقص عليك أكثر من هذا بشأنها ولكني سأتكلم عنها فيما بعد . وهكذا تابعنا رحلتنا إلى بافا - ميفاء بيت المقدس - والمسافة بينهما تقدر بثلاثمائة وخمسين ميلاً ، وظلنا مبحرين ثلاثة أيام بلياليها ، حتى إذا كان اليوم الرابع بلغنا شاطئ الأرض المقدسة ، ولكن لما كان معظم القطر شديد الانبساط فإنه لا يستطيع رؤية مدخل بافا .

الفصل السادس

انرسو يافا . بيت المقدس . القبر المقدس . بيت لحم
أرمحا . الأردن . البحر الميت . الحكم
والنميمة . مسعد الصخرة

لا تسكاد سفينة الحجاج تصل إلى يافا حتى يُنْقَضَ محبرها في الحال نفرياً
لقيم جبل صهيون الذي يرسل اثنين أو ثلاثة من الإخوان إلى والي القدس
الذي يعود معه صك^(٣٧) أمان من السلطان ، وإذ ذاك تؤذن للحجاج بالنزول
إلى الشاطئ . بعد كتابة أسماهم وإرسال صورة منها إلى والي ، على حين
يحتفظون بنسخة ثانية منها ، وبذلك يأمنون جابهم ، أو أي مكيدة قد يدبرونها ،
وحيثما نطأ قدم الحجاج الأرض يتلقاه جماعة من المسلمين يحبرهم التي يظل
الحجاج يركبونها طوال فترة مكثهم في الأرض المقدسة ، وبقدريتم استئجار
الدابة بدوكين لا يزيدان أو ينقصان .

ويبقى والي والإخوان الرهيان مع الحجاج إلى « رامة »^(٣٨) وهي مكان
كبير يبعد عن يافا خمسة فراسخ حيث كان دوق جودفري^(٣٩) دى بويرن قد أقام
فيها خادماً للحجاج حين استيلائه على القبر المقدس ، وهو مجهز أحسن تجهيز وحافل
بالعرف التي جعل بعضها للرجال وخصصوا البعض الآخر للنساء ، ومن ثم
بقينا به يوماً واحداً ، حتى إذا ابتاع صياح اليوم الثاني سافرنا مسافة ميلين
إلى دير « القديس جورج » الذي يقال إن جثمانه به والذي يؤمن الناس
بقتله الذين هنا ، على حين يقول البعض الآخر إنه قتل في بيروت التي هي
ميناؤ دمشق .

وبعد أن غمنا تلك الليلة في مكان يبعد عن هذه الباحة بحمسة فراسخ ويتأخم قبة تعرف بقبة عاموس^(١٠)، غادرتاه في اليوم التالي مبكرين وقطعنا خمسة فراسخ أخرى إلى مدينة القدس التي طالعناها على بعد أربعة فراسخ تقريباً، حيث استطعنا أن نرى علداً من المباني وكذلك جبل صهيون وقبة الملك داود والقبر المقدس وهو كنيسة مرتفعة جداً.

حينما دخلنا بيت المقدس خرج لاستقبالنا مسيحيوها من اليونان وغيرهم من الشعوب الأخرى، وأخذونا إلى ميدان كبير أمام القبر المقدس أدينا فيه الصلاة، ولكنهم لم يسمحوا لنا بدخول الضريح ذاته، ثم مضوا بنا إلى خان يشبه ذلك الخان الذي أسسه «دوق جودفري دي برون» ألقينا فيه وفرة كثيرة من الطعام الذي يهيئه اليونان ويتفنون في طهيه بشئ الطرق وبيعهونه للصاري.

لم نلبث إلا قليلاً حتى أقبل كقيم جبل صهيون مع إخوانه الرهبان مستصحبين معهم عشرة أو إثني عشر فارساً ممن يعيشون في الدبر، فلقنا حيث نحن في غابة الراحة ثم ترك لنا الآقيم اثنين من الإخوان عهد إليهما بالزمتنا منذ ذلك اليوم ليمكنا من مشاهدة ما ببيت المقدس وضواحيه من المناظر. ويقع دير جبل صهيون هذا على أعلى بقعة بأحد جانبي المدينة، وبه كثير من الأماكن التي أظهر فيها سيدنا المسيح معجزات كبرى، كما يوجد أيضاً رجا شاهق في القمو الذي ظهر فيه سيدنا على صورة السنة من البيران لتلاميذه حينما كانوا مجتمعين هناك، وكان هذا عيد العنصرة، ويستطيع المرء أن يشاهد من هذا المكان بحر «حدوم وعمورية» المسمى بالبحر الميت الذي كان مكانه من قبل خمس مدن؛ وتقوم أسفل هذا البرح

الكنيسة التي تحمل فيها سيدنا للقديس توما الرسول وطلب إليه أن يصع يده في جانبه^(١١) ، كما جرت في هذا المكان أحداث أخرى عديدة ، ويقوم عند الدخول في وسط أحد الشوارع « بيت العذراء ماري » ، وإلى جواره — خانق الدير — يوجد المكان الذي تناول فيه سيدنا العشاء الأخير مع حواريه .

بقينا يوما هذا حيث كنا ، فلما كانت العداة سمعنا القداس في القبر المقدس الذي يفتح مرة واحدة في السنة ، وهناك أخذوا في عدنا وفق القائمة التي دونوها في يافا ، فدفع كل حاج سبعة دوكات ونصف ، بالإضافة إلى اللوكين الذين استأجر بهما الدواب ، كما دفع في الأماكن المقدسة مقدارا مميّنا من عملة صغيرة تساوي كل إحدى عشرة قطعة منها دوكا واحداً ، وبذلك يكون كل حاج قد دفع إثني عشر دوكا ونصفاً : مكس دخول .

وبينا نحن نقاهب لدخول القبر المقدس خرج للاقائنا موكب من جميع أولئك المسيحيين الذين كانوا مقيمين هناك منذ السنة الماضية^(١٢) ، وأغنى بهم الكاثوليك (وهم ثلاثة من الإخوان القرنيسكان) واليونان والمسيحيين اليعاقة والأرمن وأهل منتوريا والهند والأقباط — وهم ينتمون إلى سبع أمم مختلفة من النصارى .

. . .

انضمنا إلى اللوكب وذهبنا إلى القبر المقدس ، وهو كنيسة ضخمة شاهقة الارتفاع بها فتحة كبيرة ينفذ منها الضوء ، وبداخلها كنيسة أخرى أصغر منها حجما وبها القبر المقدس ذاته ، ولسكنه شديد الصغر حتى

أنه ليس به مكان لواقف سوى القسيس الذى يرتل القداس والخدام ،
فما فرغنا من أداء الصلاة به ذهبنا صحبة الموكب إلى جبل «الجلجلة»
حيث صلب سيدنا ، ويقع على بعد اثنتى عشرة أو خمس عشرة خطوة
من هذا المكان ، وهو صخرة كبيرة هورم عليها كنيسة محلاة بالقسفساء ،
ولا يزال يرى الثقب الذى وضع فيه الصليب وكذلك الثقوب التى
وضع فيها صليبيا اللصين .

ولما فرغنا من الصلاة به نزلنا إلى البقعة التى وضع فيها المسيح
بالزيت ، ومن ثم إلى الحجرة التى حبس فيها قبل صلبه .

وشاهدنا بمدئذ المكان الذى عثرت فيه القديسة هيلانة على الصليب
وكذلك الناصية التى أشار إليها سيدنا بأنها مركز الدنيا ، ويتصل بها
سكن الإخوان الرهبان ، حيث تحفظ الآثار المقدسة ، والذى ظهر فيه
سيدنا للقديسة مريم على شكل بستانى ، وتقوم عند الدخول قاعة كبيرة
تتدلى فيها رايات وأعلام كثيرة من الملوك والأمراء للسيحيين ، ويضع
الفرسان هنا أسلحتهم ، ويرى المرء كل هذه الأشياء وأكثر منها فى
طريقه من هذه المنيرة وكذلك الآثار المقدسة ، ولكل شعب من هذه
الشعوب النصرانية المشار إليها كنيسة خاصة به .

تركنا الموكب وسممنا القداس ثم تناولنا غذاءنا الذى أعده اليونان
لنا إعداداً جيداً لقاء ما دقمناه لهم .

وأذن فى هذا اليوم المسلمين والنصارى أن يمرضوا علينا بضائعهم
لتشترى منها ما يريد ، وأقمنا يوماً وليلة نستمع إلى التراتيل والخدمة
للدبية : كل وفق طريقة بلده .

ويوجد هنا قبر «جودفري دي بويون» ، وقد علته قبرية ذات نقش^(٤٣)
حمرت على حجر ، وإلى جواره قبر أخيه «بلدوين» وقد صيغ على
دت الصورة وعليه نقش آخر .

ولما كان اليوم التالي - وقد فرغنا من سماع القداس - فتحتوا لنا الأبواب
وأذنوا لنا بالخروج بعد أن أحصوا وأرسلونا إلى فندقنا ، ورأينا هذا اليوم
الجهنمي ووادي «جيمونابات» حيث يقوم قبر المذموم ماري ، وهو
قبر تحت الأرض ينزل إليه المرء بحمس عشرة أو عشرين درهماً ، ويقوم
بحراسته الفرنسيون ، فدفعنا هنا مبلغاً معيناً من النقود ، ثم مضينا
منه إلى المكان الذي أخذوا به سيدنا في الخديعة ، واثبتنا بعدئذ إلى
جبل الزيتون حيث صعد المسيح إلى السماء ، وتوجد هنا كنييسة
شهيذة تضم -صخرة قد اطلع عليها أرقطه .

كذلك رأينا المكان الذي اجتمع فيه تلاميذه وانفقوا فيه على
«مبادئ العقيدة» ، ومضينا منه إلى البقعة التي هُتف فيها المسيح «أها
الذي في السموات» ، وتجاور هذه البقعة الشجرة القديمة التي شق يهوذا
نفسه إليها .

وفي أثناء عودتنا إلى بيت المقدس اجتزنا المكان الذي ظل خشب
الصليب محفوظاً فيه أمداً طويلاً ، وعلى مقربة منه الموضع الذي رُجم فيه
القديس «اسطمان» ، فدخلنا المدينة من «البرابة الذهبية» الملاصقة لمعبد
سديان ، ومررنا بالبركة التي حرك الملاك مياهها وشفى بها المرمى ، ثم
شاهدنا بيتي بلاطس وكافا حيث حوكم المسيح . ولا روالا حتى اليوم
يعدمون الناس هنا ، كما رأينا الشارع المسمى «بطريق الآلام» حيث حمل

سيدنا الصليب على كتفيه ، وهو طريق مسقوف ، وتتجمع به اليوم
مياه الأمطار التي يجزئها الأهالي في صهاريج للشرب منها ، لأن المدينة
تعانى ندرة في الماء .

ونحن هذا اليوم في نُزُلنا .

. . .

حتى إذا كان اليوم التالي غادرتا بيت المقدس مبكرين في صحبة الحاكم
والإخوان الفرسان وقصدنا « بيت لحم »^(١١) التي تبعد مسافة خمسة فراسخ
عن بيت المقدس ، فأطلعونا في الطريق على كنيسة تشير إلى البقعة التي
ظهرت فيها النجمة للولك الثلاثة ، ثم سرنا فرسحاً بلغنا بعدد بيت
النبي « إيليسا » ، حتى إذا كانت الظهيرة جئنا بيت لحم ، وهي بلدة صغيرة
يسكنها قرابة خمسين نفساً ، وهنا ناقشنا السلدون في إظهار توابهم لها ؛ ودخلنا
الدير وهو يرشهر غنى حافل بالباني الجميلة ، ويعيش به على الدوام ستة
من الإخوان ، فلما بلغهم خبرنا خرجوا في موكب للملاقاة وانطلقوا بنا
في الحال إلى كنيسة تحت الأرض هي التي ولد بها سيدنا ، وإلى جوارها
المزود ، كما يوجد عند مخرجها السكان القدي ختن به المسيح . ثم شاهدنا
الأقبية التي كانت مدفناً للأبرياء ، وفي هذه الأقبية السكان القدي ترجم
فيه القديس جيروم الإنجيل^(١٢) ، فأقننا به يومنا هذا ودفعنا الأجر .

رحلنا في العد بعد سماعنا القديس ميممين شطر البقعة التي وُلِدَ بها القديس
يوحنا المعمدان وهي على بعد خمسة فراسخ ، وقد عاش بها القديس « زكريا »
وكتب ها مزموره^(١٣) Bene dictus Dominus Deus Israel ، ويحفل هذا
للسكان بكثير من الأشياء للقدسة

. . .

أهنا في بيت لحم طول هذا اليوم ، ثم عدنا غذائه إلى بيت المقدس الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ فوصلناها مبكرين ، وقصينا هذا اليوم في زيارة بعض الأحرار للقدسة بالقدس ، وهي بيت القديسة « آنا » والبيت الذي أكرم فيه القديس بطرس سيدنا (ويوجد هنا أيضاً الحجر الذي سده القبر) وبيتا القديسين : جيمس الصغير والكبير ، وقبر أبسالوم الواقع خارج المدينة ، ويقال إنه حدث في الأيام الأخيرة القليلة أنه بينما كان بعض المسلمين ينقبون عن كنز هناك إذ دوت صرخة أخرجهم القوم على أن هذا أمواتا .

كذلك رأينا نبع ماء يقولون إن تعجيره كان على يدي المسيح وأمه العذراء ، كما شاهدنا المكان الذي تعثر به سيدنا وهو حامل الصليب ، ورأينا قلاع الملك داود والناحية التي غسل فيها المسيح أقدام تلاميذه ، وغير ذلك من الأماكن الأخرى المقدسة الكثيرة .

استرحنا يوماً ثم انطلقنا مبكرين من بيت المقدس مع الحاكم والإخوان الرهبان ، وتناولنا غذاءنا على مسافة فرسخين من هنا عند القلعة والمكان المسمى « مادالون » الذي كان إرث مريم المجدلية ، ويشتمل على كنيسة ذاتة الصيت ، والمكان الذي أقام سيدنا فيه « لمازرو » من بين الوثائق وغير ذلك من المواقع المقدسة ودفعنا هنا رسوماً .

فلما كان المساء رحلنا وجئنا إلى مكان تابع « لمازرو » تحت مريم المجدلية ، وبما تلك البنية في بيت بالجبل الذي أبرأ فيه سيدنا المرضى الذين جاءوه بهم ، وذهبنا في الصباح التالي إلى « أريحا » التي تبعد خمسة عشر فرسخاً من بيت المقدس ، ويوجد هنا واد كبير وسهل فسيح يشقه نهر الأردن ويمضي إلى المكان الذي عمد سيدنا فيه القديس يوحنا المعمدان ثم تعمد عنده على يديه ،

حيث يقوم في الماء حجر يشير إلى بقعة التعميد ، فاغسلنا جميعاً هنا ، ولكن غرق أحد رفاقنا وكان المائياً . وهذا المكان أعظم الأماكن طهارة .

كان على الحجاج أن يعودوا تلك الليلة ليناموا في أريحا وليذهبوا غداً إلى Quarantana حيث صام سيدنا ، إلا أني اتفقت مع رجل مسلم على أن يأخذني إلى صحراء العرب الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ حيث بشر القديس يوحنا ، وحيث لجأ للعيش بها أول ناسك وهو القديس أنطونيوس وعبره من الآباء الطوبانيين ، ثم عدت من هناك عن طريق البحر الميت حيث كانت « سدوم وهورة » وثلاث مدن أخرى ، أي حيث كانت خمس مدن دمرت عن آخرها من جراء خطيئة اللواط .

والماء هنا كربه تنافه النفس حتى ليمحز المرء عن وصفه ، ويقولون إن السمك لا يستطيع الحياة به ، وأن الطيور لا تطير فوق هذا المكان . وقد أفضى إلى المسلم الذي سافر معي بمعية كبيرة هي أن نهر الأردن يدخل البحيرة ويخرج من الناحية الأخرى دون أن يمتزج بالمياه الأسنة بصورة تجعل المرء قادراً على الشرب — وهو في وسط البحيرة — من مائه المذب ، وكل ما يقال عن هذا الرادى هو وحود أشجار معينة طويلة شديدة الاستقامة عملة بفواكه كثيرة تشبه الليمون ، فإذا مسها أحد ما بأصابعه ولو مساً رقيقاً هيئاً تفتتت وانبعث منها دخان ، وظلت الرائحة السكرية عالقة باليد طوال اليوم^(١٧) .

عدت في اليوم التالي إلى أريحا^(١٨) حيث تناولت غذائي بها ، وهي قرية تسكنها مائة سعة ، وجمعت منها بعضاً من تلك الورود النافعة للنساء وقت الحمل ، وشاهدت كثيراً من الأمهات كن المرتبطة بسيدنا ، ويوجد عند ذلك النهر ولاية « يثانيا » شرقي الأردن ، وتمت تلك الليلة عند الجبل الذي صام عنده

سيدنا حيث انضمت ثمانية إلى الحجاج ، وهذا الجبل شاهق الارتفاع ،
توسطه بعض كمائن صغيرة ، وبه طريق للصمود شقته القديمة هيلانة تعظيماً
لهذا المكان ، وبينما نحن صاعدون إذا بسيد فرسي قد زلت قدمه - وهو ذاهب
لمعاونة إحدى السيدات - فسقط من الجبل وتناثر قطعاً على الصخور التي بسفحه
لأن المكان شديد الخطورة في تسلقه؛ ثم انحدروا واتخذنا طريقاً آخر أسهل من
الأول أدى بنا إلى نفس القمة التي حاول الشيطان عندها غواية سيدنا
وتجربته ، ثم عدنا بعدئذ حتى بلغنا عين ماء قدم إليها أناس من أربحا يحملون
علماً ليبيعوه لنا ، فبقينا هناك تلك الليلة ، حتى إذا تبلى الصباح أخذنا جمان
ذلك السيد^(١٩) وحملناه إلى البيت المشار إليه بالجبل ودفعناه ، ثم بقينا هناك
بقية هذا اليوم .



عدنا صباح اليوم التالي إلى قلعة « مدالون » وإن بكى الحاكم قد تحف
عنا للذهاب إلى الصيد ، غير أنه عهد بنا إلى واحد من فرسانه سار في صحبتنا
إلى الكعبة التي قام فيها « لعازر » من بين الموتى ، فلما بلغناها طلب منا
القيم عليها أداء الضريبة ، لكن السلم الذي كان معنا أوى دفعها إليه محتجاً بأن
ذلك على غير ما جرت به العادة ، واشتد العراك بينهما امتداداً عنيماً حتى لقد
استل القيم ورجاله السلاح ضد الفارس الذي عهدوا إليه بمحافتنا وحرصه ،
فنهضنا لنعدته وهاجماً الآخرين وجرحنا كثيراً من المسلمين ، وانتهى الأمر
بأن قبضنا على الحارس ورجاله وحملناهم أمام الوالى الذى كان قد اقترب منا
إذ ذاك ، وراح يستقصى جلية الأمر ، فلما أدركه أصدر حكم الإعدام على
الحارس الذى قطعت رأسه بلا معارضة ، أما بقية الأسرى الآخرين فقد أمر

بجلدهم ، وبقيتنا هناك حتى المساء ثم عدنا لنقام بالقدس .

فلما كان اليوم التالي سافرنا مع نفس الفارس وجئنا إلى « باثينيا » فأرونا
أما كن مقدسة كثيرة ، من بينها جبل « ثابور » حيث تجلّى سيدنا ، ويقال
إن هنا أيضاً الوادى الذى به قبرا آدم وحواء ، وعدنا تلك الليلة إلى بيت
المقدس مارين بعدة أما كن مقدسة ، من بينها البستان القى صلى فيه سيدنا
واقفد ، فوصلنا هذه المدينة مبكرين .

سأوتُ تلك الليلة أحد الأعلاج من أهل البرتعال على أن أعطيه دوكن
إن هو أدخلنى معبد سليمان^(*) فقبل عرضى ، فلما كانت الساعة الواحدة بعد
منتصف الليل أدخلنى إياه بعد أن ألبسنى ملابسه ، ورأيت المعبد وهو هيكل
من صخرة مفردة وكله مزين بالفضة والمذهب ، وأرضه وحوائطه من أجل
أنواع الحجر ، وتتدلى فى المكان كثير من المصابيح التى يخيل لرائيها أنها
متصلة كلها بعضها ببعض ، وأما سطحه فنبسط جداً ومنغلى بالرصاص ،
ويقولون أيضاً — وهذا حق — أنه حينما بنى سليمان هذا الهيكل كان الغم
بناء فى العالم كله فى يومه ، ثم تهدم وأعيد بناؤه ، ولكن لا شك أنه
لا مثيل له حتى فى حالته الراهنة ، ولو عرف القوم حينذاك أننى مسيحى
لبادروا إلى قتلى دون توان ، فقد كانت هذا المعبد منذ أمد قريب كنيسة
مقدسة ، غير أن أحد القربين إلى السلطان حمله على أخذه وتحويله
إلى مسجد .

آب بى العليج الذى أخذنى إليه إلى جبل صهيون حيث كان الإخوان
الرهبان فى حزن على ، فلما منهم أننى قد لقيت حتى لعدم عودتى فى الموعد
المضروب ، فلما رأونى كانت فرحتهم بى عظيمة ، وكذلك كان شأن السادة
من رفاقى .

إنفقتنا على أن نذهب في اليوم التالي لسماع القداس، وأن نبقى يوماً وليلة
 في القبر المقدس، ومن ثم بلعنناه عند انبلاج النهار ومضوا ففتحوا لنا الأبواب
 بنفس الاحتفالات السابقة، فبدأنا بالاعتراف، ثم تناولنا القربان، وتصبّت ثلاثة
 من السادة فرساً للقبر المقدس، إثنان منهم من ألمانيا وثالثهم فرنسي^(٥١) الخنسية.
 ووضعنا أسلحتنا في المكان المهود، وأخذنا بعض الآثار المقدمة التي تفصل
 بها علينا الحارس، وقضينا طوال هذا اليوم والعد في مباح القداس ثم افترقنا،
 واستفسرت عما إذا كان من الممكن زيارة دير « سنت كاترين » على جبل
 سيناء المتاخم للبحر الأحمر، لكنني علمت أن الحراس الذين مع الرجال قد رحلوا
 مع سفير من تركيا ذاهب إلى سلطان مصر، ومن ثم لم يكن من المستطاع
 إنحاز رحلتى، وكنت راغباً في البقاء هناك حتى السنة التالية إذا احتاج الأمر
 إلى ذلك، بيد أن الحارس نصحنى بالذهاب إلى قبرص لرؤية السكردينال أخى
 الملك اليعوز، ذاكرألى أنه سيمطينى عهد أمان إلى مصر، وبذلك أستطيع
 الوصول إلى جبل سيناء من هناك.

فعزمت أن أفضل ما أشار به.

الفصل السابع

مخادرة قبرص . رامة . بلنا . بيروت

قبرص . طاقور سفير الى

سلطان مصر

رحلنا في اليوم الثاني محبة الوالي والإخوان للفرسان وقضينا ليلتنا بمدينة الرملة ، حتى إذا كان اليوم التالي بلغنا ميناء يافا فوجدنا السفن في انتظارنا فركبناها ، وعاد المسلمون والإخوان إلى بيت المقدس بينما أبحرنا نحن إلى بيروت ، وقد جاء في هذا اليوم الوالي « ناصر الدين » وروى لي ما أصاب ملك الدانيمرك وهكذا بلغنا ميناء دمشق ، ومهدنا على طول الساحل بمدن صور وعسقلان وعكا التي توجد بها قلعة كان فرسان القديس يوحنا قد ارتدوا إليها بعد ضياع بيت المقدس من أيديهم ، وعلى مقربة منها « الناصرة » (٥٢) التي كرمت فيها سيدتنا العذراء - وهي تقع في الجليل ، وهكذا وصلنا إلى بيروت حيث اشترى ركاب السفن ما شاءوا من البضائع ، ورغبت أنا في مشاهدة دمشق إلا أنهم لم يستطيعوا البقاء لا يتظاهري ، وقد رأيت من هذا جبل لبنان بجميع أشجاره وغابات الأرز وإن بدت أشبه بأشجار النار ، ويقول الناس إن مار جرجس قتل القنين هنا في بيروت ، وأنهم يحملون الآن هذه الخلوقات في الحقول تحت الأشجار أشبه بالمقارب ولا تكبر عنها وإن تكن غير سامية ، ومرجع ذلك كما يزعمون إلى صلوات الطوباني مار جرجس .

وقد جمعت معلومات جمة عن دمشق ، وإذا لم أكن قد رأيت ذلك المكان فإنني أ تجاوز عن وصفه وأتركه لمن كانوا به ، وكان رحيلنا عن بيروت في

محاذاة للساحل الشامي حتى أرمينيا التي يقال إنه كانت بها أنطاكية القديمة وقد أرونا إياها ، ثم تقدمنا على طول الساحل فرأينا قلعة « كوثليس » حيث عاش « ميدا » وجزيرة القطيع الذهبي ، وهذه القلعة تابعة لملوك قبرص الذين يتمتعون^(٥٢) أنفسهم بملوك أرمينية ، ويوجد في هذا القسم من أرمينيا سلسلة جبلية مرتفعة تعرف بالجبل الأسود ، ويقولون إن سفينة نوح استقرت هنا بعد الطوفان .



وقبالة هذه القلعة توجد جزيرة قبرص ، وتقوم في هذا الجزء المواجه لأرمينيا بلدة « للاغوصة » القديمة التي استولى عليها الجنوية حينما أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته^(٥٣) إلى جنوة ، حيث وضعت للملكة ولداً أسماه « جانوس » وهو والد الملك الحالي ؛ والكان قليل السكان لفساد هوائه ، ويقال إن به بحيرة اسمها « كوستانزا » هي علة ضعف الصحة ، وإن تكن معظم نواحي مملكة قبرص غير صحية .

وصلنا عند انبلاج النهار وأقينا مراسيدنا لشحن السفينة بالبضائع ، وودعت قائد المركب وأصدقائي ، وأزلت تجارتني إلى الشاطئ ورحلت أفتش عن مطالباً استأجرها لنقل أمان وجماعتي وبضائتي ، فلما فرغت من ذلك كله رحلت ميماً شطر « نيقوسيا » التي تبعد مسافة عشرة فراسخ وهي أهم مدن المملكة وأصحها ، وقد اعتاد الملوك عقد بلاطهم بها ، كما أن فيها مساكن كبار رجالات المملكة . وإذا كان الوقت متأخراً فقد تحتم على البقاء في فندق موجود على مسيرة فرسخين من المدينة ، وبينما أنا في طريق إليهِ اتنابتني آلام شديدة في رأسي خلتُ معها أن منيتي قد حانت ، وبلغ الألم سائقاً ، وأحسست

به يهاجني في ممدتي وبعاني وأرداني وأنفاني وركبتي حتى القدمين ، وظل
هذا الألم ملازمي تلك الليلة واليوم التالي بطولها إلى وقت الغروب ، فما خالجي
شك في أنني لا بد وأن أموت لو بقي هذا الألم ثلاث ساعات أخرى .



سافرت تلك الليلة وجئت إلى مدينة «نيقوسيا» وكان لللك موجوداً بها إذذاك
ونزلت في أحد الفنادق ، فلما أشرق الصباح ذهبت إلى كنيسة مارجر جس ، و بينما
كنت أستمع إلى القداس بها اقترب مني سيد من أتباع السيدة «انيز»^(٥٥) - أخت
للك السابق جانوس - كانت قد أوفدته دعوتي للمثول بحضرتها ، فلما فرغ القداس
توجهت مع التابع إلى قصر السيدة وأظهرت لي احترامها ، وقدمت لها احترامى
ورحبت بي ترحيباً حاراً ورغبت أن تعرف من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وما هي
وجهتى ؟ وبعد محادثتها إياي طويلاً أمرت أن أقيم في قصرها وأن يوفر القوم
لي كل ما أحταجه أنا ومن معي ، ولقد كانت هذه السيدة فاضلة جداً ولكنها
غير متزوجة إذ نذرت نفسها في شبابها أن تبقى عذراء ، وكانت تمض باستمرار
بجلس الملك ، وهياً لما تفوردها أن تدبر معظم أمور المملكة ، وكانت تبلغ الخمسين
تقريباً من عمرها . فلما نلت قسطنطين من الراحة أخذتني في اليوم التالي إلى الملك
ابن أخيها^(٥٦) وإلى أخيها الكرديبال ، فقدمت لكل منهما احترامى وأحسننا
لقائى وقصصت عليهما سبب رحلتى ، ذاكرأ أنني جئت في المكان الأول لزيارة
الملك وبلاطه ، وثانياً للحصول على عهد أمان لرحلتى إلى القاهرة وجبل سيناء ،
وأطلعتهما على ما معى من رسائل يزكيني فيها «الملك خوان» إلى كرديبال
قبرص الذى كان إذ ذاك في إيطاليا ولكنى وجدته هنا ، فوعدتى ببذل كل ما في
طوقه لمساعدتى ، وقد حضر هذا اللقاء «موسين سواريس» أميرال قبرص الذى

أبدى نحوى منتهى المودة والصداقة، فأتى إياه قشتالى الأصل مثلى ، وقد التمس الإذن من الملك والكردىال والسيدة إينيز فى أخذى معه لأزىل صبيها عليه ، فعارضت السيدة إينيز ولكها استجابت بعد إلحاح ، فقصبت معه إلى داره . ولقد ولد هذا الفارس فى « سيجوفيا » من عائلة « ترناديلا » ، وجاء فى رحلته — وهو ما زال بعد صغيراً — إلى قبرص فى نفس اليوم الذى كان الملك السابق يحارب فيه جند السلطان ، وأبدى من الشجاعة فى القتال ما أنقذ معه حياة الملك ، ولكنه أخذ أسيراً معه وحل إلى مصر^(٥٧) ، وقد جرت عادة المسلمين على ألا يمتطى صهوة جواد من كان علجاً نصرانياً ، فلما كان ذلك اليوم — وقد دخلوا القاهرة وكان الملك أسيراً — جاءوا محاصرين أحدهما للملك والآخر « لموزين سواريس »^(٥٨)؛ فأصدر السلطان — حين أصبحوا بحضرته — حين سمع بحقيقة الأمر — أن يسأى « موزين سواريس » بالملك فى الشريف ، حتى إذا انقضت بضعة أيام — وقد أخذوا يتكلمون فى القدية التى يطبقون بها سراح الملك — أفضى السلطان إلى « موزين سواريس » أنه إذا أراد إطلاق الملك حراً فإنه سيطلقه بناء على كلمته ، على أن يرسل ثم يعود بالقدية ، أو على الأقل يعود هو نفسه بدونها إن لم يستطع الوفاء بها ، ومن ثم وعده بذلك موزين سواريس . وحينئذ أمر السلطان بتهيئة كل شيء له ، فلما سئل على أية صورة يريد الذهاب أجاب أنه سيسافر متنكراً على هيئة شامى ، ومن ثم ألبسه السلطان لباس أهل الشام وأذن له بالسفر فرحل ، حتى إذا بلغ قبرص أخذ فى مشاورته الكردىال والسيدة إينيز ومشاوريهما ، فقرر الأمر على إرسال مصر الفرسان إلى ملوك البلاد النصرانية وأمراتها طلباً لمعونتهم فى اقتداء الملك (ولقد رأيت فى قشتالة الفارس الذى جاءها وكان اسمه يعقوب جبرى) ، ووقعت القرعة على موزين سواريس ذاته للذهاب إلى البابا برومة ، وعاد كل

فارس من هؤلاء العرسان في الوقت الملائم من سفارته بما استطاع الحصول عليه من مال وضمانات لازمة ، فأخذ « موزين سواريس » مع بقية أعضاء المجلس مبلغاً من الذهب قدر بثلاثمائة ألف دوكات وذهبوا به إلى الملك .

وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى سمع السلطان بخبرهم فأفند أوامره بتلقيهم واستقبالهم ، وخلع على « موزين سواريس » كثيراً من التشریف كما لو كان ابنه نفسه ، وكان خلاص ذلك على هذه الصورة : هي أن السلطان أخذ الذهب بالإضافة إلى ما التزمه ملك قبرص على نفسه من أن يرسل كل سنة ثمانية آلاف دوكات ، وبذلك فُصِّل الأمر وحلَّت المشكلة ، وأصدر السلطان أوامره بإعداد الأشياء الضرورية وتجهيز السفن اللازمة لجل الملك إلى بلاده ، كما أظهر للملك عطفه الكبير على موزين سواريس وكذلك على كبير مترحي السلطان - وكان علماً يهودياً أشبيلية من أهل قشتالة - لقاء ما أذاه له وهو في سجنه من الخدمات ، وقد جرت عادة الملك الخالي أن يرسل كل عام إليه مبلغ مائتي دوكات .

ولما عاد الملك إلى مملكته ونشاور مع كبار رجاله أخذ موزين سواريس من يده وأجله إلى جواره ، وقال إنه لو لم يكن له ابن شرعي لذهب الملكة له ، كذلك بعث الملك إحدى بناته - وكانت أمها جارية لديه - وعقد لها على موزين سواريس وجملة قائده بحريته وورثته .

بعد أن أمضيت أربعة أيام أو خمسة في قصر الأميرال « موزين سواريس » بعث الكردينال في طلبه وأخبرني بأن أذهب لسماع القداس مع الملك ، وأنه سيأذن لي بالرحلة إلى مصر بعد تناول العشاء معه ، فلما فرغ القداس اتبعني الملك في الكنيسة جانباً بالكردينال وعمته ورجال

مجلسه ، وما لبث الكردينال أن جاءني وأخبرني أن الملك علم برغبتي في الذهاب إلى القاهرة وزيارة جبل سيناء ، ولما كان الملك قد أعدّ المدة لإرسال سفير من قبله إلى السلطان فقد سألتني إن كنت أقبل المهمة ، فإن قبلتها تطلب الأمر مني أن أخلص في خدمة الملك ، وقد عرفت أن الكردينال هو الذي أشار بهذا العرض لتعظيمي ، فأجبت بأنني راض بأن أخدم الملك على هذه الصورة لأنني أعرف أنه مسيحي ومن شعب فرنسا ، وإذا ذاك بعث الملك إلى لتناول الغذاء معه ومع الكردينال ، وأنصني إلى بأنهاء رحلتى .

الفصل الثامن

الرحيل من قبرص . دمياط . الحمام الزاجل . نهر النيل

التماسيح . الرحلة إلى النيل إلى القاهرة . المهالك

استقبال السلطان المملوكي . المطرية

الأهرام . النيل . الزراف

لعب الكرة

...

سافرت إلى « الباف » ، وإذا كان الطاعون قاضياً بها فقد أمر الملك باستقبالى في قرية بأحد الجبال لم يمسسها الطاعون بضراً ، فأقيمت في بيت السيد « ديجو ثينوريو » القشتالي الذي حمده صبحته كل الجدا ، فلما انقضت ثلاثة أيام على وجودى هنا قدمت إلى « الباف » سفينة بها ثمانية عشر ملاحاً أعدت لحلى انا ورفيقي مترجم الملك ، وقد جهزت السفينة بالثؤونة الوفيرة كأنما أهدت لبعض آل بيت الملك ، وعليها كل ما اتفق على إرساله إلى السلطان .

فلما كان اليوم الثانى من وصولنا أقلت بنا والريح موانية ، وظلت مبحرة أحد عشر يوماً بلفنا بعدها ميناء دمياط ، حيث يصب النيل — الذى يأتي من الجنة الأرضية — مياهه في البحر الأبيض المتوسط ، وهناك دخلنا النهر وبلغنا دمياط الواقعة على مسافة فرسخ ونصف فرسخ من البحر ، وهي تماثل « سلامنكا » في ضخامتها ، وحافلة بالأطمعة والكروم وشتى ضروب الفواكه والكر .

وهذه المدينة منبسطة جداً غير مسورة وليست بها قلعة ، وهي شديدة الحرارة وإن تكن بيوتها قاسية البرودة ، ويكثر بها ابن عرس كثرة عظيمة حتى لثراه في بيوتها وشوارعها ، ويربو عندها على ما لدينا من الجرذات .

ورأيت فيها لأول مرة الحمام الزاجل^(٥٦) الذي يحمل الرسائل في ذيله من المكان الذي تربى به إلى سواء من البقاع ، فإذا علفت بها الرسائل أطنبت لتعود إلى موطنها ، وسرعان ما يقف الأهالي على أخبار جميع من يقدمون أو يسافرون بحراً أو براً ، فيكونون بمنجاة من الأخذ على غرّة ، ولا سيما وهم يمشون بلا وسائل دفاع عنهم ، وليس لديهم أسوار ولا قلاع .



ما كنت أصل إلى دمياط حتى ساروا بي إلى الوالي فأبانه أنني قادم إلى السلطان ، وسألته أن يهيئ لي قارباً صغيراً ليصلني لوجهتي لعدم قدرة سفينتي التي جاءت بي على السير في النهر ، فأصدر تعليماته بإنزالني في بيته حتى تم الإجراءات الضرورية ، وبينما أنا مقيم بداره إذ قدم بعض المعاربة قائلين إنني كتلاني ، وأنهم رأوني على مائدة لورد « كاندلور » ولديهم البيّنة على ما يدعون ، ومن ثم استقدموا سيديين تركيين قيل إنهما كانا حاصرين إذ ذاك وفي استطاعتها إقامة الحجة على صحة دعواهم ، فلما جاءا وتعمّما في طلعتي بأحرا في الحال لتكذيب زعم الماربة ، وإذ ذاك تساءلت : « لو أن التركيين قد قالا غير ما قالا فإذا يكون مصيرى حينذاك ؟ » فأجابوني أنه كان لا بد من قتلى في الحال ، لأن أى كلام

يقوله التركي يعد حقيقة لا ترقى إليها الشبهة ولا يصل إليها الباطل .

* * *

ويوجد في هذا الإقليم من النهر أكثر مما يوجد في أى بقعة أخرى من العالم .

ويحترق السيل للمدينة وأعلى بذلك أحد فرعيه اللذين يبعدان عن بعضهما مسافة رحلة يوم عن حصن بابلين^(١٠) .

وتعلو المياه في شهر سبتمبر — وقت أن كنت هناك — وتنفجر التفر بأكمه ، فإذا بلغت ذروة ارتفاعها دخلت النهر كيات ضخمة من السمك قادمة من البحر فتوجد في كل بقعة ، حتى بين المساكن .

والحرارة شديدة الارتفاع جداً ، ومن ثم فالطراز السائد في بيوتها هو وجود فتحات تطل ناحية النهر حتى يسهل جمع المياه وحتى يمكن للأسماء أن تدخل خلال هذه الفتحات فتطفو على الأرض ويسهل صيدها .

وفي هذا النهر كثير من الحيوانات التي تعيش به نسي بالتامسبح ، فإذا كانت في الماء لم يستطع النجاة منها إنسان أو حيوان ، ويقولون إنها تخاف من الجاموس ، ولما كانت هذه النواحي خالية من الجسور وليس في الاستطاعة إقامة شيء منها لمة إمتداد الوحل فإن الفقراء يسدون إلى امتطاء الجواميس وعبور النهر بها آمنين من كل خطر ، هجراً منهم عن استئجار القوارب ، وقد اعتادت هذه المخلوقات أن تخرج من الماء لمسافة خمس أو ست خطوات ، فإذا كان اليوم مشمساً استغرقت في النوم ، فإن أراد أحد قتلها استل حربة فتهدى سهم ذي شوكة تنمرز في اللحم إذا دخلته وتمسك به ، ويربط طرف الحربة الآخر بحبل يبلغ طوله ما بين مائة ومائة وخمسين

قائمة ، وإذا قارب الصائدون الحيوان ضروبه تحت ضلوعه وهي النقطة الوحيدة المكشوفة التي فيها هلاكه ، فينتفض فيها الحديد ، وإذا ذاك يشدون الحبل عليه شداً عنيفاً ، فلا يكاد الحيوان يحس بالإصابة حتى ينفات إلى الماء فينهكه الحبل حتى تنحل قواه ، وإذا ذاك يسحبونه إلى الشاطئ ، ويحملونه ويسبرون به في المدن والقرى يلتمسون الصدقات ، شأنهم في ذلك شأن أهل قشتالة حين يقتلون أحد الذئاب .

وهذه المخلوقات على شكل السحالي ، وتتداخل أسنانها العليا والسفلى فيما بينها ، وإذا أمسكت شيئاً ما بينها استعجال إفلاته منها ، وهي تفر من كل شيء على اليأس لأنها ليست في أما كنها الطبيعية ، ولقد رأيت الكثير منها في ذلك النهر .

ويقول الناس أيضاً إن في نفس النهر ضروباً أخرى من الحيوانات - رغم أنى لم أرها - وهي في حجم الجياد تماماً ، إلا أن فكها يكون بمرض جياها ، وهي تخرج من الماء التماساً للسكلاً فيحفر الناس لها حفراً في الأرض وينطونها كما هو الحال إزاء حفر الذئاب في قشتالة وبذلك يقتلونها رغم أن هذه الحيوانات لا تنصر أحداً في الماء أو خارجه .

وماء النيل أحسن ماء في الدنيا وكأنه ماء الجنة ولم أشرب طول زيارتي سوى هذا الماء ، على الرغم من أنه كان في استطاعتي الحصول على النبيذ الجيد .

ويوجد في هذا المكان طائر السمان كالذي يوجد في قشتالة ، ويبيعه الناس كل عشرة بمئويدي واحد ، ويصيدونها بواسطة كلاب وبضربونها بمصي يملقون في أطرافها جرسين أو ثلاثة .

بقيت في دمياط ثمانية أيام أعدّ الوالى في أنثائها لى سفينة لنقلى إلى القاهرة ، وهذه المراكب طويلة طول الأغربة الكبيرة ، وهى مجهزة بالحجرات التى تعتمد من أحد طرفيها إلى الآخر حيث يستطيع للراء الإقامة ، ولها صنادل متبسة لتستطيع السير فى المياه الضحلة ، وتحمل كثيراً من الحولة ، ونحيز بقلع طويل يبلغ طول قلاع الشوانى ، ولكنه قلع ضيق مثلث الشكل يشبه قلع الغراب ، ورغم أنها تسير بالأسرعة والمجاديف ، غير أنها فى بعض الأحيان — وقت فيضان النهر — لا تستطيع التقدم ياردة واحدة إلى الأمام إلا إذا تجنبت التيار ، أو إذا وقف الرجال على الشاطئ ليقطروها بالحبال الطويلة ، ويكون عليها ثلاث طبول ، واحدة فى مؤخرتها والثانية فى مقدمتها والثالثة فى وسطها لإخافة التماسيح وإبعادها عن طريقها ، ولا يجرؤ من بها على أخذ الماء من النهر باليد ، ولكنهم يربطون وعاء برشاء طويل ، وبأخذون الماء بهذه الطريقة .

غادرت دمياط وتابعت سفرى ميمبا صُعداً فى النهر الذى تنناثر على شاطئيه القرى حتى تصل إلى حافة الماء ، وبلغت فى مرمى البقعة التى يفصل فيها فرع النهر بعضها عن بعض ، وسرت فى أحدهما ، أما الآخر فيذهب إلى الإسكندرية .



ويوجد بالقاهرة رجال يخلقون رؤوسهم ولحائم وحواجيم وأهداسهم ، ويمحون حياة تشبه عيش المجانين زاعمين أنهم يفعلون ذلك تطهراً ، وأنهم — فى سبيل الله — يهربون من الدنيا ومباهجها ، وأنهم من أجل هذا السبب أيضاً يخلقون كل شيء على أجسامهم .

وبعضهم يمشون وقد لبسوا القرون ، وآخرون يلبطخون أنفسهم بعمل
النحل ويضمون الريش ، ويحمل غيرهم أعمدة تنتهى بمصاييح تتدلى منها
الأضواء ، ويمشي البعض بالقصى والسهام ويشرعونها للرمى ، وهكذا يذهبون
مذاهب شتى قائلين إنهم ممذوبو النصارى ، ويوقرم المسلمون توقيراً عطفاً ،
وقد حدث ذات يوم أن صادفت جماعة منهم فاستفسرت عن وجهتهم ،
فقال لي إنهم على وشك دخول النار مع الكلاب المسيحية ليروا أى الفريقين
أسرع احتراقاً .

وبالاسكندرية وفرة من القصب يصنعون منه القيل الجيد .

تابنا الرحلة حتى بلغنا القاهرة بعد سبعة أيام فأرسلنا عند ميلنا حيث
يوجد سوق اللؤلؤ الذى يشتهر للبحريين بكثرة ، فأنزلنا متاعنا من السفينة
وأضينا هناك ليلتنا هذه ، حتى إذا اسبح صباح اليوم التالى اكترينا حميراً
مجهزة خير تجهيز بالبراذع والحم ، وهى مربعة جداً فى سيرها ، كما استأجرنا
مساهرينا ليدلنا على الطريق إلى بيت كبير مترجى السلطان الذى بإفداه
بعد فترة امتدت من الفجر إلى الظهيرة ، فلما جئناه أرسلته ما يحبهنى من الرسائل ،
وأبلغته تحيات ملك قبرص ، ودفت إليه كذلك مبلغ مائتى دوكات أرسلها
إليه الملك استجابة لوصية أبيه التى نصت على إعطائه هذا القدر من المال
مدى الحياة لقاء الخدمات التى أداها للفلك وقت أسره .

فتقانى المترجم بالترحاب العظيم وأنزلى فى داره ، فبقيت به يومين قبل
أن أتمكن من رؤية السلطان ، وأخذ المترجم طوال هذه الفترة فى محادثتى
فأثنى الكثير عن نفسه ، ولما عرف منى أننى قستالى الأصل أشببلى للولد
امتلاّت نفسه غبطة لسماعه هذا النيا فقد ولد هو الآخر بها ، ودرج طفلاً على

تراسها، إلا أنه حمل صغيراً إلى بيت القدس مع أبيه وكان يهودياً، لكنه أسلم حين مات أبوه، وكان اسمه في بداية الأمر « حاييم » أما الآن فيدعى « صاييم »، وقد أراد أن يعرف من أكون ومن أين جئت فلم أكنم معه شيئاً من خبري لأنتفع بخدماته ونصائحه .

لقيت ترحاباً في بيت هذا المترجم كما لو كنت ابنة، فآذن لي أن أجالس زوجاته وأطفاله قائلاً لي أن ذلك أعظم تقدير يمكن أن يقدمه لي، والواقع أنه بدى لي أنني ابن جلدته لشدة تعلق أبنائه بي، ورغم تقدم سنه ومماهرته النسبين تقريباً إلا أنه كان لا يزال قادراً على الإنجاب، فقد وضعت إحدى زوجاته غلاماً أثناء إقامتي عنده، ونحت هذا المترجم أربع زوجات مسيحيات ممن يُبْنَ في البحر الأسود، إذ المؤلف أن ينظر إلى زواج المسلمة الأصل من مثل هذا الرجل باعتباره عيباً كبيراً .

وفي أثناء هذه الأيام الثلاثة التي انقضت قبل رؤية السلطان أراي المترجم كثيراً من الأشياء التي تستغرق كتابتها في الكثير، فلما كان اليوم الثالث تناول الكتب التي أحضرتها لسلطان وحامها إليه بنفسه وأطلعه عليها، فأشار بما يكون عليه الجواب، ثم أعادها مُثَقَّةً إلى في تلك الليلة، وأسرَّ إلى - باعتباري أحد مواطنيه - أن السلطان قد نظر فيها حتى لا أستشعر عيباً إن لم أنسلم الرد عليها في الحال، وذكر لي ماجرت عليه العادة من قراءتها أولاً، ولكنه نصحتني أن أعرض ما جئت من أجله دون أن أدع سبيلاً لأحد ما أن يفهم أنني قد علمت بالأمر .

وفي صباح اليوم التالي أرسل المترجم في تهيئة اللوالب لي ولبن معي، فخرجت عند بزوغ الشمس إلى قصر السلطان، وتمكنا قبل وصولنا إليه من

أن نصيب حظاً من الطعام والشراب ونحن في الطريق ، إذ يخرج الباعة حاملين الموائد وعليها الطعام المطبوخ ، وآخرون يبيعون الفاكهة ، وسواهم النساء إلى غير ذلك من الأشياء الكثيرة ، ووصلنا إلى المسجد الجامع وهو ساء رائحة يستلقت النظر ، وإن يكن في البلاد النصرانية ما يبرزه حسناً .

ثم جئنا إلى ميدان فسيح يبيع رجال على ظهور الجياد والحمل الجيزة بالأسلح ، وعلتنا بوجود فرسان أكثر من هؤلاء عدداً خارج المدينة ، إذ هذا هو اليوم الذي يجلس السلطان فيه للحكم بين الناس ، ولا أستطيع أن أصف عدد الرجال المسلحين ما بين فرسان ومشاة ، ولعل نمت جدوى في الإمساك عن ذلك لأنني لا أريد رواية شيء يصعب تصديقه رغم أن كل شيء في هذه الجهات يقال وبهتة .

وصلنا إلى باب مقام السلطان وتركنا دوابنا وصعدنا الدرج إلى المدخل ، وهذا الدهليز يباع في حجه حجم « فيلاديا » تقريباً ، كما أن الشوارع مكتظة بالسابلة ما بين رانج وغادر من مكان إلى آخر ، وعلت أن هؤلاء هم للمالك الذين اسمهم نحن « بالمبرين »^(١) الأعلاج ، ممن يشتريهم السلطان نقداً في البحر الأسود ومن جميع الأماكن التي يبيعهم فيها المسيحيون ، فإذا وصلوا إلى هذا المكان اعتنقوا الإسلام وشرع القوم في تمليمهم الدين ، وتثقيفهم على ركوب الخيل والفروسية والرمي بالقوس ، ثم يختبرهم رئيس الأطباء ، وتجري عليهم الجوامك والإقامات ويبعثون بهم إلى المدينة . ولا يستطيع أحد أن يصير سلطاناً أو أميراً أو ينال شيئاً من الشرف أو الوظيفة إلا إذا كان من هؤلاء الملوج ، كما لا يتأتى لأحد من المسلمين - أولاد الأحرار - أن يركب حصاناً خوف الحكم عليه بالموت ، بل يذهب للمالك وخدمه دون سواهم بكل أمجاد الفروسية .

أما أبناؤهم فيسألون تشريفاً أقل منهم ودون هذين : الأحفاد ، ثم يصبحون بعد ذلك مسلمين أحراراً ، كل ذلك بغية زيادة عدد المسلمين . ومن ثم فإنهم يسمون بمكثري شرع محمد .

ولا يتمتع النساء بمثل هذا الاستيلاء ، ويؤثر السلم الزواج من مسيحية دون مهر على الأثراف بحسلة مهرا كانت ضخامة مهرها ، لاسيما إذا كانت مسلمة حرة .



وباستمرار السير في الشوارع وصلنا إلى باب كبير أحكموا رقاجه بالأقفال ، فله افتتحوه لنا اجتازناه إلى ساحة فسيحة غاصة بالكثيرين من الفرسان الذين انظموا صفاً إلى الجدران ، ثم فتحو لنا باباً آخر أدى بنا إلى ميدانٍ اصطف فيه الفرسان ، ثم فتحو لنا باباً ثالثاً وجدنا أنفسنا بعده في ميدانٍ غيره ، وقب فيه رجال من الزوج وأيديهم المراوات ، فطلب إلى كبير المترجمين التريث حيث أنا مع مرافقي حتى يعود ، ثم ما كاد يعيب حتى عاد وقادني عبر أحد الأبواب إلى ميدانٍ مسيع قد وقف فيه كثير من الفرسان على الصورة السالفة ، وكان في وسط الميدان خيمة فحمة كبيرة قد بولغ في زينتها أعدت كي يتناول السلاطن فيها غذاءهم ويقيم فيها لاقاء من يحبثون لتحيته ، كما أنهم على مقربة منها فسطاط ومصطبة عالية عليها مقعدٌ يتبوأه السلطان .

وأخبرني كبير المترجمين أن أنتظر في وسط هذا الميدان ، وأنبأني أن السلطان سيخرج وسيمر علىّ معه ، وإن أفضى إلى يأنه لن يظهر لي أي انتباه لأر هذه عادتهم في امتياعهم النصارى .

وبهذا أنا واقف حيث أنا إذا بهم يفتحون باباً كبيراً ، وإذا بالسلطان

يخرج منه على ظهر جواده ، وقد تقدمه ابنه ماشياً مع قرابة مائتي فارس ،
ومر على مقربة مني ثم جلس على المقعد المشار إليه .

كان السلطان قد أطلق من الحبس منذ أيام قلائل أحد أبناء دواداره
وكان قد خاف أباه ، وكان شديد الثراء يملك كثيراً من الذهب واللاّلي
والأحجار الكريمة وغير ذلك من الأشياء الغالية الثمن ، وقد عهد الإين في
إكبار هذه المناسبة وامودته إلى عطف السلطان عليه إلى أن أرسل له حصاناً
أسود بطرز زركش ، كما حلّى السرج والجام بالذهب أيضاً . وكان في قربوس
السرج ياقونة يقال إنها تزن ديتاراً ونصف ديتار مصري وتبلغ في الحجم حجم
البرتقالة ، كما كان في قربوس السرج اثنتي ثلاث ياقونات بحجم بيضة الدجاج ،
وسيف أحذب بساوي ذهباً كثيراً ، أما ما تبدل منه فكان من الحرير الذهبي
الأبيض الذي حلّى بطرز من اللاّلي* العالية .

ثم جاءني كبير المترجمين وأخبرني بأنه يجب علي أن أقوم بتقبيل الأرض
قبل اقترابي من السلطان ، ثم أخذ الرسائل التي أحاطها ومس بها رأسي ومني
للتعزية ثم ردها للسلطان ، ولما كانت هذه الكتب مكتوبة بلغة أجنبية فقد
قرأها عليه باللسان التركي إذ لا يوجد أحد في البلاط يتكلم غير هذه اللغة .
ويقولون إن هذا نظام متبع حين اختار الترك الشريعة الإسلامية منذ حين وأهم
يفعلون ذلك تشريفاً لهم .



استفسر من السلطان عن ملك قبرص وحمه الكرديشال وكذلك عن
« موزين سوارز » وآخرين من رجال الملكة ، فلما أجبتني على ما سألت ذكر
لي سروره بإجابة ماتمسات الملك التي كانت تتأخر فيما يلي :

كان الملك قد أرسلني إلى السلطان ملتصقاً منه ألا يرسل للماليك كل سنة -
كألوف عادته - بلع الجزيرة لأنهم يكلفون الملك نفقات باهظة لقاء أن يبعث الملك
الجزيرة في مدى أربعة أشهر ، ويسأله زيادة على ذلك أن يقبل السلطان الجزيرة
على شكل عبك بالثمن الذي تقدر به في القاهرة ، كما يرجوه أن يأذن له ببيع
ملحه الذي كان مصدر دخل كبير في بلاد الشام دون أن يدفع ضريبة على ذلك
البيع ، فقبل السلطان كل هذه المطالب .

كذلك أصدر السلطان تعليماته بتوفير مسكن مريح لي إلى جانب كل
ما يلزمي ففعلوا ما أشار به ، ثم أعطاني في ذلك اليوم - على ألوف
عادته - خلعاً فوقانية للملك قبرص كظهر من مظاهر تيميمته للسلطان ،
وهي عبارة عن ثوب أخضر زيتوني وأحمر قد حلى بالذهب ، وبغرو سمور .

ثم نزل السلطان من مقعده وجاء إلى الخيمة حيث حياه القوم وتناول
غذاه ، وإذا ذلك استأذنته في التنقيب هذا اليوم .

بينما كنت هناك دخل ما يقرب من مائة رجل ومعهم مسلم طرحوه أرضاً
وأخذوا في جلده وضربوه بالمعص مائتي ضربة على بطنه وكتفيه ، وقد علت
فيما بعد أن القضاء في الجرائم ينفذ في حضرة السلطان .



ولما عدنا إلى هذا المكان لم نر أحداً من رأيتهم من قبل سوى جماعة
السودان ، فأنحدرنا من هناك إلى الميدان الفسيح الذي خلى عن كانوا به من
علية القوم ومن الخيم ، ولم يبق به سوى الفقراء وبأيديهم الغرابيل وهم ينخلون
الرمال ، فسألت عن معنى ما أرى ، فعلمت أنهم من الزعر الذين جاءوا يلتصقون
شيئاً من الغلات المنساقط على الأرض من ذلك الجمع الكبير من الرجال .

سفلنا هذا اليوم حتى غروب الشمس في العودة إلى محل إقامتنا ، وما كان اليوم التالي ألقنا مستجمين ، ورتبت إرسال رسالة السلطان إلى ملك قبرص في ذلك المركب الذي كان راسياً بدمياط ، على أن يعود إلى في مدى شهرين عزمت أن أمضي أناهما إلى دير « سانت كاترين » على جبل سيناء .

* * *

بقيت بالقاهرة مدة تقرب من الشهر بعد إفاذي رسالة السلطان إلى الملك ، شاهدت خلالها كثيراً من الأشياء التي تعتبر غريبة على شعبنا ، والواقع أنني كنت مجذوداً إذ انحذت من كبير المترجمين مرشداً لي ، إذ كان يسرّ تحقيق كل رغبة لي ، ولقد ركبنا ذات يوم في العجر إلى « المطرية »^(٦٣) التي يأخذون منها البلسم ، وهي على بعد فرسخ من المدينة ، ولم نبلغها إلا وقد انتصف النهار رغم شدة سرعة دوابنا ، ويمكن أن يقال إن مسكننا كان يقع في وسط المدينة ، ومن هذا يستطيع المرء أن يتبين مقدار سميتها .

والطرية بستان صمم مسور بحائط ، وفيها الحديقة التي يسمونها بالبلسم^(٦٣) ، ويبلغ اتساعها قرابة ستين أو سبعين قدماً مربعاً ، وفيها تنمو شجرة البلسم التي تشبه كرمه بلغت من العمر عامين ، ويحمله القوم في شهر أكتوبر ، حيث يأتي السلطان في احتفال كبير لجمع الزيت ، ويقال إن المصور منه لا يكاد يصل إلى نصف مكيال من مكاييلنا ، ولكنهم يعمدون إلى أخذ العصون ويخلوها في الزيت ويوزعون ذلك على العالم بامم البلسم ، حتى إذا فرغوا من جمع الجذور بدأوا في الحال في زراعة الأرض ، ويأخذون شتلات معينة خاصة ويفرسونها في التربة ثم يروونها

الماء الذى تدفق لسيدتنا المنراء فى هذه البقعة حينما فرقت هى وابنها إلى مصر ، وهذا المكان من الأماكن المقدسة عندنا نحن المسيحيين ، وإذا روى القوم للنبأيات بهذا الماء وجدوها فى اليوم التالى قد ضربت بجذورها فى الأعماق ، وكثيراً ما حاولوا ريتها بماء الليل أو بغيره من المياه فغفت جذورها فى الحال .

وحين يخرج المرء من هذه الحديقة يصادف شجرة تين ضخمة جداً تنتج تيناً فرعون ، وهو أحمر اللون ، وفى داخل الجذع فجوة مثيلة أشبه ما تكون بالكنيسة الصغيرة ، ويقولون إن هذه الشجرة قد فتحت نفسها بنفسها حيث اختفت بها سيدتنا وابنها حين كانا فى خوف من إلقاء القبض عليهما .

وبينما كنا عائدين إلى القاهرة على نهر النيل أبصرنا أحداثاً كثيرة وبيوت الأثرياء الفخمة ، واستغرقت العودة منا هذا اليوم بأكله ، ولم نباغ مسكننا حتى كان الليل قد انتصف .

. . .

ذهبنا فى اليوم التالى إلى مخازن غلال^(١٤) بوسف، التى تقع فى الصحراء على بعد ثلاثة فراسخ من النهر ، وعلى الرغم مما يقولونه من وجود الكثير من هذه المخازن داخل البلد إلا أنه يوجد منها ثلاثة فقط : إثنان كبيران وواحد صغير ، وكلها مخروطية الشكل قمتها إلى أعلى ، وهى أعظم إرتفاعاً من الهرج الكبير بأشيلية ، وحينما يحتاز المرء الباب يلقى حائطاً متصلاً بأخر بكونداز شكلاً مخروطياً يصل إلى القمة ، وبه نوافذ عدة ، فإذا كانت الدواب محملة بالمال صمدت وأثقت أقدامها من حلال هذه الطاقات حتى تمتلئ المخازن

إلى آخرها ، وليس من شك في أنني أعتقد أنه لا يوجد في العالم اليوم مثل هذا البناء ، المائل ولم أر له شبيهاً من قبل أو بعد .

. . .

عدنا هذا اليوم إلى القاهرة ، فلما كان اليوم التالي ذهبنا لمشاهدة المكان الذي كانوا يحتفظون فيه بالقبيلة فرأينا منها سبعة ، ولونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل ، أما الأرجل الأمامية والخلفية فقوية حتى ليحيل لرأيها أنها قد صبت من الرخام ، وأقدامها مستديرة ذات أخفاف قوية جداً ، ويقال إن أرجلها يتصل بعضها ببعض ولكن ليس بها نباح ، والعينان حمراوتان وصغيرتان جداً بحجم اللب ، والذنب قصير كذنب الدب ، وتشبه الأذنان الدرع ، والرأس أشبه بحمرة كبيرة من تلك الجرارات التي تسع ست خروبات ^(٦٥) ، ويبلغ طول كل ناب أربعة أشبار ، أما اللب فصغير جداً ، ويتدلى من الشفة خرطوم طوله ستة أشبار تستطيع هذه الحيوانات أن تمده وتقضه حسب إرادتها ، وتلتقط به كل ما تريد أكله ، وتلقيه في فمها ، أو ترفع به الماء إذا احتاجته ، ويظهر أن هذه الحيوانات ذكية جداً ، فهي مدربة على القيام بالحيل والألعاب ، وتمدني بعض الأحيان إلى ملء خراطيمها بالماء وترش به أي شخص أرادت ، كما أنها تلب بالرمح وتقفذه في الجو ثم تمسكه ، كما تقوم بالألعاب أخرى كثيرة .

فإذا كان الجو حاراً أخذها القوم عند إبلاج المعر ودفعوها إلى النهر لتبترد وإلا عجزت عن كبج جراح نفسها ، وجلدتها سميك جداً ، وإذا جرحت وصمومها حيث يشرق القمر عليها فتبرأ في اليوم التالي .

ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلى مدراة يضربونها بها حنف

أذنبا ، ويوجهونها أنى أرادوا ، لأن طورها لقي حول الأذن رقيق جداً حتى
ليؤذيها وقع الدابة عليه ، ويطسونها الحبوب والشمير كما يخل القوم
بالخيول عندنا .

ويقال إن القوم بالهند يقيمون على ظهورها قلاماً تسع ستة عشر رجلاً ،
فإذا خرجوا للقتال كسوا أسنانها بالصلب ، وزعمون أن هذه الحيوانات
تميش حتى تبلغ من العمر أربعة .

• • •

عندما هذا اليوم إلى مسكننا بعد أن طالعنا كثيراً من للشاهد القريبة ،
وذهبنا في اليوم الثاني لرؤية حيوان يسمره بالزرافة^(٣٧) ، وهي كبيرة كبر الوعل
ويبلغ طول قداميها الأماميتين قائمتين^(٣٨) ، أما الخلفيتان فلا تتجاوزان القراع
ارتفاعاً ، وشكلها العام أشبه بالوعل ، وهي مرقطة ذات خطوط بيضاء وصفراء ،
ورقبها تساق في طولها طول البرج ، وهي حيوان أليف جداً ، وإذا قضموا
إليها الخبز باليد خفضت رأسها حتى تصل مع رقبته قوساً كبيراً ، ويقول الناس
إن هذا الحيوان يسمر طويلاً ، وأن هذه الزرافة بقيت هنا في هذا المكان
أكثر من مائتي عام .

• • •

ذهبنا هذا اليوم لمشاهدة مدينة القاهرة ، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام ،
يسمون أولها بمصر بابلون ، والثاني بالقاهرة ، والثالث بمصر ، وإلى جانب
مدينة بابلون حيث يشقها النهر قوم في اللاء ثلاثة أمثلة ذات خطوط
معينة وكتابات قديمة ، فإذا كان الوقت شهر جبير وقد ارتفع البحر^(٣٩) أقام
الحراس عليها حيث يرقبون كل ساعة زيادة المياه ، فيذكرون مقدار الارتفاع

لنادين على الأرض ينطلقون في المدينة كل ساعة ، يملنون في صوت عال مدى الزيادة في النهر ، فإذا بلغت الزيادة أقصاها عرف الناس إلى أي حد يستطيعون بذر الحب ، وعما إذا كانت السنة خصبة أم محدبة ، ويقال إن تشييد هذه الأعمدة كان أول عمل نهض به القوم في مدينة بابلين .

وفي الصباحة القديمة من هذه المدينة كثير من البساتين الرائعة والحدائق المنتشرة ، وتكثر لزروع حتى على الشرفات ، ويندخ القوم الأشجار الضخمة ، كما يوجد العديد من الكهوف والمصاريح تلزن مياه النيل .

وعندنا هذا اليوم إلى مسكننا فالتفت مع المترجم على أن نذهب في الفد لمقابلة السلطان ملتصقا منه الإذن بالذهاب إلى جبل سيناء ، ومن ثم مضينا في الصباح إلى القصر السلطاني ، غير أننا وجدنا السلطان قد غادره للصيد ، فرحلنا في أثره ولحقنا به على مسافة فرسخ واحد من المدينة وهو في موكب رائع ، وحوله — كاخيل إلى — أكثر من خمسة أو ستة آلاف فارس والمدد الكبير من البزاة والقهود ، وقد تناول السلطان غذاءه في هذا اليوم في السرحة ، ثم لعب هو والأمراء لعبة اعتادوا عليها على الصورة الآتية ، هي أنهم يضمنون كرة ^(١) في وسط الساحة ، ويقف بضعة آلاف فارس على أحد الجانبين ويرسمون خطوطا على الجانبين أمامهم ، ويمسك كل منهم مضربا بيده وتكون يده قابضة على رمح ، ويهجم الجميع على الكرة في وقت واحد ، ويقصد أحد الجانبين دفعا غير الخط ، على حين يحاول الفريق الآخر عمل ذلك بنفسه ، فإذا تمكن أحد الجانبين من دفعا غير الخط كان هو المنتصر ، وقد حاول أحد اللاعبين في هذا اليوم إعاقة ابن السلطان فاستل سيفه وحاول قتل خصمه ، فحدث إذ ذاك هرج شديد لم يهدأ حتى جاء السلطان وصرفهم .

الفصل التاسع

الرحلة إلى سيناء . تجارة اللوميات . دير سنت كاترين

التسكير في الرحلة إلى الهند . نكولو دي كوتشي

يروى قصة حياته . البحر الأحمر

...

التفت من السلطان في هذا اليوم أن يأذن لي في الذهاب إلى جبل سيناء ، فاستجاب لرجائي ، وأمر أن يصحبني أحد مترجميه ، وأمدني بثلاثة جمال لي ولمن معي دون أن يقبل عليها أجراً ، وحينئذ ودعته ورحلت بعد يومين لم يهيا لي خلالها في الواقع كثير من الفراغ لشتى الغرائب العجيبة التي تشفى رؤيتها ، ونظراً لشدة حرارة الجو فقد كانوا يأتونني في كل صباح بجرة ماء للشرب يدالجونه معالجة خاصة ويضمون به بذوراً معينة تشبه القلب ، فيصبح الماء - والحق يقال - صالحاً كل الصلاحية للشرب ، وقد جرت عاداتهم أن يشربوه في الصيف قبل تناول العشاء .

أعد مترجم السلطان لي كل ما يلزمي وزكاني لدى الفرنجاء الآخر الذي كُلف بمرافقتي ، حتى إنه كتب بنفسه كتاباً يوصي فيه بي خيراً ، وبعث به إلى بطرك الإسكندرية المتخذ للقاهرة مقاماً دائماً له ، والذي يختار بنفسه القيم على دير سنت كاترين بجبل سيناء^(٧) ، ثم رحلنا عن القاهرة واجتازنا صحراء مصر التي لا حياة فيها ، ولقيتنا في ذلك مشقة كبرى واكتفتنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدة حداً عجبت منه كيف يستطيع أي امرئ احتمالها ، ويقولون إن هذه الصحارى تحفظ اللوميات التي هي أحلام من

يموتون بها ، ذلك أن الجثث لا تتحلل بفضل جفاف تلك الجهات الشديدة ، فلا يحدث غير إمتصاص الرطوبة تاركا الجثث كاملة جافة ، وقد خلت الصحراء من الطارق والمساك لأن الريح تأتي عليها فتقطعها ولا تبقى منها أثراً ، كما أنها تنقل الرمال من مكان إلى آخر مكونة تلالاً ضخمة تورد سالكيها موارد العطب والهلاك ، ويستعين القوم في اجتيازهم إياها بالبوصة كما هو الحال في البحر ، ولا يصادف المرء أثراً للكان فيما بين القاهرة وجبل سيناء ، وتحمل الجبال كل شيء تحتاجه هي والمسافرون على السواء .

استغرقت الرحلة إلى جبل سيناء خمسة عشر يوماً ، وهذا الجبل شديد الارتفاع يقوم منعزداً ، ويقع على بعد نصف فرسخ تقريباً من البحر الأحمر ، وكان على قمة فيما سبق دير حفظت به جثة القديسة كاترين ، ويقول الناس فيما يقولون إنه حدث في إحدى السنوات قحط عظيم جداً في الطعام وبجاعة أدت بالرهبان — الذين كانوا يكابدون المشقة الجسمية في تسلق هذه المرتفعات — إلى قصد مصر ، تاركين وراءهم الدير والجسد للقدس بلا حراسة ، وإذ ذاك تجأت لهم القديسة كاترين المباركة وأمرتهم بالعودة من حيث جاءوا ، مخبرة إياهم أنهم سوف يجدون ذخيرة ومكاناً ملائماً للعيش ، وطابت إليهم أن يبنوا ديرهم ويدفنوا جسدها حيث يجدون كومة كبيرة من الحنطة ، فانسكفأ الرهبان عائدين من حيث جاءوا ، ووجدوا عند سفح الجبل تلاً ضخماً من الحنطة ، فشكروا الرب والقديسة كاترين العذراء على النعم التي واثمتهم ، وشيدوا ديرهم الذي لا يزال موضعاً من أبرز المواضع . ثم تسلق الرهبان الجبل وجاءوا بالجسد في احتفال نفيم ، وسجّوه في الدير الواقع عند سفح الجبل حيث لا زالوا يعيشون حتى اليوم ، وإن لم يبهلوا ما على الجبل ذاته لكثرة الأماكن

المباركة به ، فقد كان البقعة التي ناول الله فيها موسى الألواح ، والتي تجل له فيها في العليقة ، وهذا هو أيضاً المكان الذي أمر الرب فيه موسى أن يضرب الصخر بعصاه فانبجرت المياه التي لا تزال تتدفق إلى اليوم متقطرة إلى السطح .

أما الدير الأدنى فبناء لطيف يضم بين جوانحه قرابة خمسين أو ستين رجلاً ما بين راهب وخادم ، وبه كنييسة حنة البناء قد أقيمت على النمط البيزنطى ، ويرقد جثمان القديسة كاترين تحت المذبح الرئيسى ، ولم تكن لي رؤية الجسد ، إذ لم تحر عادتهم على إطلاع أحد عليه ، كما أن المكان في الواقع غير مهيأ لزواره ، ولكن ظهر لي من مشاهدة حجه أن الجسد لا بد أن يكون أطول شبراً من قائمة أطول امرأة يمكن أن توجد في العالم اليوم .

كذلك يوجد بيت يحتوى على جثث مخنطة لرجال معينين ، والناس ما بين قائل إنها أجساد فرسان زاروا ذلك المكان للقدس وقصوا نحبهم به ، ومن قائل إن بعض فرسان اليونان حملوا إلى هناك بعد موتهم حيث البقعة مباركة . ويستمد الدير حراً كبيراً من دخله من جميع بلاد اليونان ، كما أن أحد كبار سادة « كانديا » ترك له حين موته دخلاً يقدر بأربعة آلاف دوكات ، ولكن نظراً لشدة بعد المكان ، ولما يتطلبه إمداده من أموال ضخمة فإن جزءاً من الدخل يمتن في الصرف على مبنى في القاهرة يسكن فيه بطرك الإسكندرية الذي يقوم بتجهيز كل شيء لقاء دفع الدخول له ، كما أنه هو الذي ينتخب البطاركة الذي يبعث به إلى الهند الكبرى حيث يوجد « برسترجون » ، وقد حدث زمن وجودى بالقاهرة أن مات البطاركة السابق فاختر [بطرك الإسكندرية] حايقة له وبعثه إلى هناك .

. . .

بعد أن قضيت ثلاثة أيام بالدير حدثتني نغمى عما إذا كان في الإمكان الذهاب إلى شبه القارة الهندية وانتعيت بقيم الدير جانباً حديثه فيه على امراد بهذه المسألة ، فأنيأتى أن إحدى القوافل — وهي وسيلة الاتصال بتلك النواحي — توشك على القدوم في مدى يومين أو ثلاثة أيام ، وإننا نستطيع أن نستمد الأخبار منها عن مدى إمكانية النهوض بهذه الرحلة ، وإن يكن هو نفسه معارضاً إياها كل المعارضة ، وقد وصلت القافلة المرحوة بعد أربعة أيام أو خمسة ، وجاءت بعدد كبير جداً من الجمال لا أستطيع أن أذكر شيئاً عنه لأنى لا أحب أن أظهر بمظهر المترف في كلامه ، وكانت هذه القافلة تحمل من بلاد الهند جميع أنواع السمار والآل والأحجار الكريمة والذهب والمطور والتيل واللبغارات والقطط ، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة يوزعونها في كافة أرجاء الدنيا ، فيذهبون بنصفها إلى القاهرة حيث تُحمل منها إلى الإسكندرية ، ويمصون بالنصف الآخر إلى دمشق ومنها إلى ميناء بيروت .

ذهبت إلى ساحل البحر الأحمر الذى يبعد مسافة فرسخ عن جبل سيناء لمشاهدة القافلة التى وجدت بصحبتيها أحد البادقة واسمه « نيكولودى كورتى »^(٧١) ، وهو سيد عريق المولد ، وقد جاءت معه زوجته وابنته الذين ولدوا كلام بالهند ، ويبدو أنه أسلم هو وإيام بعد أن حُولوا قسراً على جب دينهم في مكة المقدسة عند المسلمين ، ولم يكف « نيكولا » برأى حتى قدم إلى سائلا إياى عنى كرون؟ وماذا أفعل هنا؟ وما هى وظيفتى ؟ فأبأنه إننى حدث من إيطاليا، وعشت في بلاط ملك قبرص وإننى مبعوث من قبله إلى السلطان المملوكى الذى أدن لى بالحنى إلى هنا ، وأحيرة أنتى تجمع العزم على الذهاب إلى الهند ، فأفصى إلى فى الحال بحوب التخلي عن تلك المحاولة التى لا يمكن إنجازها مهما صدقت البية منى ، ولما رأى عزمى وإصرارى على تنهيد فكرتى فقد صلب

مى أن ألقى إليه بحقيقة أمرى، ذاكراً أنه يستطيع أداء خدمة كبرى لى بإنبائى
 عما ينبغى على عمله لإيجاز مرادى وتحقيق إرادتى ، وأكده لى إلتى أستطيع
 الثقة به تمام الثقة إذ أنه مسيحى مثلى ، كما وعدنى أن يقصّ على أحداث عمره
 وكيف جاء إلى تلك النواحي ؛ فلما تبينت مكانة المصدق فى قوله وأدركت
 عظمتة وحصافته أنبأته أننى من أشرف أسبانيا ، وقد جئت منها إلى القبر
 المقدس ، ومن هناك مصيت قدما إلى القاهرة بنية رؤية جبل سيناء ثم
 الشخصوص إلى الهند، فلما وقفت « نيكولودى كورتى » على ما كان من خبرى أظهر
 السرور العظيم وقال لى :

« إعلم أنه فى الوقت الذى كلن فيه تيمور بيك حاكما كنت بالإسكندرية
 ومعى بعض أموال أبى ، فذهبت منها إلى القاهرة ، وكنت إذ ذاك فى الثامنة
 عشرة من عمرى ، وقد أدى سوء إدارتى وقلة خبرتى — كشاب حدث —
 إلى ضياع مالى من المال ، فاستبد بى اليأس ، وخجلت من العودة إلى
 موطنى صفر اليدين متربكا ، ومن ثم بحث وحبس شطر البلد الذى كان
 تيمور بيك يحكمه وأقت سنة فى بلاطه، ورحلت ألتس الوسائل التى تمكنتى
 من الذهاب إلى شبه القارة الهندية ، وعلمت أن كل شىء مأمون لامتداد
 سدخان تيمور بك إذ ذاك من البحر الأحمر إلى الهند التى لم أكده أبلغها حتى
 أخذونى لمشاهدة « بريسترحون »^(٧٢) الذى هس كثيرا لمقابلى ، وخلع على
 كثيرا من عطمه ، وزوجنى للرأه التى هى مى الآن وأنجبت منها أطفالي
 هؤلاء ، ولقد عشت فى الهند أربعين سنة كنت أعرق شوقا خلاها للعودة
 إلى وطنى وأصبت حطبا كبيرا من الثروة ، فلما مات تيمور بك وقسمت
 مملكته وتمزقت شذرا رنبت الرحلة إلى البحر الأحمر ، وأعددت المدة
 للذهاب إلى مكة وإلى البقعة التى أنا فيها الآن ، وحصلت من أجل هذا

العرض على كتاب أمان من السلطان ، وقد أمضيت عامين في الحصول عليه حتى نمت به إلى آخره ، فلما وصلت أنا وزوجتي وأطفالى إلى مكة حيرتنا بين الردة عن ديننا أو القتل ، وكنت أنا نفسي مستعلاً للاستشهاد ، ولكنى كنت أعرف أن زوجتي وأبنائى يؤثرون الردة على الموت ، ومن ثم رأيت قبول هذا العرض مؤملاً أن يخلصنا الله في الوقت المناسب ، لكن لا بد من أن السلطان كان صالماً في كل ما جرى لكى ينال نصيبه بما سهوه منى . هذه هى قصة حياتى وحبر أسمى ، وإنتى لأستجلك بالله وبالرب الذى تسكنه له ، وألمس منك بهتبارك مسيحياً من أهل وطنى أن لا تركب هذا لاركب الجنونى ، نظراً لبعد الشقة ، وجسامة الشقة ، ومداحة الخطر ، فالإقليم تسكنه أحناس غريبة ليس لهم ملك بعلبوم ، ولا قوانين يحصمون لها ، ولا أحكام باتمرون بأمرهم ، فكيف نتوقع أن نرحل بلا عهد أمان ؟ وإذا اعتزم أحد قتلك فمن يحاف إن نعه ؟ أضف إلى ذلك فساد الهواء واختلاف المطاعم وللشرب مما ألهته في بلدك ، وستلتقى بأقوام غلاط لا يستطيعون ضبط أنفسهم ، وعلى الرغم من وجود أشياء نادرة يمكن رؤيتها هناك إلا أنها لن ترضيك الرضاء التام ، فترى هناك أكواماً من الذهب والآلى والأحجار الكريمة ، ولكن ما حدودك وانتفاعك بها إن تسكن على حيوانات ضاربة ؟ .

...

أخبرنى « نيكولا دى كوتى » بهذه الأمور وغيرها ، وانتهيت أخيراً إلى جدرى من التفكير في هذه الرحلة ، وأدركت إدراكاً جلياً أن عطلة الشديدي على وما أعطيت عليه نفسه من رحمة حلاله على إهداء تلك النصيحة إلى ،

كما ظهر لي بوضوح أنه التزم جادة الحق في كل ما رواه لي ، ومن ثم كفت
 عن مشروعى ، وعدنا إلى القدير وبقيتنا به ثلاثة أيام ، واستمد صحابى للسفر
 ما بين قاصد القاهرة وميتم وجهه شطر دمشق ، ولم أعمل شيئاً خلال
 تلك الأيام الثلاثة سوى زيارة الأماكن المختلفة والذهاب إلى البحر الأحمر
 والبقعة التى دخل منها أسناء إسرائيل للبحر حين كان فرعون فى أعقابهم
 حيث جف البحر وأضحى أرضاً يابسة وانشطر للاء شطرين ، ورأينا هناك
 جزيرة تسمى ششونة يقال إنه جاء منها اليهود الذين يُسمّون فى قشتالة
 بأبناء ششونة . Abens-susones. (٧٢)

الفصل العاشر

المقدمة من سيناء . نيكولا يتاج قصته

القديس حوث

سافرنا من جبل سيناء واستأذنت قيم الدبر ورهبانه في الرحيل ،
فنحنوني شعار القديسة كاترين ، وهو عبارة عن عجلة ذات أسننان
ذهبية ، فأعطيته — لقمري — نقوداً وتركنا أسلحتي ، واتخذت طريق
صحبة أفراد القافلة ونيكولا دي كوتتي ، وقل ما فعلته خلال هذه الرحلة
سوى الإصابات لأصابعه في الهند وأمدني بكثير من الأنباء التي دوتها
بخط يده ، فاستفدت منه عن خير « ريسترجون »^(٧١) ومدى سلطانه ،
فأفنى إلى أنه كان حاكماً عظيماً يقوم على خدمته خمسة وعشرون مسكاً
وإن لم يبلغوا ثأو الولاة الكبار ، كما يدين له الكثيرون ممن لا يحصون
لأثره ما ، ولكنهم ينبعون الطقوس الوثنية .

ويقال إن في الهند جبلاً شاهقاً^(٧٢) العلو يعتبر تعلقه أمراً بالغ الصعوبة ،
حق لقد عم على من عاشوا في سفحه — في الأزمنة القديمة — معرفة
شيء ما عن يقطنون في ذراه ، كما أن هؤلاء الآخرين كانوا لا يدرون
شيئاً من أمر ما كى سفحه ، إلى أن شق طريق ومدت سلسلة
ترط بين القمة والسفح بتعلق بها من يريدون الصعود أو النزول ،
ويوجد على قمة الجبل سهل كبير يزرع القوم به القمح ويحصدونه ،
ويربون فيه الماشية ، ويحفظون به الحبوب ؛ كما فكثرت به البساتين

المكتظة بالقواكه والمياه الوفيرة ، وقصارى القول إنه حافل بكل ما هو
 ضرورى للانسان فى حياته . ويوجد على أحد جانبيه دير مشهور جداً
 حرت العادة أن يبعث إليه من هم أهل ليكونوا قسماً يأتى عشر رحلا
 هجوزاً ، يَمَنُّ عرفوا بمرافقة الأصل والتمسك بالفضيلة لينتخبوا « بريسترجون »
 جديداً إذا خلى مكانه ، ويقومون بهذا العمل على الصورة التالية ، ذلك
 أن القوم يرسلون أكبر أبنائهم وبناتهم للخدمة به ، وزوجاتهم معهم
 من بعض ، وينتخبون أثناء يزودونهم بكل ما تتطلبه حياتهم ويمدوهم
 بالجياد والأسلحة والأقواس والسهام ، ويتقنونهم فى فنون الحرب
 والحكم ، ويعتد الناخبون بمجالسهم هناك يومياً ، وهم يرقبون الشخص
 الذى يتفيلون فيه من النجابة ما يؤهله أكثر من سواه لتولى الحكم
 حينما يخلو من « بريسترجون » ، ثم يتفقون فيما بينهم على الشخص الذى
 سوف يختارونه مكانه ، حتى إذا مات الحاكم فى النهاية عهد فرسانه إليه
 فوسدوه الذهب وحملوه إلى الجبل جرباً على عاداتهم وجللوه بثياب
 الخداد ، فبرام الناحيون وهم مقببون فى أماكنهم العالية ، وإذا ذاك
 يأخذون الشخص الذى وقع عليه الاختيار ويُسَلِّمونه إلى الفرسان بدلاً
 من السلطان الراحل الذى يرفعون جثمانه ويدفنونه فى الجبل مما يليق به
 من الاحترام ، بينما يمضى الآخرون بمولاهم الجديد وهم يملنون خضوعهم
 له وسط الاحتفالات الفخمة والأفراح العظيمة ، وحينذاك يأتى الناس على
 شتى طبقاتهم واختلاف فئاتهم حاملين الهدايا ، فيحضر البعض اللآلىء ،
 والبعض الآخر الأحجار الكريمة الغالية القيمة أو الصولجانات الذهبية ،
 كل حسب المنطقة التى يقيم فيها أو التى ولد بها .



ولقد أخبرني نيكولا دي كوتى أيضاً أن أحسن أنواع الفرفة تنمو
في جبل سيلان هذا ، وأضاف إلى ذلك أن به نوعاً من العاكة أشبه
بالقرع الكبير المستدير ، بداخله ثلاثة فواكه منفصل كل منها عن
الآخر ، ولكل منها مذاقها الذي يميزها عن سواها .

كذلك أبلغني نيكولا عن شاطئ بحري لا يكاد سلطامونه يصل إلى
الأرض ويتعرض للهواء حتى يستحيل إلى حجر ، وأشار أيضاً إلى إقليم
من أقاليم الجلاعات الوثنية به مكان شهير للحج ، وقد حدث أن وضعت
عنده امرأة توأمين ما كادا يخرجان من بطن أمهما حتى حجبا عيونهما
بأيديهما قائلين لهما بكرهان الميش في عالم شرير كهذا العالم ، وانطلقا
إلى جبل عاşa به حتى وافقهما منيتهما ، فظهرت في اللوح الذي مات به
أحداهما بحيرة كبيرة ، وفي مكان موت الآخر بحيرة طين ضخمة ، يلقى
الناس فيها بأنفسهم ، ويموتون بهذا قائلين إنهم ماضون للغلود .

وهناك أناس آخرون يرغبون في أن يخلقوا بعمد دكرى بأسهم حتى
يعرف أولادهم بأبناء الرجال الصالحين ، فيمدون إلى صنع جهاز أشبه
بالمقص الكبير ، ثم يضعون رءوسهم بين شفتيه ويطبقتونهما بالأقدام
فتجز رقابهم^(٢١) .

كذلك أبلغني نيكولا دي كوتى أنه رأى قوماً يأكلون لحوم البشر ،
فسكان هذا أغرب ما طالته عيناه ، وليسكن مفهوماً أن هذا تقليد
وثني ، كئيد أنه شاهد تصاري يأكلون لحوم الحيوانات نيئة دون طهي ،
فيذا فرغوا منها تحم عليهم أكل نوع معين من العشب ذي رائحة عطرية
نفاذة وذلك في مدى خمسة عشر أو عشرين يوماً ، فإن تأخروا عن
نلك ثلاثة ابتلوا بالجذام .

* * *

وعلمت أيضاً أن « بريستجون » أراد أن يعرف أين منابع النيل ،
فأعدّ السمن وأنفذ الرجال ، وجهزهم بالطعام الوفير ، وأمرهم أن يعودوا
إليه بحجر منجمه ، فسافروا وشاهدوا كثيراً من البلاد والشعوب الغريبة
والحيوانات غير المألوفة ، مما يعدّ أمجوبة من الأعاجيب الكبرى ، فلما
استنفذ هؤلاء الرجال كل ما معهم من اللثة انكفئوا عائدين دون
الوقوف على ما جاءوا من أجله ، وأصبح « بريستجون » منكسر الخاطر
كل الانكسار ، ثم راح بعدئذ يستشير من حوله عما إذا كان في إمكانه
إرسال رجال لا يهلكون إن عدم الطعام ، فأمر قومه بأن يأخذوا
أطفالاً صفاراً منهم من شرب اللبن ونشأهم على السمك النيء (وهو
أمر ليس المستغرب إذ يروى أولئك الذين يذهبون إلى غينيا أن الوثنيين
في هذه الجهات لا يأكلون سوى السمك النيء) ، فلما اشتد عودهم
وبلغوا مبلغ الرجال جهزهم بالقوارب والشباك ، ونهاهم أن يعودوا إليه
— ما كانت الظروف — دون الخبر اليقين عما خرجوا من أجله ،
حافظوا لمطيتهم مصمدين في النهر ، مارين بأفطار شتى ، وجهود ألا
يتصلوا بأحد مخافة أن يحال بينهم وبين وجهتهم ، حتى بلغوا بحيرة
أشبه ما تكون بالبحر في اتساعها ، فصاقبوا الشاطئ وداروا حوله كله
حسام يجدون منبع الماء الذي تخرج منه هذه البحيرة ، فجاءوا في
النهاية إلى فحة تدخلها المياه ، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى سلسلة جبلية
كبيرة شاهقة الارتفاع شديدة الانحدار ، تبدو وكأنها قد نحتت من الصخر
ويمحز الطرف عن إدراك قمتها ، وبها فتحة واسعة يتدفق منها الماء .
وإلى جوار هذا الجبل وعلى اتصال به سلسلة أخرى تطاوله ارتفاعاً ، ويسير
على العين رؤية الماء وهو متحدر منها ، فاعترى الرحالة أن يرسلوا أحدهم لتقرير

اخير ، غير أن الذى صعد الجبل رفض - كما يقولون - العودة أو حتى الرد على الأسئلة بعد أن شاهد مايدلحله ، وإذ ذلك بحثوا بآخر سواء فكان شأنه شأن ساقه ، فلما رأى الآخرون ذلك ، وأنه من المستحيل عليهم أن يصيبوا من الخير فوق ما لديهم خلقوا هذين الاثنين وراهم على الجبل بعد أن عجزوا عن ردهما ، واسكنوا عائدتين سالكتين الطريق الذى قدما معه ، وقصوا على ملكهم كل ماجرى لهم ، وأنباؤه أنه ليس وراء ما وصلوا اليه من كشف ، بعد أن انضح لهم أن الله لا يريد أن يعرف الآدميون أكثر مما يعرفون ، وأنه - سبحانه - أغلق دونهم السر على هذه الصورة .



كذلك ذكر « بيكولادى كومتى » أنه شاهد قوماً على الفطارة لم تجر عادتهم على أخذ مهر من زوجاتهم حين اقترانهم بهن ، لكن إذا حانت منية الرجل قبل زوجته صار لزاماً عليها حرق نفسها على الهيئة التى يحرق بها الوثنيون جثث موتاهم ، أما إذا جاء الزوجة أجالها أولاً فلا إثم على الزوج ولا جناح عليه إن لم يحرق نفسه ، وحجتهم فى ذلك أن المرأة خلقت لخدمة الرجل ولم يخلق الرجل لخدمتها ، وإن هلك الرأس فلا قيمة للتابع الذى لا يستحق أن يذكر حتى باللسان .

وإذا مات الرجل وضعوا جثمانه فى المسكان الذى أعد لحرقه ، ثم تبرر المرأة فى أبيه زيتها قائلة إن ذلك لزفاف أحسن من الأول ، وأنها ستصحب زوجها إلى الأبدية فى البقعة التى يكون بها ، وتضم العرحة الناس ويقبلون على النساء ، وتشاركهم هى وأهلها هذا السرور ، ويتساءلون عما إذا كان هناك من يريد أن يبعث معها رسالة لمن فى العالم الآخر وهى موشكة على المضى

إليه في رفقة بطيها ، ثم يجر دونها من ثيابها ويلبسونها ثوباً قاعماً أشبه بالكفن ،
وينشدون في أثناء ذلك للرأى والأغاني الحزينة ، بينما تطوف هي عليهم جميعاً
مودعة إياهم ، وترقد إلى جوار رجلها موسدة رأسها ذراعها اليمنى ، ويقولون هم
في الختام أشياء كثيرة أهمها أن الزوجة يحق لها أن تعيش طاملاً تكرمها هذه
الذراع وتدافع عنها ، ثم يضرمون النار في كليهما فتضئ إلى هلاكها قريبة
العين مطمئنة النفس .

وتم مكان آخر يمارس القوم فيه نفس العادة ولكن مع شيء من
الاختلاف ، وذلك أنهم يسألون المرأة حين عقد الزواج عما إذا كانت تريد أن
تحرق أم لا ، فإن قبلته كانت عليها طاعة التخليد للذكور آنفاً ، أما إن رفضته
كان عليها أن تقدم مهراً ، فإذا مات بطيها أقيمت غس الخطة ، حتى إذا جاء
وقت الحرق وضعوا مكانها غطاء رأسها ، وتنازلت عن مهرها لورثة زوجها .
وينظر القوم إلى من يرفض الحرق على أنهم زوجات شريرات غير
شرعيات ، ويقال إن أمثال هؤلاء قليلات جداً ، حتى إن واحدة رفضت أن تحرق
فنادرت البلد خجلاً ، وجاءت لتعيش في القاهرة حيث رآها نيكولا دي
كونتي بهماً .



وأخبرني نيكولا دي كونتي أنه مازال معه أشياء كثيرة ومقادير ضخمة
من اللآلئ والأحجار الكريمة رغم امتداد يد النهب والسرقة إليه ، ولكنه
كان أشد حرصاً على كليات العقاقير الطبية التي كانت معه بكثرة لا تحدر قيمتها
ولقد أراني ياقوتة عظيمة القدر ، وكذلك قطعة مستديرة من الخوص بنفت
من الرقة جداً يضارع أرق أنواع الحرير ، وقد سألتني أن أدله - إن رده الله
سالماً إلى بلاد النصرانية - عن أحسن الأسواق إقبالاً على تجارته ، فأخبرته أن

الإمبراطور كان في حرب ضد ملك بولندية ولم يعد إلى بلاده إلا منذ أمد قريب خالي الوفاض إلا من ثروة تافهة ، وأن فرنسا أفقر من هذا من جراء حروبها الدائمة ، وأن القوم في إيطاليا - وهو أدرى مني بذلك - لا يشترون شيئاً قط إلا ليميدوا بيعه ، وزدت على ذلك بأنه يبدو لي أنه واجد في أسباب خير سوق تنفق فيه تجارته ، لاسيما من جراء ثروة ملكها العظيمة ، ولأنا نخرج على الدوام من جميع حروبنا منتصرين ولم نعرف الهزيمة قط ، ودكرت له أن أهلها موفورو الثراء ، وأنهم أكثر من غيرهم تقديراً لهذه الأشياء . ومن ثم عقد عزمه على الذهاب إلى إسبانيا .

وسأنته عما إذا كان قد تأني له أن يرى وحوشاً على هيئة آدمية كالتي يروى البمص أخبارها ، فيذكرون أن هناك رجالاً ذوي ساق واحدة وعين واحدة ، أو أوتواماً لا يزيدون عن ذراع طولاً ، أو أطوالاً كالرمح ، فأجابني بأنه لم يصادف قط شيئاً من ذلك ، ولكنه رأى وحوشاً على هيئة موشة في العرابة ، فقد شاهد في إحدى البلاد الوثنية فيلا كبير الحجم أبيض كالثلج في لونه وهو أمر جد عجيب ، لأن القبيلة غالباً ما تكون سوداء ، وهم يشدونه بسلاسل من الذهب إلى عمود ، وينزلونه منزلة الأرباب والآلهة ، كذلك رأى حماراً جاءوا به إلى بريسترجون لا يزيد عن كلب السباق حجماً ولكنه ممتد الألوان ، وكذلك كثيراً من الحصص للقرنة وغيرها من الحيوانات التي يستغرق وصفها أمداً طويلاً ، كما أنبأني أنهم يقيمون أبراجاً على القيلة التي يستعملونها عند خروجهم للقتال .

أما « بريسترجون » وقومه فسكان توليك ساحلون ومسيحيون طيبون كما في كل ناحية أخرى ، ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن كنيسة القديسة الرومانية ولا يصنعون لحكمها ، ويقال إن هذا الملك موفر جداً ، حتى لو أن أعظم

رعاياه ارتكب عملا يستحق عليه الموت فإنه يبحث إليه خادماً يرسله بأمره
فيها بالاستسلام للقتل على يد هذا الخادم ، وإذا ذاك يستجيب هذا العظيم لملك
الخطاب ، وسرعان ما يخفض هامته ويستقبل للموت .

وأخبرني نينكولادي كوتني أيضاً أنه رأى سيداً جليلاً جاء بهدية
كبيرة من الذهب إلى بريسترجون وكان غفوراً كل الفخر بما أحضره إليه ،
وأمر في الكلام متباهياً أن لم يسبقه أحداً لقيام بمثل هذا العمل ، مما
حمل بريسترجون على أن يصدر أمره في الحال بقتله ، قائلاً إن هذا القتل هو
أجل ما يستطيع أن يكافئه به ، وأن للموت ليس بالقليل لهذا السيد .



وعرفت أيضاً أن الناس في تلك النواحي يراعون كل البراعة في فنون
السحر ، وقد رأيت دي كوتني وهم مبحرون في البحر الأحمر يتشاورون مع
الشياطين ، وأنبأني أنه شاهد عن بعض شعباً أسود مبهاً يتحرك على طول
الصارى الأكبر لإحدى السفن ، وإذا ذاك ناشد البحارة الشبح السكون
وسألوه « ماذا ترى من أمر رحلتنا ؟ » فأجابهم الشبح « ستلقون سعة أيام
هادئة هدوء الموت ، يكون الجو خلاصاً أشبه ببخيرة من الزيت ، ولكن
يجب أن تهيئوا أنفسكم لأيام تبلغ فيها العواصف ذروتها » .

وقد وصف دي كوتني سقنهم بأنها أشبه بالبيوت الكبيرة ولكنها
ليست مجهزة أبداً كسفننا ، فهي ذات قلاع ترواح ما بين عشرة قوائم إلى عشرة قوائم
وبداخلها صهاريج كبيرة من الماء لأن الرياح ليست قوية جداً ، وإذا كانوا في
البحر لم يمشوا شيئاً من الجزر أو الصخور ، وتحمل هذه السفن شتى أنواع

المتاجر التي تفصلها القوافل منهم من جسد حيث يتخذونها مينا، بفرعون
به متجناسهم.

وأخبرني دي كوتني أن مكة أضخم من أشييلية مساحة ، ولا تحصى لأي
حاكم إلا لصاحب شرعهم الذي يعتبرونه بابا، كما أنهم ينظرون إلى السلطان
كأنه إمبراطور ، وبالمدينة مسجد من أعظم المساجد فيه جسد محمد [صلى الله
عليه وسلم] ، وقال بعض المنود الذين جاءوا إلى هناك من أثيوبيا أيضا أنهم
استطاعوا سد مياه النيل الذي يجري من الهند إلى الحبشة ثم بنسب في جميع
أرجاء مصر حتى يبلغ البحر الأبيض المتوسط ، والذي ينقسم إلى فرعين يبلغ
أحدهم البحر قرب الإسكندرية ويصل الآخر إلى دمياط ، فإذا توقفت هذه
المياه عن الجريان أجذب القطر وهلك سكانه أجمعين .

وعلمت من نيكولا دي كوتني أن بريستر جون كان يستقيه على الدوام
ببلاطه ، مستفسرا منه عن العالم المسيحي ، والأمراء وأقطارهم ، وما يشنونه
من الحروب ، وقد أتيح لنيكولا أثناء إقامته هناك أن يرى بريستر جون
ينفذ مرتين سفراء من قبله إلى الأمراء المسيحيين ، وإن لم يسمع عما إذا كان
« بريستر جون » قد تلقى أية أنباء منهم ، إلا أنه رأى الاستعدادات التي
اتخذها بريستر جون للوصول بحيث إلى بيت المقدس ، والرحلة إليها أبعد
كثيرا من الرحلة إلى أوربة .

وقد رأى دي كوتني الكنييسة التي يرقد بها جثمان توما الذي بشر
بين المنود وهداهم للتصراية ، كما أشار أيضا إلى ما يحدث إبان ارتفاع النيل
من تساقط البرد الوارد من الجنة الأرضية والذي يسمونه بقطر الصبار ،

وحدث في زمن القديس توماس - حين راح يبشر بالنصرانية - والناس منصرفون عن دعوته أن زلت بالنيل شجرة ضخمة جرفتها للياه إلى هذا المكان ، ففضى الناس إلى حاكمهم والتمسوا منه أن يقوم بنفسه ويشاهد أعظم معجزة في الدنيا وهي أكبر شجرة صبار رأسها المين ، فنهض للثك في الحال ، فلما أبصرها أسرم بحملها على الثيران ولسكنهم عجوزا عن تحريكها ، وإذ ذاك أشار بقطعها ولكن الآلات لم تعمل في خشبها ، وكان القديس توماس الرسول موجوداً هناك حينذاك ، فأحبرهم أنهم إذا تمعدوا وآمنوا بالرب - مُبدع هذه المعجزات وصانها - فإنه وعده سوف يرفسها بنفسه ويحملها إلى حيث شاءوا ، فأجابته الحاكم أنهم سوف يؤمنون جميعاً بالله إن فعل ذلك ، وإذ ذاك رسم القديس توماس الصليب ، وأمسك بالشجرة وحملها إلى الناحية التي أشاروا عليه بها ، فلما رأى القوم هذه المعجزة تصدّوا عن آخرهم وتنصروا ، وحينئذ أخذ القديس الشجرة ونشرها ، وأقام كنيسته تحدها منها ولا يزال جثمانه بها حتى الآن ، كـ لا يزال المنود حتى اليوم يقدسون الرسول توماس تقديساً عظيماً ، حتى أنهم يأخذون تراب الناحية للدفون بها ويصنعون منه كرات صغيرة يحملونها على الدوام فوق صدورهم ، قائلين إن في تناول حبة واحدة من هذا التراب عناية عن تناول القربان إذا لم يستطعموه لحظة موتهم ، وقد أعطاني نيكولادى كونتى خمس حبات أو ستا ، أعتقد أنني لا زلت محتفظاً بها إلى اليوم .

وأهل القارة الهندية أشد سمة منا ، ولكن الأحباش أكثر منهم اسمراراً ، وتظل هذه السمة في الازدياد حتى يبالغ الزوج السود الذين يعيشون عند خط الاستواء الذي يسمونه بالنطقة الحارة .

الفصل الحادى عشر

الوصول إلى القاهرة . قصة بطرس الرندى .

الجلوس للحكم بين الناس . الحياة

في شوارع القاهرة

. . .

استغرقت رحلتنا خمسة عشر يوماً نظراً للمشقة الكبرى التى صادفنا
فى القيام بها ، بيد أن الفسوة التى أحسستها وأنا أنصت إلى ما أفضى به إلى
نيكولودى كوتى من الأخبار الشائعة أذهبت عن نفسى كل إحساس بالجهد
الذى عانيت به فى السفر ، حتى إذا تهيأ لنا الدخول إلى القاهرة اتفق الرأى بيننا
على أن يلتقى كل يوم فى كنيسة « سانت مارتا » متوى جثمان الطوبارى القتلى
المعروف باسم بطرس الرندى الذى سأشير إليه فيما بعد .

أثلت الضرورة عاينا تنسيق هذا الترتيب بيننا لأننى كنت ماضياً
للإقامة مع كبير مترجمى السلطان ، على حين أنه كان على نيكولودى كوتى أن
يُفتش له من سكن بين المسلمين ، ولما بلغت دار مضيئى هتلى وتلقانى
بفرح شديد ، كما لو كنت ابناً له خرج من صلبه وقد آب إليه بعد
حلول غيابه .

وفى اليوم التالى مضى « نيكولودى كوتى » لمقابلة السلطان وشكى إليه
عدم اكتمال الأهالى بعد أمانه ، كما شكى إليه الأسلوب الذى اصطنعوه
لإرغامه على الإسلام ، وذكر له أنهم مطلوبوه مامعه ، فاستمع السلطان إلى ذلك
كله وقد استبد به الضيق ، وبذل جهده فى استرضاء خاطر دى كوتى بما
أولاه إياه من عطف كثير حتى لقد جعله كبير مترجميه ، منزلاً إياه نفس
منزلة كبير المترجمين الآخر ، ومنعه داراً يقيم بها وأقطعه أملاً كما بالقاهرة .

فما كان اليوم التالي قدم دى كوتى إلى الكنيسة التي اتفقنا على التلاقى
 بها ، وأقصى إلى بجميع ما جرى بينه وبين السلطان وما فعلوه له ، وأنه —
 وقد أصبح يشمل وظيفة تابعة للسلطان — أضحى قادراً على التجول في البلاد
 كيفما شاء وعلى زيارة الموانئ البحرية ، ومن ثم قام له كبير أن تُثبِّطه معونة
 الرب هو ورقته البلاد المسيحية سالمين ، وإذ عرف أنتى ماض إلى البدقية
 سألتى أن أحل بضع رسائل معينة إلى من هناك . ورغب في الوقوف على
 اليوم الذى أعزم فيه الرحيل ، فأنبأته أنتى شقت على نفسى بكثرة السر ،
 ولا بد لي من اللبث حيث أنا مدة تقرب من عشرين يوماً أو ثلاثين ، وهذا
 هو ما فعلته ، ولم أشغل نفسى خلال هذه الفترة — إلا قليلاً — بغير مشاهدته
 مناظر القاهرة في رفقة نيكولودى كوتى وكبير المترجمين ، وأعنى به —
 مضيق القشتالى .

• • •

وقص على مضيق ذات يوم ما كان قد جرى بين مولاه السلطان الراحل
 وبين قشتالى يدعى بطرس الرندى كان في أصله قرصاناً يتجسس في البحر ،
 فكثرت التفتيش عنه في تلك المياه ، غير أنه هُزم في أحد الأيام وأمرته سفينة
 إسلامية ، فلما أصبح في يد المسلمين عارضهم في بعض الطريق قرصان قشتالى
 آخر وكسره ، واستولى على المركب وفيه بطرس الرندى الذى عرفه القرصان
 [القشتالى] ، وإذا كان يعلم ما لبطرس من ذبوع الشهرة وعظيما فقد رأى
 فك قيده وترويده بسفينة ومبالغ من المال لقاء قطعه العهد على نفسه بـ
 إياه على الدوام ومراقبته الجماعة أتى سارت ومحافظته على وعده هذا .
 فأجابه بطرس الرندى بما لقيته تلك الفكرة في نفسه من استجابة وترحيب ،

غير أنه اشترط عليه ألا يرفعا سيقاً في غير وجه المسلمين ، وألا يهاجما المصارى
قطر ، تقسم أفسه من قبل على ذلك ، فرضى الكتلاني بما أراد بطرس ،
وانفق معه على هذا المسلك ، ثم قدما إلى جزيرة رودس ، حتى إذا أعداها
كل ما يلزمها في مخاطرهما ركبا البحر مستهدفين قتال المسلمين ، وأسرا كثيراً
من شوانيتهم ، واشتد الخوف بالمسلمين حتى لقد كفوا عن مهاجمة المسيحيين ،
ودوت شهرتهما بصورة أفزعتهما المسلمين حتى لكانتهما كما أميرين
عن أكبر أسراء المصارى يتحزبان في البحر .

واستمرت الحرب وسارا على نهج اختطاه من أنهما إذا عدما أحداً
يسلمانه في البحر ألقى أحدهما مراسيه برأ وطرق البلاد بينما أخذ الثاني في
حراسة السفن ، وفي ذات يوم من الأيام أرمى الكتلاني في دمياط بغية
المهجوم عليها ، بيد أن جموعاً كثيفة من المسلمين نهضت لقتاله ودفعته ، حتى
خذاقت عليه الأرض بما رحبت وسدّت أمامه السبل وأحيط به من كل
جانب ، فلما شاهد بطرس الرندي من سفينته ما حاق بالكتلاني بادر لساعته
موتما شطر الساحل قاصداً نجده ، لكن المسلمين كروا عليهم بمجموعهم
الكثيفة كرة عنيفة فوقها في أيديهم وحملوها إلى السلطان الذي ما كاد
يعلم أنهم قد جاءوه بهذا القرصان الشهير الذي أنزل الحراب الكثير بالمسلمين
حتى فرح فرحاً شديداً ، وراح يسأل بطرس الرندي عما إذا كان هو نفس
الرجل الذي طالما أضّر بالمسلمين ، فلم يشكر بطرس ذلك ، فعاد يستعصره عن
السبب الذي من أجله سلك هذا السمت ، فأجابه بطرس بأن الذي حمله على
ذلك هو أن للمسلمين أعداء الدين ، وهل كان يدور بحلد السلطان أن يدع
بطرس المسلمين في راحة وينهب المسيحيين ؟

وحينذاك رسم السلطان بمجازاة بطرس بما فعل ، وإظهاراً للعدل الإلهي
 رسم بأن يحبس بطرس الرندي عقيدته ، وأن يعترف بخطايه ، وأن يعتنق
 الإسلام وبذلك يفتو عنه السلطان ويهبه عطفه ، بيد أن بطرس الرندي أجاب
 بأن كل غنم قد يصله به السلطان لا يعوضه — مهما ضخمت — عن خسران
 روحه ، فلما رأى السلطان ذلك الإصرار منه أمر بقطع رأسه هو وصاحبه ، فلما
 رأى الكتلاني الموت دانياً منه بادر إلى إعلان إسلامه ، ومن ثم جاء بطرس
 الرندي إلى السلطان سرّاً وقال له « مولاي : سأسلم إن مكنتني من الثأر لنفسى
 بقتل رفيق هذا » فاستجاب له الملك مسروراً ، فانتحى بطرس الرندي جانباً
 بالكتلاني وقال له « يا صديق نحن لا نستطيع الآن تخليص نفسي لأن
 السلطان قد أجمع العزم على قتلنا حتى ولو نبذنا ديننا ، فإن كان الأمر كذلك
 فعدنا نتلقى الشهادة من الله غفراناً لخطايانا وجباً لأماننا » ، فرأى الكتلاني
 الصواب في ما قاله بطرس ، وعلته الفرحة ، وسرعان ما استسلم للموت على يد
 بطرس الرندي الذي قال له السلطان حينئذ : « لقد أوفيت بمهدي ذلك فأوفر
 بمهدي لي » فأجابه « أيها السلطان لم أفل ذلك إلا إقادة روح زميل إذا
 بلغ الضعف بجذابه حداً حله على قبول الإسلام ، أما الآن فأفل بي ما بدا لك » ،
 فأجابه السلطان « أحلص في خدمتي ، ووافل ما أمرك به ، وصاحبي في القتال ،
 وعلى أن أهيك حياتك » ، فأجابه بطرس الرندي « على ألا تحارب النصارى » ،
 فرضى السلطان وقال له « أعدك ألا أضحك موضعاً تحارب فيه المسيحيين ،
 ولكني موليك أمر جميع من في خدمتي من النصارى ، وخاتم عليك من
 الخلع كثيراً إن أنت أخلصت الخدمة لي » ومن ثم قيد نفسه بمهده .

وأمر السلطان بإعداد بيت له وأنفذ إليه من يقومون بخدمته وأجرى

عليه راتبا ، واستدعى أيضا أحد كبار أمراءه وعهد إليه بالمحافظة على بطرس الرندى ، ويقولون أيضا — أكثر من ذلك — ، إنه بينما كان السلطان يعد العدة للرجوع إلى المدينة بعث في طلب هذا الأمير ، حتى إذا صار في حصرتة قال له « حمل هذا النصرانى بما يكفيه هو ومن معه من الخمر ، ولا تقصر فيما يطلبه منها حتى لا يستشعر الحنين إلى وطنه » .

هذا ما رواه لى المترجم الذى كنت أسكن معه هادفا من وراء ذلك إلى تعظيم مولاة السلطان ، وإلى إدخال السرور على نفسى بطبيب الأعدوة عن قشالى من أبناء جلدتى وجلدته .

ولما مات هذا السلطان بأدرخلفه إلى الأمير المسئول برعاية بطرس الرندى ، وأمر بأخذه معتزما قتله ، غير أن ذلك الأمير فرق مع بطرس واستخفيا عن الأعين ، فأمر بالتفتيش عابهما ، فلما جرى بهما إليه أمر بطرس الرندى بترك دينه واعتناق الإسلام ، فما استجاب له الرندى ولا سمع قالته فقطع رأسه ، وحمل المسيحيون جسده ودفنوه فى كنيسة فى القاهرة تدعى كنيسة سانت مارتا ، وأظهر كثيرا من المعجزات .

. . .

أعد يوم لفصل فى القضايا فكان كما يلى :

جاء بثلاثة رجال للقتل فسألت عما اقترفوه ، فأفضى إلى المترجم بأن اللصوص سرقوا فى الليلة الماضية أحد الصيارفة ، ولما كان هؤلاء الثلاثة حيرانه ولم ينتبهوا للصوص ولم يعتوا برعاية بضائع جارهم عنايتهم ببضاعتهم الخاصة فقد حكم عليهم بالموت ، قلت له « إن يكن الأمر كذلك فإنه يبدو لى أسكم تدبثون من لا ذنب له ولا جريرة ، وتأخذون البرى بخطيئة الآثم ، وذلك

قصاء بنطوى على القسوة .

فأجابني المترجم « مهلا وإصاحي ، فإننا شرب كبير العدد جداً هذا إلى أن الرب يزيدنا في كل يوم ، فإذا لم نوقع المقويات على كل من الجاني نفسه والظفارة لم بتأت لنا الميش ، ونحن لا نقيم العدالة فحسب ، بل نجد من الضروري أن ننفذها بطريقة فظة لا تعرف الرحمة إليها سبيلاً . »

• • •

إن أحسن وأبهى وأروع شيء يراه المرء في القاهرة هو سوقها الذي تعرض للبيع فيه أكداش هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند ، لاسيما اللآلئ والأحجار الكريمة والتوابل والعلطور والخرائر والبضائع التيلية ، وكل مشوم طيب الرائحة ، وليس في القدرة تمديد جميع السلع التي يوفى بها إلى هنا من المهندم توزع في مختلف أنحاء العالم ، وهنا السوق الرئيسي لجميع تلك الأنواع التي وصفتها .

• • •

وهناك طائفة معينة من الرجال يذرعون شوارع القاهرة جيئة وذهاباً وقد نهبتوا المرايا إلى صدورهم ، وهؤلاء هم الخلاقون الذين يحملون رؤوس المسلمين ويثبتون وجوههم ، وهم يعمرون في الشوارع متادين على صناعتهم ، وكذلك بعض السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة وهم يصيحون : « من يريد الزبانة ؟ » وهؤلاء هم الذين يقومون بخدمة النساء اللاتي يرذن النظافة سرّاً في الحمامات .

ولكل حاجة تجارها في الشوارع يسألون عما إذا كان ثمة من يحتاج إليهم ، حتى إن الطبّاحين ليقعدون جيئة وذهاباً حاملين للمواقد والنيران وأطباق الخشبي المعدة للبيع ، على حين ترى سوامم حاملين صحاف الفاكهة ،

وعدداً كبيراً من السقائين يروحون ويحيثون لبيع المياه التي يحملوها على ظهور الجبال والحير أو في القرب على ظهورهم ، وذلك لكثرة عدد الناس ولا سبيل إلى الماء إلا من النهر .

وفواكه الصيف ناضجة أشد النضج ، وقسوة حرارة هذا الفصل البالغة فإن الله قد منح الناس كل ما هو ضروري ، فحين يشتد القيظ وتستمر الحرارة تهب في أوقات معينة نائم قوية جداً حتى لتؤثر في الميون ، ويبدو كثير من الناس كأنهم سكارى ، ويحدون في هذه النواكه خير وقاية وعلاج ، أما فيما سوى ذلك فاقطر حتى جداً ، وكل ما فيه من هواء وماء ولحوم : طيب كريم ، والإبل في هذه النواحي شديدة الضخامة وجميلة وإن لم تكن سريعة الحركة ، أما الحير فأكثر المطايا لطفاً وأحسنها منظراً وأسرعها في المشي ، ويعنى القسوم بتجهيزها باللجم والبراذع .

الفصل الثاني عشر

• الإسكندرية ، نيقوسيا ، الرحيل إلى قبرص . •

• موت رئيس الاسكندرية •

• انتخاب خليفة •

...

مكثت في القاهرة ثلاثين يوما ثم غادرتها بعد أن استأذنت السلطان « ونيكولودي كوتقي » الذي سألني أن أوصل إلى البندقية بضع رسائل حلني إياها ، كما استأذنت مضيقي كبير المترجمين وزوجته وأطفاله الذين عاملوني كما لو كنت واحدا منهم ، ووصلوني بكثير من الهدايا التي أخذتها معي لاسيما قطعتين هنديتين وبنناوين وبعض العطور وأشياء أخرى ، من بينها فيروزج لا أزال محتفظا به ، كما زودوني أيضا بأنواع من الزاد للاستعانة بها في رحلتي. غادرت القاهرة وركبت النبل ، حتى إذا بلغت المكان الذي يتفرع عنده إلى فرعين تركت الفرع الأيمن الذي يؤدي إلى دمياط التي كنت بها من قبل ، ونزلت في الفرع الآخر ، حتى أدركت مكانا قريبا من الإسكندرية اسمه « رشود » ، ومنه وصلت إلى الإسكندرية ، وهي مدينة رائعة جدا فبقيت فيها ثلاثة أيام أتأمل من المكانين المقدسين اللذين ولدت وبأحدهما سانت كاترين واستشهدت في الآخر الذي رأيت فيه سردابا سد القوم بابه ، ويقال إن به العجزة التي شذوها إليها .

والمدينة ميناء بحري عظيم ، ومكان كبير لاستقبال النصارى القادمين والراجلين على السواء ، ولما شاهدتها مليا سافرت برا إلى دمياط ، لكنني لم

قف على أثر السفينة التي أعطاها ملك قبرص ، مما اضطرني للبقاء ثمانية أيام في انتظار وصولها لأنها كانت قد أبحرت مصاوبة للشاطئ حتى بلغت بيت المقدس .

أولاً أهدت إلى والي دمياط ماحلته إليه من رسائل السلطان وكبير المترجمين فقد تلقاني بالاحترام العظيم ، كما بعثت أسأله عما إذا كان لديه جلد تمساح لأرسله إلى ملك قبرص استجابةً لسؤاله ، فقدم إلى جلد تمساح اصطاده حديثاً ، غير أن رائحته كانت شديدة الكراهية ، ولم يكن أحبّ إلى نفسي من أن آخذ معي ابنة الوالي اللطيفة بدلاً من حمل جلد هذا التمساح ، وعلى أية حال فقد ركبت السفينة التي اتخذت باسم الله في البحر مجراها حتى وصلت بعد سبعة أيام مدينة « ألباف » فأرست بها ، وكانت مكاناً أبعد ما يكون عن الصلابة ، ووافق يوم وصولي بالذات موت أحد الأساقفة واثني من رجاله ، وحدث الرب على أُنق لم أكد أضع قدمي على الأرض حتى كان في استطاعتي الرحيل على مطايا الأسف ومعاونيه ، ومضيت قدماً إلى بلاط ملك قبرص في نفوسيا ، وقد سبقني المترجم الذي أمدني به الملك ليعلم مقدمي إلى الملك وكبير أساقفته ، فبعثا إلى بطلبان منى اللقاء تلك الليلة في أحد الفنادق ، حتى إذا أبلغ صباح اليوم التالي لقياي لقاءً يشتمل فيه التشريف ، وكان الأمر كما قال .

وصادفت في الصباح — وأنا في طريقي إلى القصر — كثيرين من كبار رجال البلاط الملكي الذين خفوا لاستقبال وحموني إلى حمرة الملك^(٧٧) ، فلما وصلت إلى هناك ألقىته هو والكردينال ومعهم طائفة كبيرة من الأعيان ، فتلقوني أحسن لقاء وأحاطوني بالرعاية والمودة حتى لكانني قد ولدت بينهم ، وحمدوا الله على سلامة عودتي بعد هذه

الرحلة الطويلة الذي ، وشكروني نياحة عن الملك لما قت به من الخدمة له ، وقدموا لي كل ما طلبت ، ثم استأذنت الملك ، فاستصحبني القائد الذي كان حاضراً المجلس وأخذني إلى محل إقامته كما حدث في المرة السابقة ، حيث أكرمت وفادتي إكراماً عظيماً .

وفي صباح اليوم التالي حدثت خيبة كبيرة بين الناس ، وهرع كل واحد إلى حمل السلاح حتى الكاردينال نفسه وأخته السيئة إيبس وكثيرون من كبار رجالات الملكة : ثورة على الملك ، هادفين من وراء ذلك قتل أحد أصفهائه ، فإن لم يستطيحوه فأسروه ، وكان اسمه « يعقوب جيري » الذي كان يتولى منصب القضاء ، وإذ ذاك هرب الملك إلى حصن من الحصون الواقعة في أحد أطراف المدينة يسمونه « بالقلمة » ، بيد أن الثائرين حاصروها مطالبين للملك بعزل صفتيه من البلاط ومنحه مدى عام من العسوة ، فأقسم الملك على ذلك وبر بما وعد ، فانفض الناس إلى بيوتهم .

فلما كان اليوم التالي بعث للملك في طلبي وسألني - في حضرة الكاردينال وجماعة من النبلاء - أن أنسلم منه كل ما يرضيني ثمنا لرحلتي ، فأجبت بآني لقيت من رعايته الكثير الذي يكفيني ، وأن عندي من المال ما يبد نفقات عودتي ، واتهمت منه أن يأمر القوم بمسحى ضمان مسرور وتجهيزي بسفينة لحلي إلى رودس ، وأخذت أنهيأ للرحيل ، وأخذ هو من جانيه يعمل على تعريفي ، إذ رغب في أن أبقى مدة ثمانية أيام على الأقل ، فلم أجد حيلة إلا الرضاء بما أراد ، بعد أن أدركت أن في استجابة هذه الرغبة ما يسره ويرضيه ، وفي أثناء هذه الأيام الثمانية أخذت أعظم قسط من الراحة ، وجهز القوم مركبا لحلي ، ثم أذن لي الملك في المغادرة (وإن كان ذلك الإذن في

في الحقيقة على كره منه) وزودني بشعاره الذي لازلت محتفظا به ، وأمدني بمشر قطع من قماش وبر الجلال والتيل الجليل ، وأعطاني فهداً ومقادير ضخمة من الزاد تكفي مدة عام أستعين بها في رحلتي إلى رودس .

وفي أثناء وجودي هناك وفد على الملك سفيران : أحدهما من ناحية دوق سافوي ، والآخر من قبل أحد أدواق ألمانيا . وكلاهما بعرض على الملك أن يزوجه ابنته إن رغب الملك في ذلك ، ولم أسمع خاتمة هذين العرضين ، بيد أنه يقال إن زواجا آخر قد تم وقد تلهف على إتمامه كبير فرسان رودس نهاية عن إحدى بنات كونت أرجيل في أراجونه ، وهي أخت زوجة الأمير دوق «بدر» الوصي على عرش البرتغال ، وبدى لي أن المشروع الذي كان أدنى إلى نفوس أعضاء مجلس الملك هو الزواج بابنة دوق سافوي ، وأعتقد أن هذا هو المشروع الذي تهيا له النجاح^(٧٨) .

. . .

وملك قبرص ما زال شابا في السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، ضخم البنيان ، غليظ الساقين غلظا حتى ليكاد سمعها عند العقبين يبلغ محيطهما عند الفخذين ، ولكنه رقيق الحاشية ، على جانب كبير من الإدراك والفهم لا يتكافأ مع صغر سنه ، كما أنه شديد المرح ، قوى النية والتركيب الجسماني ، وهو أبرع ما يكون في ركوب الخيل ، ولو لم يكن بلده غير صهي لأسعدني أن أعرض عليه نفسي لتقيام بخدمته فترة من الزمن ، بيد أنه يكاد يكون من المستحيل على العريب أن يعيش في مثل هذا القطر المنكود ، فكانت هذه العوامل وغيرها تحتم على العودة إلى قشتالة للمساهمة في حربها ضد المسلمين ، ومن ثم اضطرت لتابعة رحلتي بأسرع ما وسعني الجهد .

عادت مدينة نيقوسيا وبلغت «سيرينا» حيث كان في انتظارى مركب
أعد لنقلى إلى رودس .

وسرى ما مدبنة قديمة أسسها أخيل وسميت باسمه ، وهى - رغم صغرها -
منيعه العباب محصنة الأسوار ، ولها مرفأ طيب وإن لم يكن بالكبير ،
وأمامه سلسلة تغلقه وتمنع الدخول إليه ، وتقوم على هذا المأمر حراسة قوية ،
وكان الملك قد هرب هو والكردينال وحمه والسيدة إينيس وكثيرون سواهم
إلى هذا المكان حيث وقع الملك جانوس فى الأسر ، ^(٢٩) وهو أصبح أصقاع
جزيرة قبرص حين تهب عليها الرياح الغربية ، وقد وجدت فيه سفينة تجارية
هى التى أمر الملك بإعدادها لنقلى إلى رودس ، وأخرى معها عملة بالتاجر ،
فغادرنا المرفأ ؛ حتى إذا كانت الظهيرة بلغنا طرف «رأس بينانى» ، وإذا ذاك
خرجنا إلى البحر عن طريق خليج «سانتاليا» للؤدى إلى تركيا ، غير أنه
قيل الساعة الثانية أبصرنا غراباً تركياً قادماً تجاهنا وفى نيته الاستيلاء علينا
وتحطيمنا ثاراً لإحدى سفنهم التى كان الكتلان قد أخذوها خارج ميناء
قبرص ، فنشرنا الشرع وأحملنا بكل قوارنا بالمجاديف ، وفعل الأتراك فعلنا ،
ولم نتراخ فى خلال ذلك عن الدعاء والصلاة ، ولكن أهدبنا كلت من
التجديف ، وكان معى بحار من إحدى الراكب الكتلانية قتل ابن أخى
الربان ، وقد حكم عليه بالشنق بصارية للركب ، إلا أن الحبل انقطع لتقل
وزنه ، فالتفت من الربان أن يهبى إياه سبوا وأن الرب قد فعل الكثير له ،
فقبل الربان طلبى ، وكان هذا وسيلة نجاةنا ، إذ كان هذا الكتلاى بحاراً
ماهرأ وأسرع بانقارب مخففا إياه عما عليه حتى استطاع الإقلاع قدما أحسن
من الأول ، إلا أن المركب الآخر الحمل بالبضائع لم تطرح شحنتها فأطأت

وراءنا ، حتى إذا كان وقت الغروب وقفت في قبضة الأتراك وأعرفوها هي
وجميع بحارتها .

وفي أثناء الاضطراب الذي أعقب هذا الحادث نور لدينا الوقت
لنزيد قليلا من المسافة التي تفصلنا عن العدو ، فلما شرع الظلام يمدد
طلبه على الأفق أشرعنا أكثر ما يستطيع إشرأعه من الشرع ، وأحدنا
أما كننا إلى جانب المجاديف ، ومملنا ماوسعنا الجهد ثم طوبنا القلاع حين
أرغى الليل سدوله ، واستدبرنا يميننا في هدوء حتى لا يسمع صوت المجاديف ،
وإذ ذاك سر الغراب التركي دون أن يرانا رغم أنه كان على مقربة كبيرة منا ،
وقال البحار إنه يفتنى علينا أن نغير وجهة سيرنا لأن الغراب لا بد وأن يرسو
في انتظارنا ، واعتقدنا صحة قوله لأن مركبنا كان صغيراً جداً ، وأننا في أيديهم ،
ومن ثم انطلقنا إلى عرض البحر ورأينا الغراب يدنو من الساحل ، وإذ
انصف الليل هبت الريح الجنوبية ، وأخذت الأمواج تدفعنا إلى الأمام تارة
وإلى الوراء أخرى ؛ ولكم كنت أوتر أن أقع في أيدي الأتراك من أن أغوص
في أحضان البحر ، وأرادوا مني أن أقذف بواحد من رجالى من على ظهر
المركب بيدينا دافعنا عن أنفسنا دفاعاً قوياً ، وإذ اندفعنا أمام العاصفة فقد اندفعنا
إلى « قشطل الروج » ووصلنا إلى هناك في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ،
ووجدنا أن الغراب التركي قد غادره قبلنا بساعتين ، فأرسينا هناك بمرقا صالح ،
وتسلقنا القلعة ، وأخذنا في الاستعجام بعد أن كسبت لنا النجاة من خطر كبير .
وقلعة قشطل الروج هذه في أيدي فرسان رودس ، وهي جزء من
ولاية أرمينيا رغم أنها جزيرة صغيرة صغيرة شديدة الوعورة ولا يستطيع أى حيوان
تسلقها ، أما عند السفح — عند الدخول إلى اليناء — فتوجد بعض ساحم
الملح التي تغلّ دخلاً كبيراً لفرسان رودس .

غادرنا جزيرة قشطل الروج وأخذنا سحمتا إلى رودس ونحن مازلنا في

خوف مقيم من هذا الغراب التركي، كما صادقنا جوارقنا، بيد أننا بلغناها في مدى يومين ودحنا الميناء، وذهبت أنا للإقامة مع الأخ « نينودي كابريرا » وهو فارس عظيم قشتالي للولد، كما أنه أحد فرسان القديس يوحنا وإن يكن أكثرهم جميعاً ثراء وأعظمهم شهرة، فقلقني بسرور زائد ومودة كبرى، وعاملني أئدى معاملة، وأحسب أنه لولا الرقعة التي أمدني بها لمت بعد ما تكبدته من الشاق، بل إنني ما كنت لأجد في بيتي الخاص أكثر تقوى أو أحسن خدمة مما وجدت عنده.

وفي غداة وصولي ذهبت لرؤية السيد الأكبر أنطونيو^(٨١) فلوفيان كبير فرسان الاسبتارية لأناوله الرسائل التي حلني إليها ملك قبرص إليه عن شئونه، وصحبي الأخ « نينودي كابريرا » وغيره من الفرسان القشتاليين والفرسان التابعين للأمم أخرى، لاسيما الفرنسيون الذين هم كثيرو التعلق بشعبنا، فلما وصلت إلى هناك وجدت السيد الأعظم وقد اشتدت به العلة شدة تدنيه من الخطر، وكان يشكو من آلام في الكبد، ولكنه سرعان ما أنقذ ردوده إلى ملك قبرص، فاستأذنته وعدت إلى حيث أقيم، وقد مات السيد في تلك الليلة من علته، وبينما كان يسالج سكرات الموت جاءه — كما هي العادة — القادة والمعرفون وقتة معينة من فرسان المجلس وسألوه بحق قسمه وبضميره أن يسمي لهم الشخص الذي يريد استخلافه من بعده رئيساً أعظم للفرسان، وأن يكتب اسمه ويختتمه بخاتمه حتى يبقى سرا؛ ثم أخذوا حظه ووضعوه في مكان أمين حتى لا يعرف أحد مضمونه سوى المعترف، وجرت عادتهم أنه إذا مات السيد عهدوا إلى قض الورقة المختومة، فإذا جاء وقت انتخاب خليفته عدَّ صوت السيد للتوفى — كما يقال — بصوتين.

دمن هذا السيد يوم وفاته في ساعة القدس ، وكانت للرأسيم الجذائزية تنفق وشخصه ، وحمل نعشه كبار الفرسان على أكتافهم وهو مجال بساط الرحمة الأسود ، وسار أمامه وخلفه ركب طويل ، أما الذين لم يقسن لهم الوصول إلى النعش فقد ضمتوا أيديهم إلى بعضها ، وكان السيد الأعظم مرتديا ملابسه كمعادته متقلدا سيفه ، وممازاه على قدميه ومسبحته في يده ، ودفعوه على هذه الهيئة ، ثم أسروا بعدئذ بفلق جميع الأبواب وأجلسوني في حجرة أو صدرها من الخارج ، وأعطوني طعاما للأكل ، أما رجالى الذين معى فقد أرسلوهم إلى المدينة مدثرين كالأوف عادتهم وقد تمنطقوا بسيوفهم جريا على سُمَتهم ، ودخلو الكنيسة لانتخاب الرئيس الجديد الذى يتم — كما يقولون — على هذه الطريقة .

وأخذوا من كل أمة من الأمم التى يتألف منها الفرسان ثلاثة أشخاص هم فارس وقسيس ورجل علمانى أراخ خادم ، ويوكل أمر اختيار هؤلاء الثلاثة إلى جميع الحاضرين الذين يبدأ كل منهم فى الاعتراف وتناول القربان ثم القسم على الآثار المقدسة التى عندهم بأنه سوف يقيم اختياره على أساس من الطيبة والصدق ، كما يقسم المختارون أيضا بأنهم سينهجون نهجا رائده الخير والحق فى من يقع عليه اختيارهم ، ثم ينتخبون ثلاثة عشر فردا من الذين يقومون بدورهم — باختيار سبعة يقسم كل منهم باتباع الحق ، ثم يسجل اسمه — دون أن يكلم زملاءه — فى ورقة مطوية ويضعها على مائدة أمام هذا للتعرف الذى — كما قلت — يملك بصوت السيد الراحل . ويتم هذا فى حضور جميع الفرسان ، وحينئذ يقوم للتعرف فيتلو الأسماء التى آثرها السبعة

واسم من رشحه السيد الأعظم ، ويثير صوت السيد - كما قلت - بصوتين ،
فن قال الأغلبية أصبح الفارس الأعظم .

بقى الجمع ملتصقاً طوال ذلك اليوم وكذلك الليلة التالية حتى الفجر ، وقد
اعتقدوا جميعاً - بل وقالوا - إن قائداً أعظم كان حاضراً هناك لابد وأن
يصبح السيد ، وأنه لم يكن تمت داع لإجراء إنتخابات ، وبهذا كان من
المؤكد اختياره ، وحدث قبل أن يطلع الفجر ساعة أن سمعت ضجة كبرى
دوت بها الكنيسة والمدينة ممّا وصحبها دق الأجراس وفتح الأبواب ،
فجاءوا إلى في حجرتي التي أغلقوها على وحلوني إلى الكنيسة ، وقد انتظم
الكل في اللوكب فجعلوني أحمل « ريشة » الجماعة إلى المذبح الكبير ،
وصاح الشخص الذي يحمل أسماء المنتخبين : « أدوا الشكر لله ، فإن سيدكم
هو من أهل أوفرن »^(٨١) ، وعلى الرغم من أن الظلام كان لا يزال سائداً
إلا أنه أمكن رؤية كثيرين وقد اصفرت وجوههم حسد وغيرة .

فما تم ذلك غادرا الجميع الكنيسة ، وكان النهار قد تبلى نورده ، فذهبنا بعدئذ
إلى مقر الجمعية وفتحوا الأبواب ، وانطلقنا إلى المدينة مع جميع الناس ووضعنا
الريشة على برج البناء ، وكان السيد الجديد فارساً قديماً قد أخلص في خدمة
نظامه وعلى جانب كبير من المصيلة ، فلما كان اليوم التالي تشاوروا فيما
بينهم وأمروا أن يبحثوا عنه ، ووصلحوا أربعة مراكب رحلت مبعة في الحال
شطر « أوفرن » حيث كان موجوداً ذلك السيد الذي اختير كبيراً
لفرمان الاستبثارية .

والواقع أن وقوع أى خطأ أو عيب في هذا الانتخاب يكون مدعاة

للدهشة ، ذلك لأنهم يقيمونه على أساس بعيد كل البعد عن التحيز أو
الصدقة أو الكراهية ، هذا إلى أن الجمعية موقرة جداً وجليلة القدر ، وهناك
كثيرون من أعظم الرجال الذين يكونون على الدوام مستعدين للدفاع عنها
وحمايتها وذلك أمر لا مناص منه لمجاورة القوم للترك من ناحية ولسلطان
مصر من ناحية أخرى ، ومن ثم كانت سلامة النظام وأمن الطائفة تتوقف
على شجاعة المدافعين عنه .

الفصل الثالث عشر

« السفر إلى القسطنطينية . غرق السفينة . القتال بين الكتلان »

« والجنوية ، وصول سفارتين من برنطة »

« بعض الجزر والمدن »

...

كانت هناك سفينة راسية في ميناء « إيفونا » برودس تعاقبت مع ربانها على نقل إلى القسطنطينية ، ومن ثم أبحرنا ووصلنا إلى جزيرة « ساموس » الواقعة في بحر الأرخبيل ، تاركين على يميننا قلعة « سنت بطرو » الموجودة في الأرض التركية الأصلية ، وعلى يسارنا جزيرة « كوس » التابعة لعرسان « القديس يوحنا » برودس ، ثم ركبنا سفينة تابعيناها سقرنا إلى جزيرة خيوس ، فلما بلغناها أخبرونا بأن السفن والأغربة التي جاءت من « الجمع » لحل إمبراطور اليونان إلى أودوبه قد ألقت مراسيها في ميناء خيوس ، فقررنا شرعنا وأبحرنا والجزيرة على يسارنا ، غير أن الريح لم تبحر بما نشئ مما أرغنا على إلقاء مراسينا بجانب الجزيرة وليتنا هناك تلك الليلة ، حتى إذا كان الصباح أبصرنا غرابين كبيرين يقتربان منا وبصحبتهما قاربان خفيفان ، فلما حاذونا أمرونا بالعودة إلى خيوس وإلا قاتلونا ، وما كان لنا إلا أن نستجيب لهم ولم نحص لهم أمرا أو تقاومهم ، وقد فعلوا هذا حتى لا نفق على سر ما يفعلون ، ذلك لأن الجنويين قد أخذوا هذه الأغربة وسلحوها قاصدين الذهاب إلى الإسكندرية لأخذ غرابين كتلانيين بها هما « كازاساجس » و « سوفينت » ، ومن ثم يكن لنا من حيلة إلا العودة بالسفن والرسو بالميناء ، وبقينا به طول اليوم ، فلما انتصف

الليل هبت عاصفة هوجاء ، وبينما كنا نكافح بلا أمل انفلتت مركبنا من الحبل وعلق بسفينة كبرى كانت النار قد التهمت من قبل وغرقت منذ وقت بعيد خلال الحرب التي كانت مشوبة الأوار بين البنادقة والجيوية ، وبقيت بعض أجزائها ظاهرة للعيان فوق سطح الماء ، فاصطلمت بها سفينةنا ونحطمت وسقطنا في اليأس ، وكان الوقت إذا ذاك نهائياً ، على أن البحارة الذين استبد بهم العزع من شدة هيجان البحر استطاعوا الوصول إلى الشاطئ بعد لآلئ مشقة ، أما أنا فقد بقيت — أثناء غرق السفينة — في الماء متشبهاً برمث طاف على سطحه ، وإذا ذاك أصدر بعض السادة الذين كانوا هناك (وهم نيكولا دي مينون والرهان وبعض الأساقفة والسادة الفرنسيون) أمرهم بإثقاذي ، لكن لم يجرؤ أحد على الأقدام على هذا المخاطرة ، غير أن بعض البشكس تناولوا قارباً صغيراً من أحد الأغربة وقدموا نحوي ثم عادوا إلى اليابسة ، وكانت الروح قد باغت التراق من الماء والبرد إذ كان الوقت عيد الميلاد ، وقد وجدت أسقف « فيزوا » بالبرنغال^(٨٢) فأخذني معه وقام بنجديني ، وهنا سمع السادة الفرنسيون مني نبأ موت كبير فرسان رودس ، ثم جاءت ثلثة من فرسان النظام ومعهم قائد الأخ الأعظم « بولاك » ، ولما هدأت العاصفة وسكن البحر أخذوا هذا القائد إلى رودس في أحد الأغربة وأصبح مارشالها ، وكان هو نفس الشخص الذي جاء برسالة^(٨٣) البابا إلى قشتالة ثم فقد فيها بعد إحدى عينييه ، ولم يكن فقد إياها حين قابلته ، وكان فارساً رائعاً جداً ورجلاً خفياً الشهرة .

بقينا في خيوس حتى نهضت الأغربة لقتال الكتلان حيث أبحرت إلى ميناء الإسكندرية فلما بلغته وجدتهم هناك ، وقد التحم الجمعان ، ويمكن الكتلان من إغراق إحدى السفن ، وأما الغراب الآخر — وهو أكبر من العريق

وأشد قوة منه - فقد كان للأسرى، وظل الفريقان يحارب أحدهما الآخر طول النهار والليل، والصلون يشاهدون القتال، فلما كان الفجر هبت من ناحية الريح طيبة فركب الكتلانيون البحر وانطلقوا، ولم يجرؤ الجنوبية على متابعتهم لما أدركوه مقدماً من الضرّة اللاحقة بهم إن اشتبكوا وإيام في قتال على أديم الماء، وحينذاك مضى الكتلانيون إلى رودس وعاد الجنوبيون إلى خيوس حيث كنا لانزال موجودين، ولما سحبتنا سفينتنا إلى الشاطئ أعدتنا ترميمها وإن فقدنا ما أوسقناها به من البضائع، كما ضاعت منى أشياء كثيرة جلبتها منى من الشرق، وأخذ السفراء سمّتهم وغادروا الليناء ومضوا إلى «الجمع» الذى كان منهقداً إذ ذاك وأرسوا في «نيس» بمقاطعة بروفانس، وكانت هذه السفارة إحدى ثنتين جاءنا لتقل إمبراطور اليونان للحصول على ثقافته مع «الجلس الكنسى»، وكانت سفارة بالغة الزينة والروعة مؤلفة من رجال أحسن القوم اختيارهم، غير أن خبر مقدمها ما كاد يترامى إلى سمع البنادقة ويروا التعامل الكبير الذى أثير ضد البابا أبوجين - الذى هو فى الأصل من أبناء تلك المدينة - حتى بعثوا بسفارة ثانية إلى الإمبراطور، والتفت السفارتان فى القسطنطينية وأشرعا السلاح تأهباً لقتال كل منهما الآخر، وحينذاك أعلن الإمبراطور أنه لن يمضى مع أى واحدة منهما اعتزاماً منه الرحيل على ظهر سفنه الخاصة، وسألها مغادرة بلده وعدم اعتراض سييله وإلا أضرب عن الرحلة وكف عن السفر، فاستعابا له، ومضى مندوبو سفارة الجمع الكنسى إلى خيوس، بينما اتجه البنادقة اتجاهاً خيل للناس معه أنهم يريدون المضى إلى البحر الأسود، ومع ذلك فقد تم الاتفاق بينهم وبين الإمبراطور، إذ ما كاد الأولون يرحلون حتى قدموا هم وأخذوا الإمبراطور فى مدى أيام قلائل وحملوه إلى ميناء البندقية^(٨٤) بإيطاليا.

أقمت في جزيرة خيوس هذه عشرين يوماً عابلاً بلا عمل أقوم به ، ثم شددت الرحال إلى تركيا مبتعداً كثيراً عن تلك الجزيرة حيث بلغت مكاناً يسمى « فوجافكيا » التي يقولون إنه أحد موانئ تركيا حيث توجد به جالية جنوبية ، وقابلت في هذا الليناء صديقاً لي كنت قد عرفت في إشبيلية ، وإذا كان يتمتع بشيء من النفوذ بين الأتراك فقد سأله أن يرسل معي أحد رجاله إلى طروادة وأن يستأجر لي جياداً ، فلبى طلبتي ، وصافرت عن طريق البر مدة يومين وصلت بعدها إلى مكان يزعمون أنه طروادة ، بيد أنني لم أجد أحداً ما تمكن من إمدادي بآية معلومات عنها ، ثم جئنا إلى « إيليام » كما يسمونها وهي بقعة بحرية مواجهة ليناء « نيلدوس » ، ويزدحم هذا القطر بأجمعه بالقرى التي يأخذ بعضها بحجز البيض الآخر ، ويعتبر الأتراك الباني القديمة آثاراً لا يصح أن تمتد إليها يد المدمر ، ولكنهم يقيمون منازلهم بحوارها ، وكان الذي جعلني أعرف أن هذا المكان هو في الواقع طروادة القديمة هو منظر مثل هذه الباني المظلمة الدائرة وكثرة الرخام والأحجار ، وكذلك هذا الشاطئ وقد أطلت عليه من الجهة المقابلة ميناء « نيلدوس » وقيام تل كبير كأنما هو أثر لمصرح مشعر قد هوى ، ولم أستطع معرفة شيء أكثر من ذلك فعدت إلى خيوس حيث ألقيت سفينتي قد أعيد ترميمها بصورة مكنتنا من الإبحار في مدى يومين .

وتنل جزيرة خيوس هذه كيات كبيرة من الصمغ ، وقد سكنها الجنويون الذين سلبوها من الفرسان ويسمى حكامها أنفسهم بالمايونيز^(٨٤) ، ولما كان هؤلاء الفرسان عاجزين عن الدفاع عن ذلك المكان فقد ارتضوا دفع الجزية للجنوبية الذين يرفعون عليهم هناك والذين هم في حاجة إلى هذه الجزيرة في رحلاتهم إلى سواحل الشام وإلى التردنيل .



غادر المكان وركبنا البحر، فأخذتنا من كل جانب عاصفة هوجاء أصابت
الركب بعط كدير ما لبث الملاحون أن تداركوه — وهم يارعون كل الراعة
في هذا الفن — فبدلوا جهدهم حتى أصلحوه على خير وجه ممكن، ومن ثم سافروا
تاركين على يسارنا جزيرة «ميتلين» وهي في حوزة الجنوبيين أيضاً، وثبنا
برأس «سنت ماريا» وبلغنا جزيرة «تينيدوس» فألقت السفينة مراسها وغادرناها
إلى البر.

وفي أثناء إصلاح المطب الذي ألم بالسفينة مضينا قدماً لمشاهدة
الجزيرة التي كانت تبلغ مساحتها قرابة ثمانية أميال أو تسعة، وهي مائة بالأرب
البرية، وتزخر بساحات الكرم ولكها جميعها قد فسدت، وتبدو ميناء
تينيدوس حديثة البناء حتى لكأنما قد شيدها اليوم حذاق، وقد رصفت بالأحجار
الكبيرة وقامت بها الأعمدة الضخمة، وهنا تجد السفن خير مرقأ لها، ورغم توفر
أمكنة أخرى صالحا لسوء السفن إلا أن هذا الميناء هذا هو أصلحها كلها لوقوعه
تجاه مدخل مضيق المردنيل.

وبطل على الميناء قل كبير قد علته قلعة شديدة الحصانة كانت فيما مضى

سبب كثير من النزاع الناشب بين البنادقة والجنويين، مما حل البابا على
الأمر بهدمها حتى لا تكون في يد أحد الفريقين، غير أن هذا العمل كان بلا
شك أبداً ما يكون عن محبة الصواب لأن الميناء من أحسن مرافئ العالم،
إذ لا يأتى لسفينة ما أن تدخل المضيق دون أن تلقى مراسيها أولاً هناك لتقلس
المدخل لشدة ضيقه، ومن ثم فإن الترك الذين يعرفون كثرة عدد السفن التي تصل
إلى هناك يسلمون أنفسهم ويتربصون تمت بالسيحين ثم يثبون عليهم فيقتلونهم.
ومن هنا يستطيع المرء مشاهدة كثير من مبانى طروادة، كما أن جماعة معينة من
الإغريق الذين يعيشون هناك يقومون بنقل الأخبار عما يجري في ذلك المكان.

رحلنا في اليوم الثاني، ووصلنا المضائق الشديدة الضيق، وتقسّم للمياه في الجانب التركي شدة الضحوة، وتسمى هذه المضائق بالتردد نيل، وهنا يوجد باب طروادة وميماؤها، أما مياه الشاطئ اليوناني فشديدة العمق، ويقوم به رج « فيغبريو » حيث وجد أخيل مع « باتروكولس » أو كما يقولون هكذا كان يراد. والمضائق في هذا المكان صيقة جداً مما يسر على المرء في اليوم الصفر أن يشاهد راية منصوبة على الجانب الآخر، وهكذا تابعنا السير عبر هذه البرازخ وختمنا بعض المدن على الجانبين التركي واليوناني، ووصلنا إلى مدينة جاليبولي، وهي مكان بدعي ومرقاً جيد ذو قلعة رائعة، وكان هذا أول ناحية استولى عليها الترك حينما اكتسحوا اليونان ولم يهدموا الحائط والقلعة بل تركوها قائمين - وهما لم يفعلوه في أية بقعة أخرى - حتى إذا حدث ودارت عليهم الدائرة استطاعوا النجاة.

...

غادرنا جاليبولي وجئنا إلى بحر «مرمر» وهو عبارة عن بحر دائري داخل الأرض يبلغ عرضه قرابة ثمانية فراسخ، ويسمونه «مرمر» لأنهم يجاهدون منه إلى القسطنطينية كل الرمر الذي تحتاجه وأسوارها، وهذا البحر في يد الإغريق، ومن هنا وصلنا إلى بلد يدعى «أريجلي» وأخرى يسمونها «سفرها» وهما المكانان اللذان سمح الترك للإمبراطور أن يبقيهما في يده في الأزمنة السالفة عطفاً عليه ولماوته لم.

وفي رحيلنا في فجر اليوم التالي رأينا جيلاً شاهق الارتفاع يبعد عنا أكثر من مائة ميل، وأخبرونا أنه جبل القديسة صوفيا بالقسطنطينية، وجئنا إلى مكان يبعد قرابة ميلين عن المدينة حيث قضينا به ليلتنا تلك، وفي الصباح التالي أرسلت

القارب إلى مدينة بيريه لأقصى بنياً مقدسى إلى ربان إحدى السفن واسمه «جوان كارو» وهو من أهل أشبيلية ومن أصدقائى الخلق وأعرف أنه موجود هناك فى بيريه، فقدم هو وأصحابه فى زوارقهم لتحتيى، وأردت أن أتوجه فى الحال لأقدم احترامائى للإمبراطور، غير أنهم ألحوا على كثير أقاتلين إننى أجلبهم بالمار إذا لم أذهب أولاً إلى بيريه حيث توجد دورهم، وأنه هذا واجب يتحتم على أدائه، فزلت أنا ورفائى فى قوارب القشتاليين، وجاءت سفينتنا معنا ودخلنا ميناء القسطنطينية وغادرناه، ومضينا فى سبيلنا ثم أرسينا عند رصيف «بيريه»^(٨٦) وهو من أحسن الأرصفة فى العالم، وتستطيع أية سفينة - مهما كانت ضخامتها - أن ترسو هناك فى ميناء عميقة صافية، وأن تلقى بسلامها على اليابسة، فأرست فى محبة القشتاليين وكذلك مع أصدقاء آخرين من أمم مختلفة وذهبنا لأداء الصلاة بالكيسة، ووجدت الوالى البيزنطى الذى يحكم المكان فاستقبلنى استقبالا طيباً، مستفسراً إياى عن أخبار الغرب، وقرر أن كل ما أحتاج إليه لا بد وأن يجاب فى الحال، ومن ثم رحلنا، فأقمت مع الربان القشتالى حيث أقيمت استقبالا غنياً فى الواقع، وحين وصلت إلى هناك أقيمت هدبة ضخمة من النبيذ والطيور أرسلها إلى الوالى .

وفى اليوم التالى قدم لروبنى القشتاليون المقيمون فى القسطنطينية وبيريه، وتذكرت منهم جماعة رأيتهم فى قشتالة ومن بينهم «ألقون دى ماتا» وصيف مولانا «دون جوان» حفظه الله، فالتفتنى أن أقدمه إلى إمبراطور طرايزون لأنه كان قد قدم مع سفراء الجمع الكنسى وإن كان قد غدى الآن فى مؤخرة القوم، ثم تحدثت مع الإمبراطور^(٨٧) رغم أنه هو الآخر قد أصبح غير ذى موضوع، فقد نقي من وطنه مع أخته إمبراطورة القسطنطينية فقيل رجائى وأخذ من رجال حاشيته، وأعطانى فى نفس اليوم قوساً وسهماً لازلت محفظاً بهما .

الفصل الرابع عشر

القسطنطينية . الإمبراطور يوحنا مايولوجس . أسرة طامور .

قصة الحرب الصليبية الرابعة . استئصال طامور

في اللاط . مفادرة الإمبراطور إلى أوربة .

. . .

بعد أن أقيمت مدة يومين مستعجماً ذهبت لأداء مراسيم الاحترام للإمبراطور القسطنطينية وبصحبتي جميع القشتاليين ، وارتدبت أحسن مالدى ، وازبنت بشعار فرسان « إسكاما »^(٨٨) وهورنك الملك جوان ، وأرسلت في طلب أحد مترجمي الإمبراطور ويسمى « جوان الأنيل » القشتالى المولد ، ويقال إن الإمبراطور قد اختاره مترجماً لأنه كان ينشد له على الأرغن أغنيات قشتالية .

صحبني المترجم إلى القصر الإمبراطورى ، وذهب ليعلن إلى الإمبراطور خبر قدومى لرفع فرض الاحترام الواجبة له ، وأبقونى فى الانتظار مدة ساعة بعث الإمبراطور خلالها فى استقدام بعض الفرسان واستعد لتقابلتى ، ثم دخلت القصر وبلغت ردهةً أصرته فيها جالساً على عرش وقد بسط تحت قدميه جلد أسد^(٨٩) ، وهناك أدبت فروض الاحترام للإمبراطور وأبأته أن يجيئى إماماً كان يقصد رؤيته ومشاهدة مملكته والتعرف على بلاده وكبار رجالاته ؛ وإن كانت حلة حضورى الأولى رغبتى فى استثناء حقيقة سبى الذى أنبئت عنه أنه نيم فى الأصل من هذا المكان ، وأن لى عرقاً يمت لعرقه الإمبراطورى وشيعة القرى ، وشرعت فى إخباره عن الطريقة التى قيل إنها سارت عليها ، فأجانبى فى الحال ما نيتى واجد كل ترحيب ، وأنه مسرور جداً لرؤيتى ، أما عما حدثته عنه بشأن أصلى فقد أمر

ياحضار السجلات القديمة حتى يتضح الحق الصراح عن كل شيء ، وسألتني عن أخبار البلاد المسيحية وأسمائها لاسيما فيما يتعلق بمولاي ملك أسبانيا وعن دولته وحرره ضد الغاربة ، فأفصيت إليه بكل مالدني من المعلومات ، ثم استأذنت منه في الانصراف ودللت إلى حيث أقيم .

وفي اليوم التالي بحث في طلبي سائلا إياي أن أمضي للصيد، وأرسل الجياد لي وإن معي ، ففضيت في صحبته وممنا شريكته الإمبراطورة التي كانت موجودة إذ ذاك ، وأخبرني يومئذ أنه وقف على الأمور التي أردت الاستفسار عنها، وأنه سها مرحين عودتنا من الصيد بأن يخبروني عن كل ما يتعلق بها فشكرته، فلما كان المساء أبنأ من صيدنا وترجلنا عن حيادنا، وأرسل هو بطلب أن يمثل في حضرته أوائلك الذين كلّفهم بالبحث عن استفار آتي ، فلما جاءوه قالوا إنه حدث في القديم (ولا أذكر الوقت بالضبط) أن أحد أباطرة القسطنطينية بحث في أنحاء بلاده أمراً يقضي بأن يدفع النبلاء الضرائب ، وأن يؤدوا ما عليهم من الالتزامات والخدمات، وأن يقومون بإنجاز ذلك كله شأنهم في هذا شأن العامة ، ونظراً لأن هذا العمل قد عدّه النبلاء إساءة لهم وافئأنا على حقوقهم فقد بحثوا الأمر مع ابنه الأكبر وورثته ، وأغروه بالوقوف في صفهم والتحدث إلى أبيه الإمبراطور في وحبوب نجذب كل مامن شأنه أن يترك وراءه ذكرى كريهة واسماً بنيفضاً ، ذلك لأن اقتراحاته في هذا الصدد كانت ضد النظام والعدالة ولن تؤدي بالنبلاء إلا إلى إرغامهم على حمل السلاح ضده ، وهو سبيل لا مناص لهم من السير فيه إذا ما أصرّ على تنفيذ أغراضه السيئة ، فاستمع الأمير إلى شكوى النبلاء ووعد أن ينزل كل ما وسعه جهده ، وعرض إلى أبيه الإمبراطور متحدثاً ومتوسلاً إليه أن يمنعه كرمه من عمل هذا الفعل ضد نبلاء

البلد الذين يمدونه بالحاكم، لاسيما وأسمهم هم الذين يمينونه في مهامه ويحتونه ، هذا بالإضافة إلى أنه عارضته إياهم يدفع بيلاذه إلى خطر جسيم ومشقة كبرى ، ثم حذره من أنه سيجد نفسه في النهاية عاجزاً عن فرض إرادته عليهم ، فلما صك هذا الكلام سمع الإمبراطور تأجج عيظاً واستشاط غضباً على ولده الأمير ، وطرده من قصره ، ورحل بنفسه — كما يقولون — إلى مدينة أدريا نوفل التي هي اليوم مقر جيوش سلطان الترك وبلاطه ، فلما وصل إلى هناك كان نأ هذا الأمر قد تردد في شتى نواحي الإمبراطورية ، وسرعان ما شبت ثورة عارمة حول لواءها جميع البلاد وأتباعهم ، ونكاتفوا فيما بينهم فصاروا كلهم بلداً واحدة وجملوا الأمير على رأسهم ، ثم قدموا بجيش ضخم إلى القسطنطينية حيث كان الإمبراطور ، واستمرت هذه الرحلة خمسة أيام تقريباً ، فلما علم الإمبراطور بذلك خرج وعسكر بمجمع رحاله ورتبت الصفوف الواحد تلو الآخر ، فأرسل الأمير مرة أخرى بكتس من أبيه ألا يكون سبباً في مثل هذا الجرح الدامي والحراب الكبير وإلا فلا سبيل أمامه إلا محاربته إياه ، فأرداد غضب الإمبراطور عن ذي قبل قاتلاً من الأمور يجب أن تسير الآن كما هي ، وأنه مصمم على ما اعترم ، وجاعل الأمير ومن معه بدفمون حياتهم ثمناً لذلك العمل ؛ فلما رأى الأمير إصراره ، وأن الحرب موشكة على الاندلاع ، إتفق مع أبيه على أن يمضى الإمبراطور إلى القسطنطينية وأن يرجع هو نفسه « إلى أدريا نوفل » وأمهما حينذاك لا بد أن يصلا إلى شروط ، وفعل الأمير ذلك تحذو الرغبة في تجنب محاربة أبيه وقتاله ، واتفق الجانبان على ذلك ، وعاد كل إلى مكانه .

والآن وقد رأى الأمير أن لاسبيل سوى الحرب لهض لاشككة فقد اتصل بأحد الأمراء وهو أخوه ، وحبب إليه الوقوف إلى جانب الشعب قاتلاً له إن

الرب لن يمسه بأذى لخاريته أمه ، وإلا فالأجدى له ألا يقيم ببلد يقع فيه مثل
 هذا الأمر ، ومن ثم غادره إلى إسبانيا ، وبيع قشتالة في الوقت الذي كان
 الحكم فيه بيد دوق ألفونسو الذي غرا طليطلة ، والذي يسميه البعض
 بألفونسو دي اليد اللدبية ، وفي هذا المكان الجديد عُرف الأمير باسم « كونت
 برو » ، وأحب إبتاعه دوق « إستيفان إلان » ، فلما رأى البلاء اليونان
 أنفسهم وقد حرموا من قائد كهذا القائد — لأنه كان فارساً عظيماً — ولأنه
 أثبت براعته بكثير من الأعمال الدالة على الروعة في السلاح سواء في إسبانيا أو
 قبل رحيله إليها فقد أخذوا أحياه الأصغر — رغم أنه كان لا يزال شاباً — وقبلوا يده ،
 ونادوا به إمبراطوراً على بلاد اليونان ، ثم ورحلوا به من مدينة أدريا نوبل بجميع
 رجالهم المساحين ، وزحفوا على القسطنطينية قصد إجلال هذا الشاب على
 العرش الإمبراطوري ، فلما أنبىء الإمبراطور بذلك فعل ما فعله من قبل ،
 فخرج من المدينة لصدتهم ولم يكن تمت مندوحة عن القتال ، غير أنه غلب على أمره
 وحاققت به الهزيمة ووقع في الأسر ، وقتل كثيرون من رجاله وأخذ البعض الآخر ،
 ودخل البلاء المدينة دخول الظافرين ، وأجلسوا على العرش الإمبراطوري
 مولاهم الأمير الصغير الذي استقدموه معهم ، وأقاموا حرساً قوياً على أبيه
 الذي ما لبث أن مات بعد أيام قلائل من مرضه ، وبقي الأمير بحكم
 الإمبراطورية في هدوء ، وجبّ القوايين التي فرضها أبوه ، وسنّ أخرى منح
 بها البلاء حقوقاً أكثر من تلك التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، ومن ثم
 يقال إنه لا يوجد في أي بلد من بلاد العالم مثيل للحرية التي يتمتع بها البلاء
 في اليونان ، وأنه ليس هناك من رعية أكثر خضوعاً من اليونان الذين هم في
 الواقع رقيق لطبقة الأشراف ، غير أن خطايا المسيحيين أدت إلى إصابة الرعايا

والنبلاء على السواء بالعبودية للؤلؤة نظراً لأن ساداتهم أصبحوا من انبراء أعداء الإيمان.

* * *

أما الأمير الآخرفانه لما جاء إلى قشتالة احتفى به القوم احتفاء كريماً، وتلقاه الملك بالندشريف العظيم، ويقال إن الملك كان يتأهب في هذا الوقت لشن الحرب على المسلمين، فزوج الأمير من إحدى إخوانه الشرعيات، وأبقى إليه بمقاليد حكم المملكة أثناء حروجه للحرب، ويقال إنه كان فارساً شريفاً، شديد البأس، بالغ الصراحة، غاية في العظمة، وسوره «دون بريلان»، ويقولون إنه دخل طليطلة وأقام الملك بها، وزيادة على ذلك فإنه هو الذي استرد المدينة وردّها إلى الطاعة حين جاهرت بالمصيان ونارت، فخارب العصاة وقهرهم، ويقولون أيضاً إن هذا هو السبب الذي كافأه من أجله أهل طليطلة بكل هذه الامتيازات التي لازال مواطنو طليطلة يتمتعون بها حتى يومنا هذا، ولما مات دفنه القوم في كنيسة الملوك القدماء في طليطلة، وحلّوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته، وهي ذات الأسلحة التي يحملها أقوى الفرسان وأجودهم «دون فرناند الفارس» الطليطالي كونت «ألبا» لأنه متعذر مباشرة من صلب هذا الأمير اليوناني الذي جاء إلى قشتالة، كما أنى أيضاً أهل نفس هذه الأسلحة لأننى أميت إيرق إلى هذه الأسرة، وأن «دون بيرو روز طافور» الذي دوى اسمه في الاستيلاء على قرطبة كان حفيد كومت «دون إستيفان إلان» الذي هو ابن حفيد الأمير «دون بريلان» الذي أتكلم عنه، وربما كان من الملائم — أن أروى — نقلاً عن تاريخ قشتالة — كيف أن الكثيرين منهم — ابتأ عن أب — قد تسللوا

من هذا النسب حتى الآن ، وإذا كنت أحمل القاريس رنكاً على شعارى
فقد جاء ذلك عن طريق الزواج ، وقد اختلعت القرارى فاختلعت الأساحة
بعضها ببعض .

وما رقت على كل هذه البيانات سألتُ الإمبراطور عما يحول بينه وبين
حل هذه الربوك التى جرت عادة الأباطرة فيما مضى على حلها ، وأعنى بها
أساحة أمرتى ، فأخبرونى بأنه حدث منذ قرن أو قرن ونصف من الزمان
- وربما كان أكثر من ذلك - أن جهاز البنادقة أسطولا^(٩٠) ضخماً هزمه قادموا
لمساعدة الإمبراطور ضد الترك ، حتى إذا قاموا به إلى القسطنطينة أحسن الإمبراطور
وجميع اليونان لقاءهم ، فراح البنادقة يقيمون فى شتى رحاب المدينة ، لكن
بظهور أنهم كانوا قد دبوا خطة أخذوا فى تنفيذها لأنهم انضموا إلى الأهلين
فى ثورتهم ضد الإمبراطور وحاربوه معهم ، وتحت المزيمة على الإمبراطور
بعدم توقعه هذه الخيانة ، وجمعوا فى إخراجهم من المدينة وقتل الكثيرون ،
فهرب الإمبراطور إلى «اللورة» التى كانت تسمى قديماً «أخابا» ، وهى إمارة
من إمارات ورثة الإمبراطورية ، واحتل البنادقة المدينة وغلوا بها سهمين
عاماً كاملاً ، ونهبوا كثيراً من الآثار للقدسة التى حملوها معهم إلى البندقية
والموجودة بها حالياً ، ومنها حمان القديسة هيلينا والقديسة مارينا وغير ذلك
كثير ، كما أفسدوا عدداً كبيراً من المباني الرائعة ، وحملوا معهم عمودين كبيرين
كبيرين أقاموا عليها تمثال حاميهما القديس على شاطئ البحر ، وهما باسقان
كالبرجين ومحفوظان حفظاً جيداً حتى ليصعب التصديق أنهما قد قُلا من
قبل^(٩١) ، ويوجد فوق باب كنيسة «القديس مرقس» أربعة جياذ محاسبية
ضخمة قد عشيبت بطبقة كثيفة من الذهب ، ويوجد أيضاً حجر الشب والرخام ،

وهذه كلها مما أخذوه من القسطنطينية أثناء احتلالهم إياها ، بل لقد كانوا على وشك نقل الحكومة من البندقية إلى القسطنطينية ، ولم يُقَدِّم عن تنفيذ هذه الية سوى نصيحة شيخ طاعن في السن نهاهم فيها نهياً مطلقاً عن معاداة الدسة التي وثبوا معها على جميع المدن الأخرى .

وفي أثناء احتلال البنادقة للقسطنطينية^(١٢) مات الإمبراطور وكذلك ولده ، ولم يبق سوى حفيده الذي تزوج إحدى بنات ملك المجر وأصبح فارساً قديراً ، فواعد أهل القسطنطينية والإقليم المحط بها على يوم يشعرون فيه جميعاً ، وأنه سيكون متأهباً بكل ما يستطيع جمعه من قوة لإنقاذ المدينة ، وإذا أخذ المدينة آل إليه كل شيء ؛ فكان ماتم الاتفاق عليه .

فما كان اليوم الموعود تار الناس ضد البنادقة وحصروهم في مكان واحد في المدينة حتى لا يستطيعوا بلوغ سفنهم ، وانفذوا في طلب الأمير الذي دخل المدينة وأعمل القتل والأمر في جميع البنادقة وترجع على العرش الإمبراطوري ، ودخل الناس عليه أفواجا متباين يده ومنادين به حاكما عليهم ، وأصابوا غنيمة كبيرة من البنادقة ، كما تسلموا فدية مالية ضخمة منهم ، أما هو فقد ساد حكمه المدوم ، ويقال الآن إن هذا الإمبراطور الذي استرد الإمبراطورية وتولى مقاليدها لم يستطع أحد ما أن يحمله على التخلي عن الأسلحة التي كان يحملها سابقاً ، التي كانت ولا تزال على شكل حلقتين متصلتين ببعضهما بعض ، وعجز السكل عن إرغامه على حمل الأسلحة الإمبراطورية الخاصة بالعرش ، وكانت حقيقته على الدوام أنه كسب الإمبراطورية وهو يحمل هذه الرنوك ، ولا يوجد شيء مطلقاً يستطيع حمله على التخلي عنها ، ومن ثم بقيت حتى اليوم على ما هي عليه ، ومع ذلك فلا يزال في الإمكان حتى اليوم رؤية الأسلحة القديمة على

أبراج المدينة ومبانيها وكنائسها ، ولا يزال الأهالي — حين إقامتهم عماثرهم الخاصة — يصنعونها عليها .

فقد سمعت ذلك أصررت على أنه يتحتم على الأناطرة حمل هذه الأسلحة طالما هي أسلحة الإمبراطور الحقيقية ، زد على ذلك أنها هي الرمز الذي يؤيد السلطة وليس الأشخاص الذين استردوها ، لاسيما منذ أن استعاد الأهليون المدينة ونصبوه حاكما عليهم ، فأجاب الإمبراطور على ذلك بأن للسألة لا تزال موضع أخذ ورد بينه وبين شعبه ، فلما وقعت على خبر ذلك كله أفضيت إلى الإمبراطور بما حدث في إسبانيا ، وأخبرني هو بما حدث هناك .

هذا كل ما استطعت الوقوف عليه عن خبر هذه الأسلحة وما آل إيلها أمرها .

ومنذ ذلك الحين أخذ الإمبراطور في مماثلتي بود عظيم كشخص تحرى في عروقه نفس الدماء التي تحرى في عروقه هو أيضاً ، وتمنى صادقاً لو بقيت في بلده وتزوجت واستقرت في المقام حيث أنا ، والحق أنني فكرت في مثل هذا العمل نظراً لما رويته من قلة سكان المدينة وحاجتها إلى الجنود الأقوياء ، ذلك لأن البيزنطيين يقتلون أئماً بالغة القوة ، وقد وجدت بالمدينة في خدمة الإمبراطور كثيراً من القشتاليين وجماعات من الأمم اللاتينية الأخرى ، وقد أبدوا لي — طيلة وجودي هناك — كثيراً من التبجيل والتقدير .

وفي ذلك النهار تقدم أحد فرسان الأسرة ممن كانوا يوحدون هناك ودعاني لتناول العشاء في اليوم التالي فوعده بإجابة سؤاله ، فلما انقضى القداس يمت شطر بيته حيث ألقيته في انتظارى وتناولت طعامي معه وقد منى لزوجته وأبنائه ، وعاملوني معاملة تنطوي على الصداقة الخاصة ، فلما انقضى العشاء صرف كل من كان حاضراً وذهب إلى حجرته ولبس قميص « إسكاما » وهو شعار مولانا الملك ، ثم دخل على وحادثني بالقشتالية ،

قائلاً : « أيها السيد الفارس ، مرحباً بك ، هاهو ذا بيتي بكل ما فيه رهن
إشارتك كما لو كنت أخي ، فلقد حباني ملكك بالشرف السامي والمنافع الجمة ،
كما لقيت كرم الوفاة من فرسان بلدك ، وإذا كنت قد أمسكت حتى اللحظة
عن محادثتك بلسانك بين الناس فردّه إلى أننا نرى العيب في التخلي عن
اعتنا واصطناع لغة غريبة عنا ، ومع ذلك فنظراً للحب العظيم الذي أكنّه
لشعبك ولك فقد آليت على نفسي — حين يكون على انفراد — أن أجعل
نفسى ، ذلك قشتالياً في كل شيء . » ومنذ تلك الساعة عاملنى هذا الفارس
بمنتهى الاحترام ، واستقدم إحدى إخوانه إلى — وكانت امرأة بارعة
الجمال — قائلاً إنه يتعم على — طول إقامتى هناك — أن أعاملها كصديق
أحترمه ثم زكّاني لديها ، والواقع أننى اعتقد أنه كان يرغب في أن أتزوجها ،
ولقد منعتنى هذه السيدة أشياء كثيرة ، منها حيوانان أحدهما معى إلى
قشتالة ، أعطيت أحدهما إلى الملك واستهيمت الآخر هندي .



وفي هذا اليوم بعث الإمبراطور إلى داعياً إبائى للخروج للصيد ، وعدنا
بكثير من الأرانب والحجلات والدراج وغيرها من الطيور التى تكثر هناك
كثرة هائلة ، فلما رجعنا إلى القصر استأذنت في الانصراف وذهبت إلى
محل إقامتى حيث أمر الإمبراطور بترويدى بكل ما أتاى حاجة إليه ، ولا شك في
أن رغبته قد انصرفت إلى إحاطتى بالشرف وإغداق المنح على ، وراح هو وشريكه
الإمبراطورة منذ ذلك اليوم — إذا أرادانى مصاحبتهما وحاشيتهما في الخروج
للصيد — يثا إلى الجياد ذكرين مام واجدوه من متعة كبرى في مصاحبتي إياهم .
وبعد انقضاء خمسة عشر يوماً على زيارتي للقسطنطينية ، رحل الإمبراطور في

الأغربة البندقية لمقابلة البابا ، وألح على كثير أن أرافقه ، ولكن بودى
لو فعلت ذلك لولا أنني كنت مضطراً لأن أرى أولاً بلاد اليونان وتركيا وكذلك
بلاد القسطنطينية ، وما رأى عجزه عن إقناعي بما يريد أوصى بي زوجته الإمبراطورة
وأخاه «دراجس»^(٩٣) - وكان وريثه في العرش الإمبراطوري ، وقد قتله الأتراك
بعد ذلك - وما فر الإمبراطور في أبيه عظيمة ، ورافقه في سفرته هذه إثنان من
إخوته وثمان مائة رجل من الأشراف ذوي اللكافة الرفيعة ، وأقيم احتفال
عظيم يوم رحيله^(٩٤) واستظم كل واحد في موكب من مواكب الجمعيات
الدينية ، وتلاقى الجميع عند مكان ركوب السفينة ، كما أن فئة كبيرة ركبت
البحر مسيرة سفر يوم إلى جوار الأسطول وكذلك فعلت أنا فعلهم ، ثم
استأذنت وعدت إلى القسطنطينية ، غير أن الإمبراطور أجازني كلها وقال
إنه لو كان معي رجالى لما أذن لي في الرجوع ، ومن ثم تركته ، وسألتني أن
أزوره قبل عودتي إلى وطني ، فوعده وأنجزت ذلك الوعد فيما بعد .

الفصل الخامس عشر

أدرينوبوليس . وصف السلطان الثاني .

البحر الأسود . الوصول إلى

طرايرون

...

حين عدت إلى القسطنطينية استأذنت من الطاغية دراجس -- بمثل
الإمبراطور إذ ذاك -- في الذهاب إلى أدرينوبوليس التي هي أعظم مدن
اليونان قاطبة باستثناء القسطنطينية حيث كان الترك قد حشدوا بها جيوشهم ،
فبعث الطاغية في طلب فئة معينة من التجار الجنوبية الذين كانوا بها وأمرهم بأن
يدبروا إلى إمكان رؤية السلطان التركي ودولته وشخصه وأن يضمنوا سلامة عودتي ،
وحدث أن كان قد وصل أحد هؤلاء التجار وكان أميراً جداً لدى
الطاغية كما كان في الصميم من ثقته ، فقبل هذا التاجر -- إستجابةً لخاطره --
أن يحملني معه ويطلقني على كل شيء ، فرحلنا في مدى ثلاثة أيام سالكين
الطريق المؤدى إلى بلاد اليونان ، مازين ببعض أماكن معينة صغيرة لا حاجة
لوصفها هنا ، حتى بلغنا « أدرينوبوليس » بمدرحلة استغرقت تسعة أيام ، فأقمت
مع الجنوى في بيته الذي كان بالمدينة ، وبعث السلطان التركي في طلبي مسافراً
معي عن وقت رحيل الإمبراطور وكيفية سفره وهيئته وفي سفن من ، وبينما
أنا أفنى إليه بخبر هذه الأشياء تسنى لي رؤيته ورؤية حاشيته وشعبه ، وكان
يبدو عليه أنه يناهز الخامسة والأربعين من عمره ، كما كان حسن البنية مليح

القطا طبع ، تدل هيئته على الفطنة ، ذا نظرات صارمة ، ونحوه حاشية رائعة لم
يَقَاتَ لى قط أن أرى شبيها لها ، إذ كان معه جميع قواته التى تبلغ ستائة ألف
راكب ظهراً ، وإبنى لمشير إلى أولئك الذين أمدوني بهذه اللومات حتى
لا أبدو مغالبا فى ما أروى ، والحق أنى أخشى أن أعيد كل ما أبأونى به ، فلا
يوجد قط أى ماش فى أرجاء بلده ، بل يمتلئ الجميع صهوات جياد ضامرة
بالعة الصفرة .

وبقيم السلطان العثمان وقومه على الدوام فى معسكرات بالميدان : سواء
أكان الزمن صيفاً أم شتاء ، وعلى الرغم من شدة قرب المدينة منه إلا أنه
لا يدخلها إلا إذا كان فى صحبة حريمه للاستحمام : الأمر الذى تهيأت لى رؤيته
بفضل معونة الجنوى . فقد ذهب السلطان للحمام تراقه الطبول والموسيقى
وبين يديه المذشدون يفتنون ، وفى صحبته حشد كثيف من النساء اللاتى يقال
لهن جواريه وعددهن ثلاثمائة أو يزيد ، وكان لدخولهم المدينة ضوضاء
شديدة وجلبة صاحبة ، وظلوا مقيمين بها حتى منتصف الليل حين آب السلطان
التركى إلى معسكره .

فلما كان اليوم التالى خرج السلطان للصيد ، فرتب لى الجنوى أسره الذهاب
كذلك ، فكان هناك أناس كثيرون على ظهور الجياد يبرزهم وصقورهم وكلاب
الصيد المعلقة وكافة أدواته ، ومن عادة الترك أن يحملوا فى المخرج خطافاً
حديدياً ، ومعهم طبول الصيد وفى جبايهم القسي ، ولما كان القطر بارداً
وغالداً ما يعمه الحمايد مما يسهل معه سقوط الجياد فإن الرجال يلبسون على الدوام
أحذية قوية جداً من الخلد الدمشقى تصل إلى ركبهم ، وتثبت بها المهاميز ،

فإذا كبا الحصان استطاعوا تخليص أرجلهم دون أن تجرح وتبقى الأحذية
في الركاب .

ويوجد هنا كثير من الطيور والبزاة وحتى أنواع الطير الموجود مثلها
في إسبانيا .

ويتدثر الرجال على أسلوب أهل الريف فيلبسون عبايات وجيوباً طويلة من
صنف واحد . شقوقة الإزار من الأمام ، وقد نسجت من الصوف الجميل
والحرير اللوشى المستوردين من إيطاليا ، بيد أن الشيء الذي أدهشني أكثر من
سواء هو كثرة أنواع الفراء : من القاقم والسمور وغيرها من جلود أقل منها
قيمة كجلد الثعالب الذي يبالغون في ثمنه مبالغة قصوى لنوعه ورقة ملمسه وشدة
دفئه وملاءمته لمثل هذا الجو البارد ، وينطلي الكثير منهم ردوسهم بقبعات من
التيل ، على حين يضع البعض الآخر قبعات تشبه تلك التي ترندى في حفلات
الأمم الريفية في « بيرجوس » ، ويستعملون سروجاً كسروج الخيل ولكنها كثيرة
الزينة ومنظاة بالاقمشة الجميلة ، وركابهم أميل إلى القصر منها إلى الطول .

عدنا في ذلك اليوم إلى المدينة فأخذني رفيقي لمشاهدة المسكر والأحياء
التي بقيت فيها الفرسان وغيرهم من السكبار ، وهم يحتفظون هنا - شأنهم في هذا شأنهم
في بيوتهم - بكل ما تتطلبه راحتهم من استبقاء نسائهم معهم وغير ذلك .

والمسكرات رائدة مجهزة بكل ما تستلزمه للثقة الشخصية ، لكن الأهالي مع
ذلك يقاسون كثيراً من شظف العيش الذي لم يعودوا يتكروونه لطول ألفتهم
إياه ، وتبقى الجياد دائماً في العراء دون حظائر ، وأعتقد أنها رغم محبتها

وصغرها الطبيعي إلا أن الطريقة التي تترك عليها تجعلها أقل جهداً ، والواقع أنها تبدو في بعض الأحيان وكأنها قل أن تستطيع لراكيها احتمالاً ، وعلى الرغم من صعوبة تصديق عدد جيادهم فأننى أحسب أن ما فى بلادنا قشالة من الدواب وما فى غاليسيا وفى الجبال من خيول الجر والبغال والأفراس والحير أكثر مما عندهم ، وإسبى لأوثر امتطاء حير من حيرنا على امتطاء جواد من جيادهم فى الحرب أو المبارزة .



ولترك أملاك شامسة ، ولكن الإقليم جبلى شديد الجذب قليل السكان ، على حين أن بلاد اليونان — التي يحتلونها — أرض منبسطة مثمرة رغم أن سكانها قد تنصاع عددهم الآن بسبب الحروب ولتدهورهم عبء القتال بأكله ، وللفسوة التي يلاقونها على يد الترك الفلاط القلوب ، والواقع أنه من الصعب أن نتصور كيف يمكن تموين جيش ضخم كهذا الجيش .

والترك — والحق يقال — شعب نبيل ، فهم يعيشون فى قطارهم عيش السادة المترفين سواء أكان ذلك فى نهقائهم أو فى أعمالهم أو طعامهم أو ألعابهم التي يغلب عليها اليسر ، وهم أهل مروح وطيبة ، وحديثهم عذب مسفاغ ، وإذا ما تكلم أحد عن العسيلة فى هذه النواحي إكتفى بتشبيهه بالتركي .



ولما فرغت من رؤية السلطان التركي وأهل بيته وبطانته وبلده أخبرت رفيقى أنه يحسن لى أن أعود إلى القسطنطينية ، لكننا اضطررنا للإقامة يومين آخرين لعمل كان لابد لنا من إنجازه مع جماعة من تجار حاشية السلطان الذى خرج فى أحد هذين اليومين للقمص ، فصحبته لأرى الاجتماع الذى كان أعظم

ما نسي لي مشاهدته من ناحية العدد والجياد والمرضى الدام ، فقد ارتدى الرجال أئمن ما لديهم من اللابس وأعلاها حسب مكانتهم ، لكنني لم أرقط في حيات مثل هذه البطالة في كثرتها وثراتها .

فلما كان اليوم التالي رحلنا قاصدين القسطنطينية سالكين نفس الطريق الذي جئنا منه ، وأظهر الطاغية دراجاس سروراً كبيراً لرؤيته إياي ، وشكر الجنوى شكراً قلبياً للمنايا التي أحاطني بها ، فبقيت مستجهاً بالديانة ثمانية أيام التمت في أثنائها من الطاغية أن يتمصل بمحاطة قائد سفينة هناك مخبراً إياه برغبتي في عبور البحر الأسود للذهاب إلى مدينة « كيفا » التابعة للجنوية والقريبة من بحر أزوف ، فأرسل الطاغية في الحال إلى الربان وسأله أن يحملني معه وأن بكرمني ، فوعد بذلك . كما تكلم صديقي الكابتن « حوان كارو » القشتالي مع أحد الجنوية وأوسق سفينته بمضى تجارة له إلى « كيوس » و « رودس » كي يكون المتفضل عليه ، كذلك أعطاني هذا القشتالي مؤونة للرحلة ، فمهرنا أناساً بمدتد وأحرنا وجئنا إلى البسمور الذي يمتد مسافة ثمانية عشر ميلاً من القسطنطينية حتى مدخل البحر الأسود ، فلما دخلناه مررنا بيننا شطر تركيا ، ومررنا بأما كن كثيرة حتى بلغنا قلعة بسمونها « صنوب » في تركيا واسكنها ناساً للجنوية فآلقينا بها مراسينا ، وأقنا بومين أوعنا حلالها ما مدنا من تجارة واستبضعنا بدلها أخرى ، ووجدنا الترك في هذه الحماة يقطعون الخشب الذي يصنعون منه أقواساً قوية جداً ، ويدفونها على شاطئ البحر خوفاً من العقاب الشديد الذي يوقع بهم إذا ضبطوا وهم يبيعونها للمسيحيين ، فإذا أصروا السفن مارة بهم نبشوا عنها فأخرجوها وباعوها

* * *

رحلنا من « صنوب » وظلنا متحيرين مصافين لشاطئ البحر الأسود

حتى بلعنا طرايزون التي كانت تسمى في القديم « ساموتراس » ، وإمبراطورها
يوناني نصراني ، ويقال إن أبا الإمبراطور الخالي رغب في أن يحرم أياه الأكبر
من الإرث ، فأتصل بالسلطان التركي سائلا إياه معاوئته فقتل أباه ، وكان له
ولدان فقتل الأصغر منهما أباه ، وهكذا حقت كلمات الأنجيل القائلة « بنفس
الـكـيـل بـكـال لـسـكـم » ، فكان الأخ الأكبر هو الذي رأيت في القسطنطينية
يمش في الدفي مع أخته الإمبراطورة اليونانية ، ويقال إن علاقته بها آثمة .

الفصل السادس عشر

طرايزون - المتعصب - كافا - سوق الرقيق .

شراء المؤلف لثلاثة من العبيد - تجارة

الكافيار - الخان العظيم - النار .

. . .

تشتمل طرايزون على قرابة أربعة آلاف نسمة ، وهي حسنة التصوير ، ويقال إن الأرض بها مثمرة وأنها تفل دخلا كبيرا ، ولما بلغناها تركنا إلى اليابسة وذهبنا لرؤية الإمبراطور^(٩٥) الذي استفسر منى عن إمبراطور القسطنطينية وكيف رحل إلى إيطاليا وعن استصحبهم معه ، كما سألت عن أخته الإمبراطورة وأخيه الذى كان قد نكاه ، وقد فعل ذلك كله لأنه أراد أن يعرف منى عما إذا كان صدقا ما قيل من أن أخاه خُطب ابنة صاحب ملطية، وأن هذا السيد وجماعة الجنوية والإمبراطور قد أمدّوه بأسطول ضخم لمحاربة طرايزون ، فأكدت له صدق ما سمع . وإذ ذاك اكتبنا خطره أشد الاكتئاب ، وأجاب بأن لديه من القوة ما يكفى لمقاومتهم كلهم بل وأكثر منهم ، وراح يطارنى بالأسئلة الجمة عساه أن يعرف من أنا وأين أذهب ، وحثنى على الإقامة هناك واعدنا إياى - فى سبيل مرضأتى - بإرسالى على ظهر إحدى سفنه لمشاهدة ما أنطلق لمشاهدته ، فأجبتة شاكرًا بإياه رغبته فى بقاءى معه وإن أفهمته أنى لا أستطيع إجابة سؤاله مادام لا بد لى من إنجاز رحلتى والعودة إلى وطنى فى أمد ليس لى أن أتجاوزهُ ، لأن مولاي الملك كان

ماضيا إلى محاربة المسلمين ، وزيادة على ذلك فلو أن الظروف كانت غير هذه
فإننى لا أستطيع الإقامة عنده لأنه متزوج من ابنة رجل تركى ولا بد من أن
يحدث له سوء ما من جراء هذا الزواج ، فأجاب بأن الرب غافر له هذا العمل
لأنه اقترن بها بنية تحويلها إلى النصرانية، لكننى قلت له : « بل إنهم يقولون
يا مولاي إنهم زوجوها لك كي تحولك أنت إلى الإسلام بسبب ما تطمع
أنت فيه منها ولتقل ما بيدك » فأمر بأن يجهزوني بما أحتاجه من الطعام،
وسألنى العودة مرة أخرى .

حيثذاك سافرت مبحرا إلى « كاك »^(٩٩) وهى جزء من إمبراطورية
القتار ، وإن كانت للمدينة ذاتها فى يد الجنوبية الذين أذن لهم بالسكن فيها ،
ولم يكن يدور بخلد القطار أن الجنوبية سيستقرون هناك بمثل هذه الأعداد الضخمة،
فأتينا مراسينا فى الميناء وجئنا إلى الخان الذى يتخذ قائد السفينة سكنا له
وبقينا به ، حتى إذا كان اليوم التالى ذهبت لرؤية دير القديس فرسيس
البالغ الحسن وحضرت القداس ، ثم مضيت بمدئد لمشاهدة الحاكم الذى تلقانى
لقاء طيبا ليس بعده غابة مستزيد ، وسألنى عما أحتاجه وأريده ، وأنبأنى
بسروره فى أن يمدنى بكل لوازم لشعوره بالحب الكبير لأمتى وحقها عليه، فقد
عاملته أحسن معاملة حينما كان فى أشبيلية ، فشكرته من قاي ، ثم أخذت
أجول فى المدينة قبل أن يسدل الليل ستاره ، وقد ملا العجب نفسى لرؤية
كثير من الأشياء الغريبة على .

والمدينة كبيرة جدا تضاهى أشبيلية فى حجمها أو لعلها أضخم منها ، كما
أن سكانها ضعف سكان أشبيلية ، وهم خليط من المسيحيين والكاثوليك
واليونان وجميع شعوب الدنيا ، ويقال إن إمبراطور القطار كان قد استولى عليها

وحرّبا مرّات عدّة لولا أن الأثرياء وأهالى الأقطار المحيطة بها لم يقبلوا ذلك
 لا تحادهم إياها مكاناً يعارضون فيه أعمالهم الشريرة وسرقاتهم وجرائمهم كبيع
 الأب أطفاله والأخ أخاه ، وتقوم بجميع شعوب فارس بهذه الأمور وما هو
 أسوأ منها ، غنيما يصادرون المدينة يممون وجوههم شطرها ويستحبون قوسا
 ويرمون حائطها سهم منه قاتلين إنهم يتخلصون من الخطايا التي اقترفوها ،
 ويؤمنون أكثر من ذلك أن بيع الأطفال ليس خطيئة لأنهم عطية أعطاهم الله إياها
 للمنفعة ، وأن الله سيرعى الأطفال حينما ذهبوا أكثر مما يرعاهم لو كانوا مع
 آباءهم ولعل ما يباع هنا من الرقيق ذكورا وإناثا أكثر مما يباع في أى مكان
 آخر من العالم ، ويوجد بهذه المدينة وكلاء سلطان مصر الذين يشترون العبيد
 ويرسلونهم إلى القاهرة حيث يسمون بالماليك .

ويبد المسيحيين مرسوم بابوى يحول لهم شراء العبيد النصارى من الأمم
 الأخرى والاحتفاظ بهم مدعاً لهم من الوقوع في أيدي المسلمين حتى لا يحولهم
 عن دينهم ، وهؤلاء الرقيق من الروس والقوقاز والجراسية والبلغار والأرمن
 وسوام من شعوب العالم السيجى ، ولقد اشترت بكافا جارية بين وعيدا
 لازلت أحتفظ بهم جميعا عندي في قرطبة مع أولادهم . أما البيع فيتم على
 الصورة التالية ، هي أن يحدد العبيد - ذكورا كانوا أم إناثا - من كل
 ما عليهم من الثياب ، ثم يطرحون عليهم عباءة من اللباد ويعلنون عن الثمن ،
 وبعدئذ يحملون العطاء عنهم ويدعونهم يسرون جيئة وذهابا ليرى الناس إن يكن
 ثم عيب جسماني ، ويقطع البائع على نفسه عهداً برّد ثمن العبد لشاريه إن مات
 العبد بالطاعون في مدى سنتين يوما ، وإذا تنوعت جنسيات الرقيق وكان من
 بينها تنارى أو تنارية زيد الثمن بقدر الثلث ، اذ من الثابت المقرر أن لم يحدث
 أن خان تنارى مولا .

ومدينة كافا غير حسنة التسيير وجوها خندق صغير جداً ، ولسكها
محجرة تحميراً كاملاً بالسهام والمدافع الكبيرة والصغيرة والبنادق والمدافع
القديمة الطراز وشتى صروب آلات الدفاع التي قد يوجهونها أحياناً ضد
المرء من السلاح رغم عدم رغبتهم في إصابتهم بأى أذى لما يحبونه منهم
من أرماع طائفة ، وقد حدث قبل أيام قلائل أن زحف أهل المدينة بقواتهم
وآلاتهم الحربية للاستيلاء على مدينة « كوركان » كبرى مدن إقليم القنار ،
غير أن التتار عدوا بنحبرهم وتغلبوا على الجنوبية واستولوا على مدفعيتهم
وأعلامهم ، ثم أعملوا القتل والأسرى الكثيرين منهم حتى لقد فُكّر التتار يومذاك
في الاستيلاء على كافا ذاتها ، فزحفوا حتى صاروا على مقربة من أسوارها
وحاولوا تسلقها ، لكن الكثيرين منهم لاقوا مصرعهم ، وإذا ذاك أيقن
الجنوبية أن رجالهم أقدر في البحر منهم في البر .

وتحده الأرض كافا من الناحية المواجهة لمارس والمهند ، أما بقية النواحي
فيحدها بحر « نانا » وبحر أزوف وبحر باكوه ^(١٧) (أى بحر قزوين) ،
ويجذب إليها القوم كثيراً من أصناف التجارة كالتوابل والذهب والآلى
والأحجار الكريمة ، يضاف إلى هذا كله ما يحبونه من الأقطار المحيطة بها ومن
كافة أرجاء الدنيا من الفراء الذى يباع بأرخص الأسعار ، ولا شك فى أنه لو لم
يكن الجنوبية هناك لما كان لأهل تلك الناحية اتصال ما بنا نظراً لكثرة
وجود شحوب مختلفة بها ، مما تنوع معه أنماط الثياب وصروب الطعام
كما تنوعت أصناف النساء ، ولقد جاءوا لنا فى الختان الذى نزلناه بىذارى
صغيرات لقاء كناس من الحر القذى يتدر وجوده بها تدرية بالغة ، وشأن الحر
فى ذلك شأن جميع أنواع الفاكهة والخليز ، إذ لا يتيسر الحصول على كل

هذه الأشياء إلا في المدينة . ولكن يمارس بيعها هنا جماعة التجار وبشتطون في ثمنها ، ولهذا السبب كانت السرقات شائعة .

والتتار قوم محاربون كثيرون العمل هم وجيادهم ولا يحتاجون إلا للقليل مما بقيم أودهم ، وهم يقولون إنهم في انتقالاتهم وحروبهم يحملون نصيبهم من اللحم فيما بين جانب الحصان ومقعد السرج^(٩٨) ، وهم لا يطهونه بل يكتفون بهذه العملية ، كما أنهم يشنون الحرب على جيرانهم المسيحيين ويأسرونهم ويبيعونهم في كافا لاسيا منذ موت « فيتولار » الذي كان يسط حكمه على ليتوانيا وروسيا ، وهو آخر ملك بولندا وقد مات دون وريث له ، فلما تولى ملك بولنده حكم النواحي التي مات عنها أخوه - وهي جد قاصية عن بولنده - كره الناس حكومته ونجرات البلاد مما أدى إلى ضياعها ، وإذا كان بعض التتار رقيقاً لنا فمرجع ذلك إلى ما يقع عليهم من السرقة كما أن آباء البعض منهم يبيعونهم حسبما أشرت إلى ذلك آفأ ، ومن ثم فإن « كافا » زاخرة بأناس من شتى الشعوب ومختلف الأجناس ، ومن العجب أنها خالية مع هذه الكثرة من الطاعون .

وقد ذهبت - أثناء وجودي بها - لمشاهدة مهر الدون^(٩٩) العظيم الذي يزعم الناس أنه النهر الثاني الذي ينبع من الجنة الأرضية ، ويمتد نهراً أروفاً وقزوين مياهما من مياه « تانيه » الذي يجري عبر فارس وشبه القارة الهندية ، ويشبه نهر النيل في أنه تتغل به كثير من أنواع التجارة الواصلة إلى البحر الأسود قرب كافا ، ويوجد على هذا الشاطئ حصان أحدهما تابع للجنوية وتانيهما للبيادة حيث يخزنون بهما كثيراً من البضائع .

ويكثر في هذا النهر السمك الذي يحملونه في السفن ، كما توجد به
كميات ضخمة من السمك الذي نسميه نحن هنا « بالسولو » وهو من أطيب
الأنواع: طازجاً كان أو مملحاً ، ويمكن العثور عليه في قشتالة بل وفي هولندا
أيضاً حيث يحمل إليها ، ولقد سلك هذا الطريق سفراء الملك هنري حينما
ذهبوا إلى بلاط تيمورلنك^(١٠٠) ، كما أهابني الدون « ألفونسو فرناند
دي ميلا » أن المسافة التي قطعوها من هناك إلى أقصى ناحية بالغوها تقرب من
المسافة من كازا إلى قشتالة ، ولكنهم ذهبوا إلى هناك مباشرة وعادوا
ورأوا في طريقهم وفي بلاط تيمورلنك - كما يؤكدون - الكثيراً من
الأشياء الغريبة .

ونهر الدون نفسه ذو منظر غريب وكذلك الحال إزاء من يعيشون
على ضفتيه إذ يصطادون نوعاً معيناً من السمك يسمونه « ميرونا » يقال
إنه شديد الضخامة ، وهم يسمون بيضه في براميل خشبية ويحملونه إلى شتى
أرجاء العالم لا سيما إلى اليونان وتركيا و يسمون ذلك بالسكافيير ، وتبدو
البيضة أول ما تبدو أشبه بفقااعات الصابون الأسود ، وهم يأخذون هذا
البیض وهو لا يزال رطباً ويضغطونه بالمدى كما نصنع نحن الصابون في بلدنا ،
ثم يضمنون ذلك في موافد تكسبه الصلابة ويبدو كبيض السمك ، وهذا
السكافيير شديد الملوحة .



ويلبس النساء وأغلب الرجال الحرير اللامع في تلك النواحي ويتفننون
في تطريزه تفنناً يشبه نعتن الأندلسيين هنا ، ويرتدي الرجال عبايات اللباد

الرقيق الذي يصفط بعضه إلى بعض وليس به أثر للاتحام ، أم أسحتهم مهي
السيوف القصيرة والقصي والمراوات .

* * *

ولقد بذلت كل الوسائل التي في مكنتي للذهاب إلى بلاد التتار ، لكن
أجمع القوم كلهم على نصحي بالإقلاع عن ذلك ، إذ ليست الخطارة مأونة
العواقب إن أبا مضيت إلى مثل هؤلاء القوم الذين لا يقر لهم قرار ، وليس
لهم راع من حاكم يدينون له بالطاعة ، ومع ذلك فقد ذهبت لمشاهدة مدينة
« كوركان » ، وأردت أن أطلع من هناك سوق الإبلتان المسمى « لوردوباسار »
Lordo Bazar أي ميدان الوالى ، والذي يسمونه بيلاطه ، وشاهدته بنفسى .
وصفته أنه يوجد مكان أشبه بالمدينة الكبيرة يعتقدون فيه سوفهم - كما يسمونه -
ويجلس به قاضيهما الأكبر الذى يوكل إليه الفصل بين الناس فيما هم فيه
يختصمون ، وعلى الجانب الآخر - وهو الأيسر - يوجد مكان آخر لنفس
الفرض ينف به قاض آخر مثله لحكم الجماعة .

أما بيوتهم فهي مما تحمل معهم ، إذ أن بعضها مصروع من التيل والبعض
الأخر من المعصى ، وقد يحدث في بعض الأحيان - حين لا تمل الأرضى
شيئاً - أن ينتقلوا إلى سواها ، فإذا ما قاموا بذلك صمدوا إلى جميع حاجاتهم
موضعوها في العربات ورتبوها على نمط يبدو أنهم لا يستطيعون عنه مكافأ ،
وهم لا يأكلون الخبز حيث لا يوجد عندهم منه شيء ، بل يقتصرون في
طعامهم على حليط من الأرز ولبن الجبال ولحم الخيل ، ولا يقربون أى نوع
من الحور لاتباعهم الإسلام ، ويعتمد سلطان الإيلخان الأعظم على قطر فسيح
الأرجاء ، وإن تكن المدن والبلدان غير معروفة لديهم ، ويعيش التتار
دائماً فى العراء .

وإذا لم يحدوا قوماً من النصارى بقاتلونهم حارب بعضهم بعضاً ، ولا يتورعون عن السرقة كلها وجدوا إليها سبيلاً دون خوف من إقامة الحد عليهم ولأنهم لا يعدون السرقة جرماً ، وهم ذوو بنية صغيرة في العادة وإن كانوا مبسوطي الأكتاف ، أما جباههم فمريضة وأما عيونهم فصغيرة ، ويقال إن أشدهم تشويهاً في الخلقة هم أبلاهم موقفاً ، كما يقال أيضاً إنهم إذا اصطدموا بالترك كانت لهم الملية عليهم ومن ثم فالترك يهزمون الإغريق ، ويهزم الإغريق التتار .

. . .

ولكن البيزنطيين الآن بأجمعهم لم يحدوا شيئاً يذكر ، لأن القسطنطينية كانت في ذلك الوقت للكان الوحيد الحصن الذي تركوه والهمض لا زالوا يسمونهم بالساداة ، رغم أن كافة الأمم النصرانية المتناثرة في أرجاء الدنيا أصبحت في رق المسلمين وقد أخذ الترك بثأر تروادة ، وكان اليونان خاضعين لهم حتى قبل وصولي وحتى قبل الاستيلاء على القسطنطينية ، وإذا كان الترك لم يستولوا عليها حتى الآن فذلك إلا خوفاً من أن تهب شعوب العرب النصرانية فتمتشق الحسام ضدّهم ، لكن يبدو جلياً من إهمال الأمراء والشعوب المسيحية العظيم أن القسطنطينية موشكة على الزوال مما يدل على عبث هذا الحرف ، ولو كان الترك أكثر جرأة مما هم عليه الآن ، ولو أراد الرب — لنجحوا في كل محاولاتهم بعد أن رأوا تقاعد النصرانية عن بذل أية محاولة لئلا يثار وإصلاح الخطأ ، ومن الواضح فدل أن المدن تكون أحسن دفاعاً عن نفسها بقوة الرب المعجزة أكثر من الصناعة والقوة المادية .

وكنت شديد الرعة في البقاء بهذا الأقليم ولكن صرقتني عن تحقيقها ما طبع عليه أهله من همجية وعدم استماعي ما كلمهم ، ومعظم بلادهم صعبة

الارتداد كما هو الشأن في بلاد الهند حيث يستحيل السير ، وليس هناك إلا القليل مما يمكن رؤيته في بقية ربوع الإقليم باستثناء أولئك البصري الذين قلت عنهم إهم أشد ما يكونون تعاسة وقد حطمتهم قوة جيرانهم التتار الكريهين ، كما ينقصهم الحاكم القدي يدبر شئونهم ويرعى أمورهم ، مما سوف يحماهم يستمرون على معاناة هذه الشدة حتى يرق الله عليهم .

ومدينة كافا شديدة البرودة شتاء شدة تتجمد السفن منها في الميناء ، وقد بلغ أهواها من الحمجية والعيب حداً أحسست معه بالسرور حين انصرفت من الرغبة في رؤية شيء أكثر من هذا والعودة إلى بلاد اليونان ، لذلك جمعت حاجاتي ورحلت عن كافا

• • •

الفصل السابع عشر

المودة - القسطنطينية . أبا صوفيا . الخانات القديمة

نخال جنتيان . المبحروم . نخال المدلة .

النصر . المكتبة . سوء حال

المدينة

...

أبحرنا في نهر السفينة وتابعنا مسيرنا حتى عدنا إلى طرايزون التي قلت سابقاً إن إمبراطورها بذل قصارى جهده لاستبقائي لكنه لم ينجح في مساءه، ومن ثم سافرنا وأدركنا القسطنطينية التي كانت الأوامر قد صدرت بها بعدم السماح للسفن القادمة من البحر الأبيض بالدخول في مينائها سواء كانت قاصدة القسطنطينية أم يبريه مخافة أن تنقل معها الطاعون، ومن ثم بنوا مدجاً على بعد مرحلتين من القسطنطينية تفرغ فيه السفن حولها وتظل باقية به مدى ستين يوماً إلا إذا كانت معدة للنزول للبحر ثانية، ولا شك أن الجماعات الأجنبية تجلب معها كثيراً من الأمراض، وقد رأيت بين راسي في الحان الذي كنت أنزه رجالاً هلكوا بالطاعون، لذلك أرسلت واحداً من رجالاتي إلى الطاغية دراجس استأذنه في دخول المدينة مُعَلِّماً إياه أنني غادرت السفينة أنا وجماعتي، وأنتى لم أقم مع الآخرين بل بقيت يومين في المراء، وإذا ذلك أنعد أمره بإرسال قارب إلى أحسن القوم تجهيزه وإعداده، وجاء عليه نفر من أصدقائي الذين حقوا لاستقبالى، فبعثت رجالى إلى المكان المخصص

لإقامتهم ، وأما أنا فقد مصيت لتقديم احترامى للطاغية الذى تقبى لقدم كريم
وكذلك الإمبراطورة وحاشيتها ، واستفسرت معنى الإمبراطورة عن شأن
رحلى فى البحر الأسود ، وسألت على وجه الخصوص عما إذا كنت قد
رأيت أخواها إمبراطور طرايزون — وكان معها إذ ذاك أخوها الآخر — ،
فبأنهما لما حدث أثناء رؤيتى الإمبراطور ، فشكرنى الاثنان شكراً عميقاً
وقالت لى الإمبراطورة : « ما كنت بفاعل أكثر من هذا لو كنت أحد
أبناء بلدنا » ، فأجبتها : « سيدتى ، لقد أدبت ما ينبى على المسيحي
الكريم أدائه » . ثم استأذنت وانصرفت منكثراً إلى خانى بحوطى
أشراف المدينة .



فما كان اليوم التالى ذهبت إلى الطاغية وسألته إن كان بأذن بإصدار
أمره بالسماح لى رؤية كنيسة القديسة صوفيا ومخلفاتها الدينية المقدسة ، فأجابنى
أنه سيفعل ذلك راضياً مغتبطاً ، كما أنبأنى أنه راعب هو ذاته فى الذهاب إليها
لسماع القداس ، وفعلت فعله الإمبراطورة وأخوها إمبراطور طرايزون
الشرعى ، ومن ثم ذهبنا إلى الكنيسة لحضور القداس ، فلما فرغنا منه
صدرت الأوامر بالسماح لنا بمشاهدة البيعة البالغة الضخامة ، وبقول الناس
فيما يقولون إنها كانت تحتوى أيام ازدهار القسطنطينية على ستة آلاف رجل
من رجال الدين ، أما فناؤها الداخلى فقير معتنى به العناية الكافية ، وإن
تسكن الكنيسة ذاتها فى حال جيدة حتى ليخيل لرائيها أن يد الصناعات قد
فرغت منها الآن فقط ، وهى مبنية على الطراز الإغريقى ومكعب بها كثير من
الكنائس الصغرى ، وسقفها مصنوع من الرصاص ، أما داخلها فتحلى بكثير

من القسيفساء الذى يرتفع من الأرض مسافة رمح طولاً ، وقد بلغت هذه القسيفساء من الدقة حداً لا تستطيع فرشاة الرسام أن تأتى بأحسن منه منظراً ، وأما أسفلها فأحجار جميلة بلغت للغاية من دقة الصنعة ، وقد خلطت بأنواع الرخام والستماق وحجر اليصب ، وأما أرضها فن الأبحار الضخمة التى أبدع القوم فى تنسيقها وتجميلها ، وتقوم فى وسط هذه الكنائس الصغرى للمصلّى الرئيسية العظيمة الانساع ، وتبلغ من الارتفاع قلماً يصعب معه الاعتقاد باستطاعة الإبناء التماسك ، وفى هذه المصلّى الكبرى صورة من القسيفساء تمثل الآب فى الوسط ، وتبدو هذه الصورة من أسفل فى حجم الإنسان العادى ، لكن القوم يقولون إن طول القدم وحده يبلغ طول الرمح ، كما تقدر المسافة بين العينين بعدة أشبار كثيرة .

ويوجد بها المذبح الأعظم حيث يستطيع الإنسان أن يتبين كل فنون الهندسة وإبداعها ، كما يقوم أسفل هذه الكنيسة^(١٠١) صهريج كبير يقال إنه يسع سفينة ذات ثلاثة آلاف مجداف مئبر به ، ويسع ما يحتاجه من ارتفاع الماء وعمقه ، ولست أدري عما إذا كان مثل هذا القول فى حاجة إلى ما يدعمه وإن كنت لم أرقط فى حيانى صهريجاً أكبر منه ، ولا أعتقد بوجود مثل هذا الصهريج فى مكان آخر .

* * *

واقعد أصدر الطاغية أمره هو ومن معه إلى رجال الدين بإحضار الخلفات الدينية المقدسة ، ولها ثلاثة مفاتيح يحتفظ للطاغية بأحدها ، وأما الثانى فمع بطرك القسطنطينية الذى كان موجوداً حينذاك ، وأما الثالث فمع سادن الكنيسة ، واقعد جاء القسس بملابسهم الدينية فأخرجوا الخلفات المقدسة

وساروا بها في موكب عظيم ، ومما أخرجوه منها الحربة التي طعن بها جارت
سيدنا وهي في موكب من الآثار الرائعة ، والعمياء التي ليست بها ندبة والتي
لا بد أنها كانت بنفسجية في وقت من الأوقات ثم حال لونها وسهت مع مرور
الأيام ، وكذلك أحد المسامير وبعض الشوك الذي كان في تاج سيدنا ، وأشياء
أخرى جمة غير هذه مثل خشبة الصليب والعمود الذي رفعوا عليه السيد المسيح ،
كذلك كانت هناك أشياء عدة من مخلفات سيدتنا العذراء الطوبى والسعود
الذي شوى عليه القديس لورنس ، كما رأيت كثيراً من الآثار المقدسة التي
حملتها القديسة هيلانة حين كانت بيت المقدس ثم عادت بها إلى هنا ، وكلها
مخلفات جد موقرة ، كما يقوم القوم على حراسها حسن قيام ، وقد من الله
فلم تقع هذه الأشياء — حين اندحار اليونان — في أبدى أعداء الرب وإلا
لأساءوا استعمالها ولتداولوها بغير تحيل .

ولما غادرنا المكان أبصرنا عند باب الكنيسة عموداً حجرياً ضخماً أطول
من الكنيسة الكبرى ذاتها ، على قمته حصان كبير من النحاس المطلي بالذهب ،
يعلوه فارس قد دفع أحد ذراعيه وهو يشير بأصبعه إلى تركيا ويمسك باليد
الأخرى كرة : رمزاً منه إلى أن الدنيا بأجمعها ^(١٠٢) في يده ، وقد حدث ذات
يوم أن هبت عاصفة هوجاء أسقطته فتدحرجت الكرة ، فكان حدها — كما
يقولون — حجم قدير يسع خمسة عشر جالوناً ، وإن بدت للواقف أسفل التمثال
في قدر البرقالة ، ومن ثم يمكن للمرء تقدير ارتفاع هذا التمثال ، ويقال أيضاً
إن القوم صرفوا ثمانية آلاف دوكات لحفظ الكرة وتثبيت الحصان بالسلاسل
حتى لا يسقط إن هبت الريح وكانت عاتية ، أما الفارس فيزعمون أنه يمثل
قسطنطين ، وأنه كان يشير إلى أن دمار الإغريق سيأتي من تلك الناحية التي دلّ
عليها بإصبعه ، وكان الأمر كما أشار .

ولقد أمضينا ذلك اليوم حتى وقت الظهيرة ونحن نتأمل في إعجاب تلك الكنيسة وفاءها ، ويوجد خارجها ميادين كبيرة حافلة بالزهور التي اعتادوا أن يبيعوا فيها الخمر والخبز والسمك لاسيما الأسماك الصدفية التي يُهبل اليونان عليها أكثر من سواها لاعتيادهم أكلها ، كما أنهم يقتصرون في بعض أوقات صيامهم السنوي على الأسماك الخالية من الدماء وأعني بها الصدفية ، وقد أقاموا في هذه المواهي موائد كبيرة من الحجر يجلسون إليها لتناول الطعام ، يستوي في ذلك الحكام والشعب حيث يجلسون معا جنباً إلى جنب .



عاد الإمبراطور بعدئذ هو والإمبراطورة وأخوها إلى القصر ، وانصرفت أنا إلى النخان الذي أنزله ، فلما كان اليوم التالي مضيت إلى كنيسة القديسة مريم^(١٠٣) المدفون بها جثمان قسطنطين ، ويوجد بهذه الكنيسة صورة سيدتنا العذراء التي رسمها لها القديس لوقا ، كما يوجد على الجانب الآخر صورة السيد المسيح مرفوعاً على الصليب وهي محفورة على الحجر ، ويقال إنها تزن بإطارها وقاعدتها عدة قنابير ، وتبلغ من الثقل حداً يعجز معه ستة رجال عن رفعها ، فإذا كان يوم الثلاثاء من كل أسبوع جاء قرابة عشرين رجلاً يسدلون ثياباً طويلة من التيل الأحمر تغطي الرأس فتبدو أشبه ما تكون بالمباعدات ، وهؤلاء الرجال من أسرات مميعة ولا يشغل وظيفتهم سواهم ، ويسير موكب كبير فيمضي الرجال الحمر الثياب واحداً بعد واحد إلى التمثال الذي إذا رضى عن واحد دفعه في يسر كأنما هو لا يزن أكثر من أوقية ، ثم يضعه حامله على كتفه ويمضي الباقون من الكنيسة وهم يرتلون الأناشيد، ويذهبون إلى أحد لليادين الكبرى حيث يسير حامل الصورة بها من جانب إلى آخر فاعلاً ذلك خمسين

مرة يدور فيها حول الميدان ، فإذا ثبت المرء عينه على الصورة بدت له كأنها مرتفعة عن الأرض وقد تحسنت تماما ، حتى إذا أنزلها إلى الأرض جاء غيره ورفعها ووضعها على كتفه ، ثم يأتي بسده غيره وهكذا ينقضى اليوم وقد رفعها أربعة منهم أو خمسة .

ويسبق في ذلك اليوم سوق بالميدان وتحشد زمركثيفة من الناس ، ويمسك رجال الدين قطعاً من القطن المندوف ويمسوث بها الصورة ثم يوزعون تلك الحرق على من هلك من القوم ، وبعدئذ يعودون بالصورة في نفس الموكب ويصعونها في مكانها ، ولم يفتنى يوم من أيام إقامتي بالقسطنطينية حضور هذا العرض لأنه من غير شك إحدى العجائب الكبرى .



واقعد كانت بالقسطنطينية كنيسة^(١٠١) ليست في كبر كنيسة أباصوفيا ولكنها — كما يقول القوم — كانت أكثر منها غناء ، وقد شيدتها القديسة هيلانة رعية منها في إظهار بأسمها وسلطانها ، وعند مدخلها بهن أقواس كانت شديدة السواد ، ويقال إن الناس الذين وجدوا عندها كانوا يرتكبون جريمة اللواط ، وقد حدث في ذات يوم أن سقطت صاعقة من السماء أحرقت الكنيسة ولم ينج قط أحد من أولئك الخاطئين الذين دهمهم تلك الصاعقة ، وكانت هذه الكنيسة تسمى كنيسة « قالايرنا » ، ويقال اليوم إنها دمرت تدميراً لا يرجى معه ترميمها .

ويوجد هناك دير اسمه دير « بنتيكاترو »^(١٠٢) وهو تابع لربان إخوان القديس باسيل ، ولا يوجد نظام من الإخوان في هذه النواحي سوى هذا النظام ، وهذا الدير محلي هو الآخر بالقسيساء المذهبة ، وبه أوعية الشراب التي ملئت

بالحرى عرس قانا الجليل ، كما يوجد به كثير من الخلفات المقدسة الأخرى ، وهو مدفن الأباطرة .

ويوجد على الجانب الآخر من المدينة قبالة البحر وتركيا دير للنساء ذو جدار شاهق الارتفاع ويعرف بدير « القديس ديمترى » ، ويستطيع المرء أن يطالع منه تركيا عبر أصيق أجزاء المضيق ، ويقوم بجابه على الساحل التركي برج تربط بين جانبيه سلسلة إذا ما شدت بينهما حالت دون دخول السفن ، وكان الغرض من وضعها أن تكون موحدا للفرجة ولعدم ضياع المكوس التى تجمع فى تلك الناحية ، ويسمون ذلك بمضيق البسفور الذى يصيق صيقا شديدا عند أحد جوانبه حتى يستطيع المرء أن يرى السائر على الشاطئ الآخر ، وزيادة على ذلك فالبحر شديد الضعالة عند الجانب التركى ، لكنه شديد العمق عند الساحل اليونانى بدرجة تمكن منها السفن — إلى أن كان حجمها ومهما بلغت ضخامتها — من السير فيه حتى تلامس أسوارا القسطنطينية حاملة بخيل معها أن فى قدرة الإنسان أن يقفز من الأسوار إلى السفينة .



وبالقسطنطينية مكان كبير قد أبدعته يد الإنسان وهو كثير الأوراق والبوابات ، ومن تحته الأقواس التى كان الناس قديما يستعملونها لمشاهدة الألعاب أيام احتفالاتهم^(١٠) بطلانهم ، ويقوسط هذا المكان شعبانان قد التفت كل منهما على الآخر وهما مصنوعان من النحاس للكفت ، ويقال إن الحر كانت تنصب من قم أحدهما والحليب من قم الآخر لكن لا يستطيع أحد ما تذكر هذا الأمر ، ويبدولى أنه لا ينبغي الاهتمام الكثير بهذه القصة ، على أنه يوجد فى وسط هذا الميدان تمثال رجل مصنوع هو الآخر

من النحاس المسكوت ، ويقال إنه إذا لم يتفق التجار فيما بينهم على ثمن ما يتبايعونه ذهبوا إلى هذا التمثال الذي يسمونه بتمثال العدالة ، فإذا قبض التمثال بده عند منافع ما كان هذا هو الثمن الحقيقي للبضاعة الذي ينبغي أن يرتضيه الطرفان المتقاضيان ، وحدث أن كان لأحد النبلاء جواد يقدر بثلاثمائة دوكات وأراد أحد أغنياء تلك الناحية شراءه لكن لم يستطع الإثنان الاتفاق على ثمنه ، ومن ثم رتباً أمرهما بالشخص إلى ذلك التمثال لبت في هذه المسألة ، فلما ذهباً إليه أخرج المشتري بضع دوكات ووضعها في يد التمثال المبسوطة فقبضها عليها إشارة منه إلى أن الحصان لا يساوي أكثر من هذا القدر ، وحينذاك أخذ المشتري الجواد وتسلم البائع الدوكات ، إلا أن الأخير كان يتسمر حادقاً فاستل سيفه الأحذب وضرب به يد التمثال ضربة قطعنها، ومن ثم لم يعد يحكم في شيء أبداً ، لكن ما كاد البائع يبلغ داره حتى نفق الجواد وبيع جلده ببضع دوكات ، ولست أثق في هذا الكلام ولكن ثقتي الكبرى بما جاد به الرسل في الإنجيل .

وفي الناحية الأخرى من هذا الميدان حمام له أبواب يواجه بعضها البعض فإذا دُميت محصنه بتهمة الزنا أمر القضاة بإحضارها إلى ذلك الحمام وحملوها على الدخول من باب والخروج من الباب الآخر ، فإذا كانت بريئة مما ألصق بها مرتت خلال الأبواب دون أن يصيبها ما يندش الحياء ، أما إن كانت مخبئة ارتفع ثوبها وقبضها إلى أعلى دون أن ترى هي ذلك وأصبح مكشوفة للعين ما بين وسطها وقدميها .

وفي وسط هذا الميدان ^(١٠٦) مسلة مصنوعة من حجر واحد على نمط تلك المسلة القائمة في رومة حيث يوجد رماد جثة يوليوس قيصر ،

وإن لم يسكن في الواقع برماده ، فليس هو بالناعم ولا بالقديم ، ويقال
لأنها صنعت بلنة قسطنطين .

وحول هذا الميدان وبداخله كثير من المباني ، ويطلق القوم عليها
اسم « الهيدروم » .

. . .

ومدينة القسطنطينية مبنية على شكل مثلث : ثلثها في البحر والباقي في
الحياسة ، وهي مسورة تسويراً حصيلاً جداً بصورة عجيبة تدعو لمشاهدتها ،
ويقال إن الترك جاءوا إليها وضيّقوا الخناق عليها ، واستبدت الدهشة بالقائم
على الجائيق والرمي به فقال لمظيم الترك : « مولاي إنه لا يمكن الاستيلاء على
هذه المدينة بالألغام لأن أسوارها نُقِدَت من الصلب ، ولن تقع » ، وكان
قوله هذا لشدة ارتفاع الأسوار ، ولأنها صنعت من كتل ضخمة من الرخام قد
التصق بعضها بالآخر ، إلا أن السلطان التركي ظل دائباً على محاولته هذه ،
وإذ ذاك أخبره رجاله أنهم رأوا رجلاً ممتطياً جواداً على السور ، فاستقدم إليه
يوفانياً وقع في أسره وسأله عن مرتلك المعجزة التي يرونها كل ليلة ، وأعطى
بها ذلك الفارس الذي يدور حول الاستحكامات على حصانه وهو في كامل
سلاحه ، فأجابه اليوناني : « مولاي ، يقول الروم إن قسطنطين استعمل في
بنيانه هذه الكنيسة كثيراً من الرجال ، وفي ذات يوم بينما كان الجميع
مصرفين لتناول غداتهم أمر كبير الفعلة أحد الأطفال بالوقوف هناك وحراسة
الآلات ، فأطاعه الطفل ، وإذ ذاك ظهر رجل شديد الجلال على ظهر حصان
وقال للطفل لم لا تذهب وتأكل مع الآخرين ؟ فأجابه الصغير « لقد أمروني
يا سيدي بالبقاء هنا لحراسة الآلات » ، إلا أن الفارس أمره بالانصراف

وتناول الطعام ، فأجابه الطفل إنه لا يجرؤ على الانصياع لأمره ، فقال له
الفارس « انصرف ولا تخف ، وأنتى لأعدك بأننى سأحرس الكنيسة والمدينة
حتى تعود » ، فانصرف الطفل ، إلا أن خوفه مما سيحقق به من العقاب حمله
على ألا يعود ومن ثم بقى للفارس وفاء بوعده ، ويقول الناس ما كان هذا
الفارس إلا ملاكا .

لكن قد يقال الآن إن الطفل عاد وكف للفارس عن الحراسة لأن
المدينة قد سقطت واحتلت ، إلا أن الترك حينذاك انكفأوا راجعين عنها .
ولا بد أن قصر الإمبراطور كان رائعا جدا^(١٠) ، أما الآن فهو والمدينة
في وضع يشير إلى الأحوال التي كابدها الأهليون ولا زالوا بكابديتها ، وبوجد
عند مدخل القصر حنية رخامية مفتوحة ، حولها مقاعد من الحجر وكذلك
أحجار أشبه بالوائد رفعت على أعمدة أمامها وممتدة على طول الجانبين ،
وبوجد هنا كثير من الكتب والمؤلفات والتواريخ القديمة ، وعلى أحد
الجانبين أدوات اللهو واللعب لإمداد قصر الإمبراطور بها على الدوام ، أما
البيت — من الداخل — فسيء الترتيب غير بعض نواح ضيقة يعيش فيها
الإمبراطور والإمبراطورة وحاشيتهما .



أما حالة الإمبراطورية فهي من الأبهة بالصورة التي كانت عليها من قبل
فما زالت الحفلات القديمة على ما كانت عليه وإن أصبح الإمبراطور أشبه
ما يكون بأسقف من غير أسقفية ، وإذا ما خرج للفرجة روعيت جميع
التقاليد الملوكية ، وتركب الإمبراطورة على ركاب من السرج فإذا أرادت
اعتلاء الجواد أمسك سيدان لها قطعة من القماش الفاخر ورفعا أيديهما وأدارا

لها ظهرها ، حتى إذا ألت برجلها عبر البسرج لم تمس اليد قط أى جزء من جسمها .



واليونان صيادون مهرة بالبزاة والصقور والكلاب ، والقطر من ألعاب المسسيد والقنص ، وتكثر به أنواع الطيور والدراج والحبال والأرانب ، وأرضه منبسطة وصالحة للركوب .

ويبتأثر سكان المدينة في جميع أرجائها ، وهي مقسمة إلى أحياء أكثرها اكتظاظا بالسكان ما كان واقعاً على شاطئ البحر ، وليس ثم أثر للعدة على ملابس الأهالي ، بل إنها أدل ما تكون على التماسه والفقر ، وأفصح ما تترجم عن شظف الحياة التي يحيونها ، وإن لم يكونوا قد بلغوا من الشقاء ما يستحقونه لأنهم قوم أشرار غارقون في الخطيئة إلى الأذقان .

ومن عاداتهم — إذا مات لم ميت — ألا يفتحوا باب دارهم طوال تلك السنة إلا للضرورة القصوى ، ثم يتجولون على الدوام في المدينة مولولين كما لو كانوا يندبون ، وبذلك تغافلوا منذ زمن بعيد بالشر الذي حاق بهم .

وتوجد الترساة على أحد جانبي المدينة قرب البحر ولا بد أنها كانت من قبل رائعة جداً بل لا تزال حتى الآن كافية لاستيمااب السفن ، أما في الناحية التي تطل على يبريه فقد أقاموا رصيفاً تشد إليه السفن ، وتبلغ المياه الملحة حيث تلتقي بنهر يصب في البحر في هذا المكان ، وتقدر المسافة العاصلة بين هذه البقعة ويبريه بضعف رمية حجر ، فإذا جاءت السفن إلى يبريه للمتاجرة مع الجنوبية كان عليها أن تبدأ بتحية القسطنطينية ودفع الضريبة لها ، وتعقد بالقسطنطينية الحاكم الجنائية الخاصة بيبريه وجميع القطر ، ويزدحم

هذان الميناءان على السواحل السفلى التي تحمل البضائع الكثيرة ما بين
صادرة وواردة .

وقد حدث في أحد الأيام أن بعث القبطان القشتالي في طابى إدا لاقى أجد
بحارته القتل على يد يوناني أراد سرقة السفينة ، فتوجهت إليه وأخذنا
الجاني وبحارته إلى الإمبراطور حتى يقيم الحد على القاتل ، وعلى الرغم من
كراهية اليونان لإزالة العقاب بهذا الجرم إلا أن الإمبراطور راعى حاضري ، وقد
حذرت من أن يعمد رجالنا للتأثر لصاحبهم فتقع حريرته على الأرياء ، ومن ثم
أرسل في الحال في طلب الجلاد وأمر بقطع يد الجاني أمام القصر وسئل عيذه ،
فسألت عما يحول بينهم وبين قتله فأجابوني بأن لبس في قدرة الإمبراطور
الحكم بالإعدام ، وأنبأوني أيضاً أنه لما استولى شرلمان على بيت المقدس عمد
كثير من رجاله — في طريق عودتهم — إلى السفر عبر بلاد اليونان ففتك
أهلها بطائفة كبيرة منهم ، فلما علم البقية بما جرى مضوا عبر بلاد القنار وروسيا
حيث توجد جماعات مسيحية ومضوا من هناك إلى المجر وألمانيا ، ويقال إن
شدة جمال روس هذه النواحي يرجع إلى استقرار كثير من الفرنسيين بها
وتزواجهم مع أهلها ، ثم زحف الإمبراطور شرلمان على القسطنطينية وشن
حرباً ضروساً على إمبراطور اليونان ، وانتهى الأمر أخيراً بالصلح بينهم ،
وآلى الإمبراطور على نفسه — تكفيراً عن قتل هؤلاء الرجال — أن يظل
صائماً طول أيام الصوم الكبير الذي يقال إنهم يخالفون في مراعاته (لأن
اليونان لا يستطيعون التوفيق بينه وبين ضمايرهم في أكل اللحم بالدم بل
يقتصرون على الأسماك الصدفية) ، وزيادة على ذلك فإنه لا يمكن الحكم
بالإعدام على كائن من كان مهماً عظمت جرمته ، بل يكفى في العقاب

بقطع الأبدى وسمل العيون ، ومن ثم تحفل بلاد اليونان بالكثيرين من
مبتورى الأبدى والعميان .

وهكذا كانت الطريقة التى أقرت بها الطاغية العدالة ورضينا نحن بما فعل .
وحدث فى أثناء إقامتى بالمدينة أن زحف السلطان التركى إلى مكان على
البحر الأسود حتى أصبح على مقربة من القسطنطينية ، فصور الخيال للطاغية
ولأهل يربيه أن الأتراك قادمون لاحتلال البلاد فتهيئوا لقتالهم وأعدوا
سلاحهم^(١١) ، لكن السلطان التركى مرّ مصافياً للأسوار ، وجرت فى ذلك
اليوم بعض مناوشات ، ثم اجتاز الناحية وفى محبته جمع كنيف من الناس ،
ولقد كان من حظى الطيب أن رأبته فى الميدان وشاهدت أسلوبه فى الخروج
إلى القتال كما شاهدت سلاحه وكراعه وجياده وعتاده ، ومن رأى أن الترك
لا يستطيعون التغلب على جيوش الغرب إن هم التعموا بها ، وليس ذلك
بضعف قوتهم بل لما يتقصهم من كثير من ضروريات الحرب .

وحدث فى هذا اليوم أن حل القوم هدية كبيرة من القسطنطينية إلى الأتراك
حيث يقيمون ، وكنت أعلن أنهم سوف يبقون حيث هم ومحاصرون للمدينة
ولكنهم تابعوا زحفهم إلى البحر الأسود لقتال الجماعة التى كانت قد ثارت ضدهم
وتمرت عليهم ، وكان ما تمنيت إذ لم يكن لدينا إلا القليل من الرجال ، والمقاومة
أمرأ بالغ الصعوبة والمشقة ، ومن ثم كان من أحسن الأمور وقسا على النفس
وإدخال المسرة عليها رؤية مثل هذا الجيش الحرمم وهو يرحل دون أن
ينزل ضرراً ما ينداد أو يرهقه من أمره نصبا ، وكان فضل الله عطياً أن
لم يكن أبناء وطنى قريبين من مسرح هذه الأحداث ، إذ لا توجد هنا قلاع
ولا سفن تحميهم ، وما من سبيل للحماية سوى القتال .

الفصل الثامن عشر

بروسة . بيريه . الرحيل عن القسطنطينة . تلعوز يتقد

بعض الرقيق النصارى . ميتلين . سالونيك .

للصامعة . راحوزا . أسكوتا . سبالانو .

الوحش البحرى

...

وفى اليوم التالى سألت جنويا من أصدقائى له دار فى إحدى المدن التركية التى يسمونها بروسة^(١١٣) الواقعة عند الطرف الأسمى من خليج بيثوميدا^(١١٤) أن يأخذنى معه فاستجاب لسؤالى وأخذنى فى صحبته حيث أبحرنا ، ورأيت المدينة وهى غير مسورة وإن برزت جميع مدن تركيا من حيث الضخامة والجمال ، ويبلغ سكانها قرابة أربع آلاف نسمة ، ولولا الخليج الذى يسلكه التجار فى اتصالهم بالمدينة ويحبون إليها برّا أكثر من الأنباء من فارس لما بلغت هذه الدرجة من الأهمية ، وهى واقعة قرب اليونان ، وقد عنى الترك بها منذ تملكهم إياها لأنها أحد معايرهم من اليونان إلى بلادهم ، وقد أقاموا بها مخازن كبيرة لأنهم يستعملون المدينة كمحطة بحرية فى الطريق ، ولا أعتقد أنه يوجد فى تركيا بأجمعها اليوم مثل هذا السكان فى كبره وازدهاره بالسكان وثرائه ، وقد عدت منها إلى القسطنطينية وبيريه التى خرجت منها أولا .

وسكان بيريه^(١١٥) يقربون من أثنى نسمة ، وهى حصينة التسوير متينة الاستحكامات ، وخذقها قوى ، أما كنائسها وأديرتها فرائعة ، كما يوجد بها

دار للتبادل النقدي جميلة حصة للبناء جيدة للتسوير ، ومبانيها شاهقة فائقة
كمباني جنوة ، وجمهور عامتها من اليونان وإن كانوا تحت حكم الجنوية الذين
يتولون جميع الوظائف ، كما أنها مركز النشاط التجاري للبضائع الواردة من
البحر الأسود وكذلك من العرب ومن سوريا ومصر ، ويمتاز جميع تجارها بالثراء
الفاحش ، وكانت يبرأ تسمى من قبل بقلعه .



بقيت بعد عودتي من البحر الأسود مدة شهرين في القسطنطينية ويبرية ،
ثم أبحرت في مركب من صراكب « أنكونا » مستصحبا معي عبيدي
والحوامج الأخرى التي اشتريتها في كافا ، وركبنا البحر سالكين الطريق الذي
جئنا منه مختلفين القسطنطينية وراءنا ، واجتزنا « أرجلى » و « سيسميريا »
و « صرصة » و « غالبيولي » ، وفي أثناء عبورنا مضيق البسفور قرب الدردنيل -
الذي هو مدخل ميناء طروادة - أصرنا جماعة من الناس يشيرون إلينا بإشارات
خاصة يدعوننا بها للتقدم إلى الشاطئ ، فقال الربان إنه عرف فيهم الأسرى
النصارى الذين يشتهون الهروب في سفينتنا وأنه لا ينبغي علينا الاكتراث بهم ،
إلا أنني توسلت إليه أن يُنزل قارباً إلى البحر ليضي لنا نفاذهم ، ذاكرأله أننا
إذا تركناهم لما هم فيه فلا محجب إن رمانا الله بنكد الطالع ، وصرعان ما استجاب
لى الربان وأنزل زورقاً ركبته أنا وأربعة آخرون ورحلنا نجدهم ميممين الشاطئ ،
فلما أخذنا في الاقتراب منه ظهر جماعة من الترك ، وإذ رأوا أننا قدسنا لأحد
الأسرى شرعوا في الهجوم علينا ، ولما كان ربان السفينة على استعداد لكل
شئ ، فقد أخذ قارباً آخر به عشرون رجلاً مزودين بالسهام والأسلحة النارية ،
جاء القارب إلى الشاطئ وتمت لنا الغلبة على الترك وانكفأنا سالين ياخواننا

النصارى ، وقد أصبت بحروح في قدمي من سهم رميت به ، إلا أنه سرعان
ما اندمل ونجحت في مهمتنا إذا لم نفقد شيئاً لأننا كنا في خدمة الرب .

بحرنا في هذا اليوم تاركين مضيق رومانيا ، وأرسينيا في ميناء « نينيدوس »
المواجهة لغاروادة ، فلما كانت الغداة رحلنا من هناك واشتينا إلى رأس « سانت
ماريا » ، لحقنا إلى جزيرة مالطة التابعة لاجنوية حيث وجدت إمبراطور
طرابيزون الذي كان قد فر من أخيه متزوجاً - كما قلت - ابنة أحد الحكام
بعية الحصول على مساعدته له - وكان الإمبراطور يجمع السفن لإرسالها
إلى طرابيزون لتمثال أخيه ، فراح القوم يستفسرون مني عن وضع الأمور
في طرابيزون كما رأيتها ، فأنبأتهم بالحقبة ، وأن السلطان التركي لو وقف
ضدنا لما استطاعوا القيام بعمل شيء ما يكون في صالحهم وينزل الضرر
بأعدائهم .

ويوجد بهذه الجزيرة كثير من حجر الشب فأوسقنا سفينتنا منه ، حق
إذ فرغنا من ذلك أبحرنا واتجهنا إلى بلاد اليونان سالكين طريق
سالونيك ، وتقوم في هذا البحر جزيرة عظيمة جداً يسمونها جزيرة
« مونت سانتو » كان السلطان التركي - أبو السلطان الحالي - قد حاول
الاستيلاء عليها لولا أن الطاعون نزل بجنده ففك بهم فاضطر كارها لأن
يصادر أسره بترميم جميع ما خربه وتزويد من يعيشون فيها بالموثنة ، هذا
المكان صواب على الصورة التالية ، ذلك أنه يوجد دير عند سفح الجبل
وأخرى منتصفه وثالث عند فته ، ولا يسمح بالأنحراط فيه إلا لمن كان
شريف المولد أو فارساً أو أن يكون كهلاً غير قادر أو ذاعاهة ،

فيأتي هؤلاء إلى تلك البقعة وقيمون في الدير الأول ، ويأخذ الرهبان في مراقبتهم عن قرب ومطالعة أسلوب معيشتهم ، فإن سلكوا مسلكاً كريماً انتخبوا منهم من يبعثونهم إلى الدير الثاني الواقع في الوسط حيث تطبق نفس القواعد ، فإذا أقرّ الرهبان تصرفاتهم بعثوا بهم مرة أخرى إلى الدير الثالث الأخير ، ويقولون إن من يعيشون هناك مشهورون بالقداسة ؛ كما أن المكان مزار كبير للحجاج ويتلقى كثيراً من الصدقات ، إلا أن زائري هذا المكان لا يذهبون إلا للدير الأول ، وجميع الرهبان من اليونان من أتباع القديس باسيل ، وهم لا يقتصرون في الامتناع عن اللحم لحسب بل لا يتناولون أيضاً كل سمك فيه دم .

رحلنا من هناك جاعلين خليج سالونيكاً على يميننا ، وتوجد عند نهاية الخليج المدينة التي ضاعت من البنادقة منذ فترة قصيرة وكان ضياعها على الصورة التالية ^(١٥) ، ذلك أن الترك قدموا مهاجمتها بالرجال برأ والسفن بحراً ، فأخذت البنادقة أسطولاً ضخماً ، إلا أنه يقال إنهم تشاوروا فيما بينهم وانعقد الإجماع على التخلي عن سالونيكاً لسببين أولهما : أنه لم يكن في استطاعتهم مقاومة قوة الترك برأ ، وثانيهما : ما يشكبدونه من تكاليف الدفاع عن هذا المكان ، أضف إلى هذا أن كسبهم منه ضئيل لعدم صلاحية الليناء صلاحية ثامة للتجارة ، وهكذا أثر البنادقة وسواهم من الإيطاليين الكسب على الشرف ، غير أنهم خرجوا بأسطولهم لصد الترك الذين حطموه ولم ينجح منهم أحد ، وبذلك ضاعت مدينة سالونيكاً .

ثم جئنا بعدئذ إلى جزيرة « نيجرو بونتو » ، الواقعة في بحر الأرخبيل ويحكمها البنادقة ، ويقال إنه كان في الأزمنة القديمة جسر يصل بينها وبين

البلاد الأصلية ، ويقطن اليونان الجزيرة التي تزخر بالبساتين الكثيرة
والفاكهة ، ومن هناك أبحرنا في الأرخبيل مارين بكثير من الجرار الآلهة
بالسكان وغيرها من المدن المقفرة منهم ، حتى إذا كان يوم عيد العصرة
استرحنا في جزيرة يدعونها «أوروس» .

أبحرنا في أيام العيد وكانت الريح رخاء في بحر الأرخبيل ، إلا أنه هبت
عند منتصف الليل عاصفة هوجاء تار لها البحر ثورة بثشنا فيها جميعاً
من العجاة ، وكان هناك كثير من النذور التي راح يذرها حجاج الشرق
والغرب إن قُيِّصَتْ لهم النجاة ، وسرعان ما امتلأت سفينةنا بالطيور التي راحت
تخط على أكتافنا ، وقد دفعتها العاصفة للطيران فراحت تنشد في السفينة مدحاً
لها من العرق ، وكان المدهد أكثرها ، ويقال إنه قلما يحدث مثل هذا الأمر
إلا في أثناء العواصف العاتية ، على أننا بلغنا جزيرة «كربت» عند صلاة
الغروب بأشعة ممزقة وقد دفعنا الريح إلى ذلك القسم من الجزيرة المسمى
«بكناي» ، ورحنا نسير أمام العاصفة حتى بلغنا الساحل فأرسلنا عنده ، وبقينا
يومنا وليلتنا هذه وكذلك اليوم التالي حتى العصر ، وكان هناك راهب رآنا
في اليوم السابق ونحن نسير بصوار جرداء من الأشعة ، وراقب السفينة وهي
ترسو عند الشاطئ دون أن يلح خيال أحد يبلغ الأرض ولم ير أية حركة
في المركب ، ومن ثم ركب زورقه وجاء إلينا فوجدنا نائمين ، وكان
العجب قد استبدّ به من قسوة العاصفة في جنح الليل وحتى أن تحمل الريح
كوخه وتدمره ، فلما رآنا قادمين مع الفجر شكر الرب على نجاتنا ،
أما الريان فقد بقي في السفينة يصلح أشعتها ، على حين مضيت أنا ورجالي
إلى الشاطئ في محبة الناسك لرؤية قلايته ، وحملنا معنا ما كان لدينا من الطعام

بالسفينة لا سيما ذلك للتنوع من السمك الذى يأكله الرهبان اليونان ، ولبثنا
فى صحبته ثلاثة أيام فى غاية الفرح ، وبعث هو بعضا مما عنده من القوت إلى
ربان السفينة ، أما أنا فقد لقيت من الأحوال ما لو كنت صادفته وأما فى البر
لما فكرت قط فى أن أركب البحر ثانية .

بيد أننا أبحرنا مرة أخرى فى اليوم الرابع وجئنا إلى « مودون » ، وبقينا
خارجها فترة يومين نظرا لأنها غير صحية ، ثم رحلنا مصافين لساحل بلاد الورد
حتى أدركنا خليج « باتراس » مجتازين جزيرة « كورنو » التى وصفناها^(١١٦)
من قبل ، ثم دخلنا خليج البندقية جاعلين إيطاليا على يسارنا وساحل ألبانيا
على يميننا ، وأبصرنا كثيرا من المدن والقلاع القوية على ساحل البحر ، وطالعنا
مدينة اسمها « فالونا » كان الترك قد استولوا عليها وأخضعوها لحكمهم .

وتفناثر الجزر فى شتى أرجاء البحر هنا ، وبعضها أهل بالسكان والبعض
الآخر مقفر غير مسكون ، وحين بلغنا ساحل « إسكلافونيا » جئنا إلى مدينة
اسمها « راجوزا » تابعة لإمبراطور ألمانيا ، وبسى إقليم إسكلافونيا بأقليم
« دلاشيا » ، وتكثر فى هذه النواحي أجمل أنواع الصقور وذلك لأن الأقليم
جبل مرتفع ، كما أن أهله أطول من كل قوم رأيتهم فى أى مكان آخر ،
ويقال إن فى دلاشيا وألبانيا كثيرا من مناجم الفضة .

ومدينة « راجوزا » شديدة الحصانة ، وهى تقع على نحد مرتفع يشرف
على البحر وحافلة جدا بشتى أنواع البضائع ، كما أنها تواجه إيطاليا ويستطيع
المرء أن يرى من الجانب الآخر « أنكوتا » وضواحيها ، وقد أقنا هنا يوم
رحلنا بعده إلى « أنكوتا » لأن سفينتنا كانت مرتبطة بالمضى إلى هناك
لتفريق بعض حوثها ثم الذهاب إلى البندقية ، وصادفنا فى هذه الليلة عاصفة

قوة، فلما كان وقت غروب اليوم التالي بلغنا أنكونا وأرسيينا عندها ثم
نزلنا إلى الشاطئ .

أما بآسكونا أربعة أيام ، وللمدينة بجميع نواحيها من أملاك الكنيسة ،
وهي محكمة التحصين منيعة الأسوار ، وجميع دورها مخروطة البناء شاهقة
الارتفاع على عطف دور جنوة ، ويزعّم الناس فيما يزعمون أن باني جنوة وأسكونا
واحد ، ويتعلّى بأوضح صورة من مبانيتها أنها موهلة في القدم ، وهي مركز حي
للتجارة ، وتبنى بها كثير من السفن التي تشق البحار بما تحمله من البضائع ،
كما أن أهلها يحترفون في البر التجارة أكثر من سواها ، والأقليم زاخر
بالحبوب والخور والفاكهة وبكل ما تتطلبه الحياة ، وكان قد أشيع وقتذاك
أن الكونت فراشسكو - الذي كان قد غزا جزءا كبيرا من الناحية -
راغب في الاستيلاء على أنكونا ، فأخذ أهلها في الاستعداد للدفاع عنها ،
وعلمت بعدئذ أنه قام بهذه المحاولة لكنه عجز عن دخول المدينة .

أبحرنا بعد أربعة أيام واقتربنا من دلاشيا ، والساحل غاص جدا بالبحارة ،
ومرجع ذلك أنه مرغا أمين رائع لا يوجد له أي ضريب على الجانب الإيطالي ،
وإذ مرغا على طول ساحل دلاشيا - ومررنا بكثير من الجرائر المأهولة وللقفرة
كما هو الحال في جزء الأرخبيل رغم أنها في حجمها وتعداد سكانها ليست
كبيرة - أقول إذ مرغا على طول هذا الساحل بلغنا مدينة إسمها « سبالاتو »
وتقع هي الأخرى في دلاشيا ، وقد ولد في هذه المدينة القديس « جيروم »
والقديس « كريستوفر » . ويوجد هنا لسان من البحر يمر بقريّة صغيرة يقال
لها القديس كريستوفر حمل بها الفقراء الذين عجزوا عن دفع أجرة القوارب ،
ولا تزال حتى اليوم آثار دارى هذين القديسين ماثلة .

وطالما حدث في كثير من المرات أن اختفت النسوة اللاتي يغسلن ثيابهن دون أن يعرف أحد ما السبب، وكان اختفاؤهن في الخليج الذي يمتد داخل الأرض، وقد حدث ذات يوم والنساء كعادتهن في الماء - أن ظهر وحش نصفه الأسفل على شكل سمكة ونصفه الأعلى آدمي وله أجنحة كالخفاش، وهاجم إحدى النساء وأمسكها ثم غاص بها تحت الماء، فلما سمع النسوة الأخريات صراخها الذي ترامي أيضاً إلى سمع بعض الرجال الموجودين هناك هبوا إلى الناحية التي كان العراك ناشباً فيها بين الوحش والراة، لكنه لم يدعها تغلت من بين يديه رغم مهاجمتهم إياه، وقد أصابوه بحرح وسحبوه إلى الشاطئ حياً، وبقي على هذه الحال ثلاث ساعات أو أكثر حتى مات، ومن ثم لم يعد شك في أن النسوة اللاتي اختفين من قبل قد وقمن فريسة لهذا الوحش الذي أخذه القوم وبقروا بطنه وحشوه ملأها وبعثوا به إلى مجلس البندقية كي يرسلوه إلى البابا يوجين، ورسحت له صورة حمات إلى قشتالة وإلى كافة أرجاء الدنيا، ولم أر الوحش لكنهم أنباؤني نبينه ولم يكن قد مضى وقت طويل على ذلك الأمر.

وهذا المكان اسقفية، ولقد رأيت في بلاط البابا أسقفها وهو من

من أهل فرنسا

الفصل التاسع عشر

البنديقية . الحج الجديد . الاسفلاء على صانع

مظفور ثم ردعا إليه . حفل عرس البحر .

كنز القديس مرقس . الإمبراطور

بربروسة والبلنا .

...

فأدركنا سهولاً وبلفنا بلدة تدعى «بارزو» التي تقع عند رأس دلماشيا قبالة
البنديقية ، ويحكمها سيد إقطاعي ، وبتحتم على السفن الراغبة في الوصول إلى
البنديقية أن تلتقي مراسيها بها أولاً في انتظار الفرصة لدخول المضائق الواقعة
بين القلعتين ، ويتوفر الملجأ الطيب والرسي الواقع على طول ذلك الشاطئ ،
فما كان اليوم الثاني أبحرنا إلى مياء البنديقية وألفينا كثيراً من السفن الراسية
خارجها في انتظار الإقلاع ، ومن بينها غراب لبيت للقدس دلت عليه
بيارقه ، فلما سألنا القوم عن هذا الاستعداد في كل شيء ذكروا لنا أن اليوم
يوم الصوم وأنه مفروض على كل شخص - بعد سماع القداس وتناول البركة -
أن يمتص إلى سفينته استعداداً لرحيل ، وكنت في مثل هذا اليوم وفي مثل
تلك الساعة منذ عامين قد أبحرت قاصداً بيت للقدس ،^(١١٧) وسألت عما إذا
كان هناك بين الحجاج قساليون ، فأتأوني بأن «جوتير صكيادادا»
و«بيرو بارقادي كامبوس» ذاهبان إلى بيت للقدس وأنها الآن في المدينة
لمشاهدة الاحتمالات التي كانت قائمة على قدم وساق ، فدخلنا الميناء وزلنا
أمام كنيسة «سنت مارك» (القديس مرقس) ، واتجهنا في الحال إليها لسماع

«القدس حيث ألبينا حشداً كثيفاً من الناس احتفاءً بما أصابه البنادقة يوم
 السعود من نصر عظيم على الإمبراطور ربروسة ، كما سأروى خبره فيما بعد .
 وهذا وحزت «جوتير كيسادا» و«يرو بارقا» و«ولوس بايخاس»
 و«خوان دى أجيلو» أخا «فرناندو دى أجيلو» وسواهم من القشتاليين
 الذين سردت بهم كثيراً ، ولم يكونوا دونى سروراً بتلاقيهم إياي ، ولما كانوا
 عاصين إلى بيت المقدس فقد كانوا ملّين فأحسن الوسائل في الرحلة ، وأنبأهم
 أما من جاني بما يتعمّم عليهم أن يخلّوه ولم تكلفهم هذه السفرة ، لكن يبدو
 إلى أنهم اشتقوا فيما بينهم على أنفسهم وسافروا في مواكب متفرقة ، فبذلت
 غاية جهدي للتوفيق بينهم فلم أفلح في مساعي ، وهكذا غادر بعضهم
 المكان إلى المركب الشراعى ، ومضى الآخرون إلى المركب الذى خصص
 للفقراء ، وتغدينا معاً ذلك اليوم ، وبعد انقضاء الاحتفال وتناول العفران التام
 ضد الخطيئة والعقاب وبمسد البركة رافقهم إلى البحر وشاهدتهم وهم
 يرحلون مبكرين .

ثم عدت مع بقية القشتاليين إلى المدينة فوجدت القوم قد استولوا على
 ما كنت قد جيبته في السفينة من بضائع ومن بينها العبيد وغيرهم بحجة أنه
 لا يتأتى لأحد ما أن يحلب تجارة من البحر الأسود إلا إذا كان من أبناء
 البندقية ، وأنى لم أبىء السلطات المجرية بما مى ؛ ولما كان هذا اليوم يوم
 عيد ضخم فقد احتشد الناس في قصر القديس مرقس واصطفوا على أبداع
 صورة ؛ ثم دخل القصر سبعة فرسان أو ثمانية يرتدون شارة الإمبراطور
 «سجسمند» التى أحملها ؛ فذهبت في التوّ إليهم وشكوت لهم ما وقعنى ؛ وإذ ذاك
 اصطحبوني إلى الدوج وهو حاكم البلد ؛ وذهب إلى هناك أيضاً القشتاليون

الذين كانوا موجودين ؛ وتحديث إلى الهوج - وكان في محله - ورفعت
إليه شكواي ، فسألني أعضاء المجلس أن أتغيب برهة حتى يناقشوا الأمر
فيما بينهم ، وسرعان ما نادوني قائلين :

« أيها السيد الفارس ؛ حقيقة أن عندنا قانونا يحرم على أي شخص من
غير أهل البندقية أن يجلب معه إلى هذه المدينة شيئا ما من البحر الأسود
أو ساحل الشام ؛ فإن فعل ذلك صودر كما صودرت بضاعتك وفق هذا
القانون الذي يجب أن يطبق على التجار ؛ وممتلكك تحول بيدك وبين المتاجرة ؛
أضف إلى هذا أن ما تحمله معك إنما هو لنفسك ومن ثم فإن القانون لا ينطبق
عليك ، وسترد إليك بضاعتك ، وإذا كان في القانون ما هو غير ذلك فإن
المجلس سيمنحك بدقه ؛ كذلك فإننا سنؤدى لك جيلا أكبر نظرا للأمة
النبيلة التي تنتمى إليها ، ذلك أننا لن نكتفى برد مالك إليك بل سنمنحك
إجازة لنقل بضاعتك أنت شئت ، وهذا امتياز لم تجر المادة منعه لأي أحد ما
إذ يستعمل لإخراج شيء من البندقية يكون قد دخلها » .

فاستأذنت بعدئذ في الانصراف من الهوج الذي قدم إلى أعطيات طيبة ،
وانصرف معي أولئك السادة الذين صعبوني ولم يتركوني حتى بلغت مقامي ،
كما بعثوا إلى في ذات اليوم نبذاً وحلوى ووسائل مسلية ، وكانوا كل فابلوني
بالنوا في الرحاب بي كما لو كانوا من عشيرتي الأقربين .

وفي يوم الصعود أقاموا احتفالات كبرى وعرضوا جميع مدحرائهم ومن
بينها كنفوز القديس مرقس ، وعرضوا المجوهرات في الشوارع عند أبواب
المنازل ، وأخرج الصيارفة للفرجة ما لديهم من ذهب وفضة ، وطلع الرجال
والنساء في أبهى ما لديهم وتزينوا بمالي الجواهر .

ويذهب الدوج في هذا اليوم في أبهة بابوية وزينة إمبراطورية، وهذا حق
 له في هذا اليوم كما يقولون ، وتحري الاحتفالات الصالحة ، حتى إذا فرغ من
 سماع القداس ذهب مع جميع رجال الدين إلى البحر وركبوا السفن ؛ فيركب
 الدوج واللوردات في سفينة تدعى « بوتشورو » ، وهي أكبر ثلاث سرات
 من الغراب وضعت حجم المراكب ويجلس الجديفون في قاعها لا يرام أحد ،
 وتغطي السفينة كلها بقماش من الذهب ووسطها بالسجاد الجميل ؛ فإذا وفد
 أعراب أو رجال من عاية القوم أخذهم بها أيضاً وهم يحملون الصليبان والرايات
 الصغيرة المثلثة التي أسرف القوم في تطعيمها بالذهب ؛ ويصبح البحر غاصاً
 بالسفن حتى قل أن ترى الدين مائه ، فيبحرون ويمضون إلى مدخل الموانئ
 حيث تقوم القامتان ، وهناك يقف القديس يلقي خطبة خاصة ويمنع الناس البركة
 ويرشهم بالماء المقدس ، ويسحب الدوج خائفاً من إصابته ويقذف به إلى البحر ،
 وهذا - كما يقولون - تقليد قديم لزواج البحر بالأرض لثقت غضبه لقيام
 مدينتهم عليه وثوقه بجميع ما يملكه عليه .

ويفرغ القوم من ذلك قبل ساعة من قيام جميع السفن ، وبعد مواهب البركة
 ينشرون أشراعتهم ويمضون في سبيلهم وهو أمر فريد يستحق المشاهدة . ثم يعود
 الدوج مع جميع كبار رجالاته إلى ساحل رملي بين القلعتين حيث يقوم دير
 معروف للإخوان ، وهناك يمدرون السفن ويمتثلون جميعاً مع الدوج ؛
 كل ذلك على نفقة الخاصة ، حتى إذا كان المساء عادوا إلى المدينة .

وفي هذا اليوم ذهبت لمشاهدة ثروة القديس سرقس ، وذهب معي فئة
 خاصة من أهل المدينة حتى أشاهد كل شيء رغم أن كل شيء كان معروفاً
 للعبان ، وهناك أصبحت مقادير هائلة لا سيما من التؤلؤ والأحجار الكريمة

وكيات من الياقوت الأحمر والساس والياقوت من بينها ثلاثة أحجار في ثلاثة
شمعدانات ولكنها غير مثبتة حتى يتمكن المرء من تناولها بيده ورؤيتها .

وهناك تيجان الأساقفة محلاة بالآواثر والأحجار الكريمة والفضة ، وكذلك
صدارى الكهنة ، منطاة من الأخرى بالجوهريات والآلى . وكيات كبيرة من
الذهب والفضة ، ويقولون أيضاً إنه توجد قطعة نادرة من العقيق الأحمر ،
والواقع أنه يوجد ممرض أصغر من الثروات لم أره قط ، كما يوجد رف
خلف المذبح قد غطته الآلى . والأحجار الكريمة ولكنها لا أستطيع
الإسهاب في الكتابة عنها لأن ذلك يستند جزءاً كبيراً .

ويقول البنادقة إن الإمبراطور بربروسة حارب البابا كي يستولى
على جميع أملاك الكنيسة مما حمل البابا على الفرار والالتجاء إلى البندقية حيث
بقي فترة طويلة في أحد الأديرة دون أن يكشف أحد أمره^(١١٨) ، حتى تأتي
لواحد أن يعرف السر ويراه ، فأفضى بالنها إلى المدوج الذي ذهب مع رجال
مجلسه للبحث عن البابا في هذا الدير ولكنه لم يستطع العثور عليه ، فأمروا
بإحضار جميع الإخوان وأنزلهم إلى المطبخ ، وإذ ذلك وجدوا البابا لأنه كان
الطاهى فأخذوه وحملوه معهم والبسوه اللبس الخاص به وأنزلوه في قصر
الضيافة وأحاطوه بالتوفير ، وكتبوا أيضاً إلى رومة وإلى جميع نواحي إيطاليا
ذاكرين أن البابا عندهم ، وأفضوا بالخبر إلى الإمبراطور متوسلين إليه أن يرد
إلى الكنيسة أملاكها حتى يعود البابا إلى رومة موقراً ، فاستشاط
الإمبراطور غيظاً من البابا والبنادقة ، وجهز أسطولاً قوياً بالسلاح قصد به
البندقية حتى شارف الحصنين حيث كان للبنادقة أسطول ضخم هناك

أخرجوه لصدده ، فقاتلوه وأزلقوا به المزيعة حتى ألزموه الفرار ، وأخذوا ولده أسيرا عندهم .

والتمس ابن الإمبراطور — حين وضموه في السجن — من البابا إطلاق سراحه ، فاطمأ والده على نفسه له بأنه سيجادل إعادة أبيه إلى الطاعة ، فبن فشل في محاولته عاد إلى الحبس .

فاستجاب البابا بعد استشارة المجلس ، وبعث به في هراب إلى مدينة «أنكونا» حيث كان أبوه ، فحكّم معه وتوسل إليه أن يعود لسابق طاعته للبابا والخضوع له وأن يرد إليه ما كان له من قبل ، فلما باءت محاولته — في إقناعه — بالفشل عاد إلى حبه .

بoud أنه لم تسكد تنقضى أيام قلائل على هذا الأمر حتى أرسل الإمبراطور مبديا رغبته في السماح لابنه بالعودة إليه ثانية للتحدث معه رغبة منه في استجابة الاقتراحات التي قدمها إليه بشأن البابا ، فالتمس الابن الإذن من البابا ومن المجلس كما فعل من قبل ، وقبل الشروط وأجر مرة أخرى . ووفد على والده الإمبراطور الذي وافقه بمحض إرادته ، بل لقد أقر بما ارتكبه في الماضي من سوء ، ورعب في الخضوع للبابا وإعادة ما كان أحذه منه ، والتمس عفو عنه ووضع نفسه بين يديه .

وعاد الابن بهذا الاتفاق إلى البندقية حيث عم السرور من جراء جواب الإمبراطور الطيب ، وجهزوا أسطولا كبيرا أرتفع التسليح ركب فيه أكبر رجالات البلد وملتووه بالعدو وجميع الضروريات اللازم حملها لسيد عظيم مثله ، وحاءوا إلى مدينة أنكونا حيث تلقاهم الإمبراطور لقاء كريما ، ودخل

السفينة بنفسه وشخص إلى البندقية حيث عومل معاملة رائمة جداً ، ومصوا به إلى كنيسة القديس مرقس ، ويقال إنهم وضعوه عند بابها منبطحا على الأرض حتى يمر البابا من فوقه ، ومن ثم كان ما أرادوا حيث خرج البابا من قصره ودخل الكنيسة بعد أن وطأ يقدميه الإمبراطور وهو يردد الآية القائلة
Super aspidem et basiliskum ambulabis etc.

فأجابه الإمبراطور: «ما قيل ذلك لك، ولكن قيل للقديس بطرس». فرد عليه البابا قائلا: «ما قيل للقديس بطرس فهو لي، وما قيل لي فهو للقديس بطرس».

ثم أنهض ومنعه بركته ، وسأله الإمبراطور العفو والغفران ، واعترف بأنه أخطأ فسأحه البابا ، وفي الحال رد الإمبراطور إليه جميع الممتلكات الكنسية التي كان قد استولى عليها .

ظل الإمبراطور في البندقية عشرة أيام وسط مظاهر الفرح الكبرى ، وقام الدوج بمواقة البابا والإمبراطور إلى أسكونا في أسطول وبصحبة جميع كبار لوردات الإقليم .

وفي أسكونا أقام الإمبراطور استمدادات ضخمة لاستقبالهم ، إذ كانت المدينة بشغورها إحدى ممتلكات الكنيسة الفنية ، وبقي الجميع بها عشرة أيام أخرى وهم في احتفال غادر بعدها البابا والإمبراطور إلى رومة ، وعاد الدوج مع جماعته إلى البندقية .

ومما يروى أن البابا والإمبراطور طلبا إلى الدوج أن يسألها ما يريد منها لما أداه من عمل جليل ، وأخذوا العهد على أن يحياه إلى ما سأل ، فالتس

الدوج منها الحق في أن يستعمل دنكها فأجاباه إلى ما التمس ، ولا يزال
الدوج إلى اليوم يستعمل الرنوك البابوية والإمبراطورية .

ثم استأذنها الدوج بمتحف في الرواح ، وانصرف إلى البندقية حيث صور
القوم تاريخ هذا الخبير تصويراً عظيماً في قاعة كبرى هي أعظم وأغنى قاعة
في القصر المثل على البحر . وهذا هو السبب الذي من أجله يقيم البنادقة هذه
الاحتفالات يوم الصمود لأنهم في مثل هذا اليوم أحرزوا النصر ، ثم منحهم
البابا النفران الكامل للخطيئة والعقاب والذي لا ترحل السفن حتى تناله .

الفصل العشرون

مدينة الهندية ، الحدود ، كنيسة القديس مرقس ، الحكومة ، التجارة ،

ثراء الشعب ، التزيينات الصحية ، دقة المداقة ، الزراعة ،

البرصتان ، أملاك الهندية ،

.....

مدينة الهندية شديدة الازدحام بالسكان وتقع وسط إقليم كبير ، وبوتها شديدة التلاصق بعضها ببعض ، ويقال إن عدد قاطنيها يبلغ سبعين ألف نسمة ، أما الأحاسب والعمال - ومعظمهم من الرقيق - فكثيرون جدا .

وايس لمدينة أسوار ولا قلاع غير حذين الحصنين القريبين «ميناء لأل الدفاع عنها إنما يكون بحرا ، فيمد القوم سلسلة من أحد الجانبين إلى الآخر ليكونوا آمنين على أنفسهم ، ولو حدث أن هاجم العالم كله المدينة لا كفى الهزيمة إغراق سفينة واحدة بين الحصنين في القنطرة وإذا ذلك يصحرون و أمن وسلام .

والمدينة مبنية على البحر ، وتشقق قنوات مائية صناعية تستطيع القوارب السير فيها ، كما توجد في بعض أواحيها شوارع يستطيع الناس المشي فيها سيراً على الأقدام ، وتوجد الجسور في الجهات التي تكون القنوات بها أضيق من أن تحرقها القوارب ، وإذا كان لكل فرد من قشتالة دابة للركوب فإن لكل مندق ها قوارب وعبدا مهمتهم التجديف والقيام على خدمته ، وإذا كنا نتفاحر بالجواد الجميل والوصيف الأنيق النزة فإن للسفينة يتباهون بقواربهم التي

يباتون في المحافظة عليها ، فيملقونها تليقا جيدا وتزودوها بالحشايا والأرائك حتى ليستطيع الفرد أو الإثنان أو أكثر من ذلك السفر بها .

والطرق التي توصل المدينة بالأرض الرئيسية صناعية ، ولا تستطيع الوصول إلى هناك سوى القوارب الصغيرة لعدم كفاية الماء اللازم للقوارب الكبرى ، كما أن القنوات ضخمة ورملية القاع ، ومن ثم لا تستطيع السفن الكبرى ولا الدواب دخول المدينة أو مغادرتها لإحاطة الماء بها من كل جانب . ومن أجل هذا يقولون إن البندقية أجل حصن في العالم ، فتذهب القوارب إلى الداخل لجلب الضروريات وإحضار مياه الشرب .

ويستعمل البنادق سفنا كبيرة خاصة ويعاؤونها بالرمل ويوجد في قاعها فجوة ذات غطاء ، فإذا دخل القارب نهرا عذب المياه رفعوا الغطاء وملؤوا القارب إلى أقصى قابته ثم أحكروا سداده ، وذلك هي طريقهم في حملهم للمياه اللازمة لهم ، وتوجد في جميع بيوتات البندقية صهاريج تخزن المياه ، كما توجد صهاريج عامة من الطوب فوق البحر قد شيدت على صورة معبدة يستعمل منها على الماء - كما شاهدت في صهاريج بيت القدس - أن يأمن أو تحبث رائحته كما يحدث في بعض الأماكن الأخرى ، غير أن وصف جميع أساليبهم في تخزين المياه أسير بطول شرحه .

والمدينة غاصة بالكنائس والأديرة الفنية التي بالغ القوم في الإسراف على تشييدها ، ومن أعظمها وأضخمها كنيسة القديس مرقس التي هي كبرى الكنائس بأجمعها وأعظمها كلها ، وهي ذات قباب على النمط الإفريقي ومغطاة من خارجها بالرصاص وذات سقف مذهب ، كما أن داخلها محلى بالقيسفاء وكذلك أرضها ، وإن كان ما بأرضها من القيسفاء أكبر حجما وأكثر ألوانا ، ويوجد عند

جانب المدينة الرئيسي قوس نصر عليه أربعة جياض ضخام من المعاس اطلت
بالذهب الكثيف ، وقد نقلها البنادقة إلى هذا المكان تحايذا للنصر الذي
أحرزوه يوم استيلائهم على القسطنطينية ^(١١٩) .

ويقوم قبالة هذا الباب ميدان فسيح أكبر من ميدان مدينة المعسكر ،
رُصِّت أرضه بالآجر ، وأحيط بدور متعددة الطوابق والأروقة ، وينفذ السوق
هنا يوم الخميس من كل أسبوع وهو سوق أكبر من سوق Torro del Campo .

ويوجد على أحد جانبي هذا الميدان برج ^(١٢٠) شاهق الارتفاع بمادل
برج أشبهلية طولا ، وعلى قمته صليب من الذهب الرقيق ، وهو من أجل ما تراه العين
حتى إن العين لتعالمه في ضوء الشمس من مسافة ثمانين ميلا ، وفيه من
الأحراس ما يذق أحدها لأقداس ، وثانيها لصلاة الغروب ، وثالثها للدعوة
المجلس ويسمونه بنافوس المجلس ، ورابعها عند تسليح الأسطول ، ولكل هذه
الواقيس رنة تميزه عن سواه .

ويوجد على الجانب الآخر من هذا الميدان في مواجهة البحر عمودان
كبيران باسقى الارتفاع ، يملو أحدهما تمثال القديس جورج مع الثور ، ويرقى
الآخر تمثال القديس صرقس حامى للمدينة ورابعها ، وقد حى بهذين التمثالين
من القسطنطينية أبصا ، ويقولون إنه لا يوجد ثم أحد يستطيع ارتقاءهما ، غير
أن فشتاليا نسلةهما وبلغ ذروتها ، وإذا ذاك أمر البنادقة بأن يال كل ما ينسى
فلم يطلب لنفسه شيئا ولكنه جاء إلى بعض سلام على مقربة من العمودين ،
واتمس ألا بمقد القضاء فى أى مجرم مهما بلغ جرمه لو أنه لجأ إلى هذه السلام
مستحييا ، غير أن المحتالين الآن يلعبون لليسر هناك ويعتفون غير ذلك من
المسكرات وهم أنسنة تلجج بالنساء على الرجل الذى أتاح لهم هذا الصمان .

ويوجد بين هذين الممودين وبين كنيسة القديس مرقس قصر الضيافة الذي يقيم الدرج مع أسرته في ناحية منه ، أما بقية القصر ففتوح لكل من أراد مشاهدته ، وكذلك الفاعة الكبرى التي ذكرت آنفا كيف صورت بها قصة البابا والإمبراطور والتي يعقد بها المجلس اجتماعاته ، كما توجد قاعات أخرى رائعة التأثيث حيث يجلس القوم للفصل في القضايا ولم يسجنهم ، وتوجد تحت الأقواس - تجاه الميدان الكبير - بعض أحجار معينة من الرخام منها ثلاثة ملونة لشئق النبلاء ، والبقية لشئق الأفراد العاديين .

وبترك الأجانب في هذه الأدوة أسلحتهم ، كما توجد بها بعض جلود الحيوانات المسماة بالتمساسيج^(١٢٢) التي يمت بها سلطان مصر إلى السنيور باعتبارها أكثر الحيوانات مدعاة للفرح ، والواقع أن هذا القصر رائع جدا .

وللهناذقة قانون يحرم على من ليس بالنبيل أن يصير دوجا أو يتولى مركزا في الحكومة ، وهو قانون يلتزمونه على الدوام ولا يحيدون عنه إلا لسبب خاص ، فإذا انتهى العشاء من كل يوم أحد دقوا ناقوس المجلس في ذلك البرج الذي تحدثت عنه ، وحين ذاك يلتئم شمل كافة النبلاء ويتذاكرون جميع ما جرى خلال ذلك الأسبوع من مسائل حكومية وإدارية وقضائية وغير مستثنين من ذلك سوى المسائل التي يتناولونها في اجتماع المجلس السري لاسيما شئون الحرب .

ويتألف هذا المجلس السري من الدوج والندوين ، وتبدو الجمعية أشبه بالبلاط الملكي ، وتوجد عند أبواب القصر القوارب العدة ، ويقف والوصفاء في حللهم الراحية ، وإذا ذاك يخرج النبلاء من القصر ويذهبون إلى بيوتهم .

ونقضى أوامر الحكومة بأن يقصر شراء البديد أو الخبز أو الفصح أو الربت على الأجانب والفقراء فقط دون المواطنين ، حيث تبع لهم ما تمكن يحيل معها أنها لا تدر ربحاً لأولئك الذين جلبوها من أطراف الدنيا ، ولكن الحكومة تتولى الدفع بدلا منهم حتى تقوم لهم ، وحتى لا يندو الغريب أو الفقير في حاجة إليها ، والواقع أنني لم أرى في بلد ما حكومة توفر لشعبها ضرورات الحياة وترحسها له كما تفعل هذه الحكومة ، ويبدو أن الفواكه التي يأتون بها من أسبانيا تستهلك في البندقية طارئة ورخيصة كما لو كانت في بلدنا ، وكذلك القول فيما يحلبونه من بلاد الشام ، وكذلك لو أراد المرء شيئاً من الهند لأن البنادقية يتصلون بحربا بجميع حواشي العالم ، وهم يستوردون مع تجارتهم أشياء أخرى لإعالة الأهلين .

والبنادقة فاحشو الثراء ويتاجرون في أشياء كثيرة فيكون دخلهم كثيراً من الربح البسيط ، كما أنهم يبيعون ما يبيعون بشئ منقول .



والبيوت رائعة جداً ، شاهقة الارتفاع ، متعددة الطوابق والمداخل ، ومعمرة بدهاليز ونوافذ عدة مغطاة على الشوارع ، وهي محلاة بالذهب والرخام واللون الأزرق ، ويفخر الناس القريبون بل والبعيدون بكومهم بنادقة مواطنين لكي يعموا بمطعمها كما هو الحال مع ملك قبرص ومركز ما تتوا ومركز مونتفرات الذين لهم — كما لسائر كبار اللوردات والهرسان — قصور رائعة في المدينة .

واقدر رأيت بها كريدبال قبرص — أخا الملك — وكان مارلاً بهيت شقيقته وهو إيداك على وشك الرحيل إلى قبرص ، وكان العارب المحدث نقله

مربوطا إلى باب منزله الذي قابله به وجّهت معه المدينة ، كما يوجد غيره كثير من القوارب — ما بين صغير وكبير — قد شدت إلى أبواب بيوت أصحابها .

وبالبلدية كثير من الأديرة الرائعة المظلمة التي تزيد على ثمانين ديرا للرجال والنساء وأكثر من خمسين كنيسة ؛ وتحفل بجانب كبير من الآثار المقدسة وأجساد البارّين كجثمان القديسة هيلينا والقديسة ملدينا وساقى القديس كريسٲوف من الركبة إلى القدم ؛ هذا إلى جانب كثير من عظام الطاهرين وما لا يحصى المدّ منها مما أحضره البنادقة معهم من القسطنطينية حين استيلائهم عليها .

وطائفة العامة غنية على غير المألوف في هذه الطائفة ، وهذا أمر قد تبينته أثناء السكرتال في حفل تنكّري أقيم بقصر الدوج ، فقد جاءت بالبحر ستة فئتان كان من المفروض أن تقل إحداها الإمبراطور الذي وفد مع ثلاثين فارسا في أثوابهم الموشاة الزاهية ، وجاء في السفينة الأخرى الأستاذ الأكبر لفرسان رودس الذي تدثر بالقطيفة السوداء ، وكانت السيدات اللاتي استقبلنهم قد تسربلن بالحرير المطرز ، وتحلّين بالجواهر الغالية ، والحق أنني رأيت بعضهم وقد لبسن ثلاثة أثواب مختلفة في الحفل ولم يمدّد هذا الأمر من إسرافا ، وكلّ جعيما من أهل الطبقة الوسطى في المدينة وآسن من الطبقات العليا أو الغنية ، ومع ذلك فلم يكن في الإمكان جعل الحمل أحسن مما هو عليه .

والمدينة نظيفة لاسير بها نظافة العرقة الرائعة ، هذا إلى أنها مرصوفة ومبلطة ، ولا تستطيع دابة على أربع أن تدخلها ، فإذا كان الشتاء لم ير للداء أثر في شوارعها ومن ثم فلا يوجد الطين ، ولا يتور البخر إذا حلّ الصيف ، وتعمر مياه البحر هنا ثم تنساقط — وإن كانت أقل مما هي عليه في العرب —

ها قربل القدارة من الأماكن المقدسة وإلا كن من المستحيل العيش مع
المتانة ، ويقولون إن الجو يكون موبوءاً في بعض الأحيان ولكنهم يشعلون
الديران صيفاً وشتاءً ويحرقون كثيراً من العطور ، ويحمل الناس معهم العطور
والتوابل التي تطحن في الشوارع وتندثر فيعيق الجو بأبدع رائحة لذيذة .



ولم يكن مسموحاً للحكام حتى وقت قريب - بحيازة الأملاك في البلد ، غير
أنه لما ازدادت قوة السادة بحراً وبراً واكتسبت ولايات كثيرة سمح لهم
بالاستقرار في الأرض الأصلية ، فإذا دعت الضرورة الناس للذهاب هناك
لترويج عن أنفسهم كان لهم ذلك ، كما أنه إذا انتشر أحد الأوبئة استطاعوا
أن يجدوا مكاناً يفرّون إليه .

ولا يفادر الدوج المدينة لأي سبب من الأسباب إلا إذا ذهب إلى دير
القديس جورج وهو على مرمى حجر من البحر من قصره ، فإذا عمّت المدينة
الوباء^(١٣٣) انفتحت إليه ، وقد حدث ذات مرة أن مضى أحد الدوجات إلى الدير
فرأى من طاعون احتاح المدينة ، وانطلق كل شخص إلى الداخل فلم يبق بها
سوى الفقراء ، وحينذاك جاء إلى الدوج أحد أكاربه وقال له :

« سيدي القورد ، إن لديك الآن فرصة لم تنح اشخص ما ، فعندك ثروة
البندقية ، وقد غادر المدينة جميع كباراتها ولم يتحلف بها سوى الأعراب
والفقراء ، فاعمل ما بدالك واحتجج الثروة وضع التاج على رأسك ، وأنت تملك
ملك البندقية ، ويظل التاج على رأسك دائماً أبداً » .

فلامه الدوج على ما قال لوما شديداً وبقي الأمر سرا مكتوماً ، غير أنه

بعد مدة وحيزة نال البعض الدوج بالسوء ، فكرر قريبه المصيحة التي أرحاه إياه وقال « إنها تجديه نفعا ما دام لن يصير ملك البندقية » ، حتى هذا القريب أمام المجلس ليعرف أعضاؤه صدق ما قال ، وضيقوا الخناق عليه فاعترف بكل ما حدث ، وإذ ذاك مضى السادة أعضاء المجلس إلى الدوج وسألوه عما إذا كان حقا ما قيل ، فأبأنهم بأن الأمر جرى كما قال صاحبه ، فتشاور الأعضاء فيما بينهم ، ثم بحثوا في استخدام الدوج وشكروه على إخلاصه لوطنه ، ولسكنهم التمسوا منه — وقد لاذ بالصمت في مسألة كانت تنطوي على خطر كبير للدولة — أن ينتظر مشورتهم ، ثم إنهم أوفدوا أمرهم بإجزال المنح الكبيرة على زوجته وأبنائه ، ولكنهم أمروا بقطع رقبتة حتى لا يجرؤ أحد ما على كتمان أمر بمس السلامة العامة ، وإذ ذاك جمعوا في القاعة الكبرى التي ذكرتها جميع أسلحة الدوجات منذ البداية حتى وقفهم هذا ومها أسلحة الدوج الذي قتلوه وغطوها بالقطيفة السوداء .

ويغتر البنادقة بأنهم أوقفوا عقابا ظل عاقبا بالأذهان ، فقد كان هناك مواطن يفترض في أمر معين ضد المدينة فأمروا بقتله وأحالوا داره مسلحا ، وأقاموا له تمثالا معلقا بالسلاسل .

وتم آخر قتلوه لجرم اقترافه وتركوا بيته بلا بلب يفاق عليه ، وأصبح لزاما على من يعيشون هناك بذل أقصى ما يمكنهم بذله لصالح البلد .

وفي أثناء وجودي بها تقولوا شيئا ضد كاشن كومت « كارمينولا »^(١٢١) وزعموا إنه ضالغ في مؤامرة ضد المدينة ، فاستقدموه إليهم بعد أمان ، ثم ألقوا القمص عليه وانتزعوا لسانه عن آخره وتفتنوا في تعذيبه بوسائل أخرى حتى

مات فدفنوه في كومة روث ، ونصبوا عليه حجراً نقشوا عليه هذه الكلمات :

« هنا يرقد الخائن كونت كارمينولا »

وقد حدثت هذه الأمور وأمثالها في تلك المدينة

وبالبندية داراً صناعة لإحداها للسفن هي أجل واحدة في الدنيا ،
والأخرى المدفعية وكل ما يلزم للملاحاة ، ويصل البحر إليها ومن ثم تستطيع السفن
الرسوة هناك بعد اجتيازها الحصنين ، وقد أنبأني القوم أن لهم بالبحر وفي
مخازنهم من أغربة الحرب والمراكب التجارية ثمانين واحداً إلى جانب سواها
من السفن ، وقد حدث ذات يوم أثناء عودتي بعد سماع القداس في كنيسة
القدوس مرقس أن رأيت قرابة عشرين رجلاً يدخلون الميدان ، وقد حمل بعضهم
المقاعد وآخرون الموائد وغيرهم الكراسي ، وكان بعضهم يحمل حطب كبيرة مملوءة
بالنقود ، وإذا ذلك ضربت طبلة دون الجرس الأكبر الذي يسمونه « بجرس
الجلس » ، ولم تمض ساعة حتى كان الميدان قد اكتظ بالرجال الذين قدموا
وأحذروا أحرم وأبصر فوالى دار الصناعة .

فإذا عبر المرء الباب ألقى على جانبيه شارعين يفصل البحر بينهما ، وعلى
هذين الجانبين نوافذ البيوت مطلة على دار الصناعة وقد خرج غراب يقطره
قارب ويدول الناس من فيه من النوافذ حبال السم والطعام و لأساعة
والأنعام والمدافع ، وهكذا يأخذون من كل جانب كل ما يحتاجونه ، فيما وصل
الغراب نهاية الشارع كان على ظهره جميع الرجال الذين يحتاج إليهم مع المحاذيف
وامتلاً الغراب عن آخره ، وعلى هذه الصورة جاءت عشرة أغربة تامة التسليح
ودلك فيما بين الساعة الثالثة والتاسعة . ولا أعرف كيف أصف ما رأيت هناك
هناك سواء في طريقة التكوين أو في الماحية الصيرفية ، ولا أحسب أن في العالم

شيئاً أروع من ذلك ، ولو أراد البنادقة إظهار قوتهم الحربية فإن أعداء الدين في هذه المدينة لن يستطيعوا - في نظري - أن تكون لهم سفينة واحدة في البحر أو على الشاطئ ، ولن يجرؤوا على تحدّي مثل هذا الخصم العظيم .

كان في الأزمنة السالفة لبضعة أسابيع قلائل أو حتى بضعة أيام صيد لا يستخرج الصيادون فيه إلا الأطفال الموتي من شباكهم وهذا جاء - كما يقولون - من أن التجار كانوا يظلون منفصلين عن زوجاتهم زمناً طويلاً ، فتسعوهم الرغبة الجسدية إلى الاتصال والحمل ، فإذا وضعن وأردن إنقاذ سمتهن بادرن بإلقاء أطفالهن من النوافذ إلى البحر لهذا يظل السكان مهجوراً ، ولذلك تشاور الحكام - نظراً لهذه الجرائم البشعة - فيما بينهم وأسسوا مستشفى^(١٢٥) كبيراً غنياً بُني بناء جميلاً وزودوه بمائة ممرضة للأطفال ، والآن فإن اللاتي يردن ستر فضيحتهم يأخذن أطفالهن هنالك ليعنّ بتريتهن ، وكذلك حصل البنادقة من البابا على مرسوم ينص على أن كل من زار هؤلاء الأطفال قال شيئاً معيناً من العفران ، ومن ثم فإن الرجال والنساء يذهبون لزيارة أطفالهم بحجة نيل المغفرة ، ولا شك في أن هذا عمل ينطوي على التقوى العظيمة ، ويُنظر إليه بالاحترام العظيم .

وفي هذه المدينة ينزلون العقاب الرادع بمن يحمل سلاحاً مهما كانت حجته ، وإن خف العقاب قليلاً لمن يحمل السلاح في مجلس الحكم .

ويؤقر الناس المستنون توفيراً عظيماً ويبذل القوم لم الاحترام الكبير، وحينما ينتخبون « الدوج » يتجردون عن الميل والهوى ، ويؤثرون أصلح الرجال لهذا المنصب على شرط أن يكون نبيل المولد ، فإذا انتخب لم يخلعه قط من منصبه إلا الجريمة يقتربها ، ويجرون عليه راتباً قدره ثمانية ألف دوكات

يكون معاشا لأسرته ، أما بقية المصروفات فتتحملها عنسه الحكومة ، ولا يستطيع أن يتجاوز ما قدر له ، كما أنه لا يستطيع أن يحكم على أحد أو يطبق سراح فرد ما دون موافقة أعضاء المجلس .

واشتهر البنادقة بشرف المعاملة ، ثبت لي ذلك بالتجربة ، وإذا فكر أحد من في شجب عهد أحده على نفسه في مسائل قديمة آثروا دفع دبه على ارتكاب مثل هذه الخفاقة ، ولست أحب من أماس يحولون حول العالم أن يراعوا هذه القاعدة وإلا لم يستطيعوا الرحلة آمين ، ومن عادتهم أن يرسلوا كل سنة مواطنين من مواطنيهم الأشراف الكرام المولد إلى كل من المدن القاصية والواقعة على الخليج ، ويرسلون مثله كل عامين إلى الأقطار الواقعة فيما وراء البحار والبلاد القاصية ، وحدث ذات مرة أن بعثوا بالبودستا إلى جزيرة إقريطش التي نسميها كانديا ، ثم أنفذوا بعد سنة محققا على مألوف عادتهم ، فأجرى تحقيقا دقيقا انتهى به قبل عودته من الجزيرة بقطع رأس البودستا ، ومن ثم فإن الولايات والمدينة مراقبة جيدا ، وما كان لأمري في أي بقعة من البقاع التابعة لهم - حتى ولو كانت في أقصى أطراف الأرض - إلا وخيل إليه أنه في البندقية ذاتها .

وتشتهر المدينة بحكومة قوية جدا مما أدى إلى شدة رخائها حتى أنه ابت من الثروة ما يتجاوز الحد ، ويجلب مواطنوها إليها ما جاءوا به من منتحات الشرق في وفرة بالغة وكثرة عظيمة ، ويفعل فعلهم أهل العرب حتى لينخيل أن العالم بأجمعه في يمين البنادقة .

الفصل الحادي والعشرون

منادرة الهندقة . اتفاق بين البنادقة وأهل ميلان .

فرارا . البابا يوجين وبيرنطة .

اتحاد المجمع . الحكومة .

...

حينما غادرت الهندقية للذهاب إلى الأقطار النصرانية الأخرى خلفت ورأى بها ما جئت به معي من بضائع الشرق ومن بينها المبيد وكذلك أموالى وكل ما اشتريته ، وتركت ذلك كله في رعاية صديق المزيّر السيد «دومينيغو» من تجار الهندقية ، ولم أحمل معي المال غير ما قدرته كافيًا لسدّ احتياجاتى وغير مأكوك التبادل المقدى على جماعة معينة من التجار في مدينة «بروجس» بفلادرا ، ورحلت في قارب وعت ليلة رحيلى في مكان اسمه «شوجيا» قد بنى في البحر شأنه شأن الهندقية وهو خاضع لها ، وكان به بعض سفن محترقة كانت قد عطبت في الواقعة التي جرت حين قدم الجنوبية إلى هذه البقعة لمحاربة البنادقة .

فلما كان الصباح رحلنا حتى إذا قطعنا مسافة أربعة أو خمسة أميال دخلنا نهر «مو» أحد أنهار الدنيا العظمى ، أما الفرع الذي دخلت منه فكان واحدًا من ثلاثة فروع ، والنهر كبير جدا حتى إنه حدث في كثير من مرات الحرب التي كانت تدشب بين البنادقة وبين دوق ميلانو^(١٣) أن أنزل كل من الفريقين في النهر أساطيل كبيرة ، وبه من السفن أعجب ما تسمى لي رؤيته منها ، إذ أنها

مراكب شراعية ضخمة مستوية القاع مما يذلل لها السير في المياه الصحلة ، وعلى سطحها قلعة خشبية كبيرة ذات برج شاهق يضعون فيه ما تستلزمه مدافعيتهم من الذخائر الحربية كالقنابل والادافع وما شاكلها ، ويقم الحدفون في القسم الأسفل حتى يكونوا بمنجاة من الهجوم عليهم ، ولا تير هذه المراكب بالقلاع كما أنها لاتصنع للإبحار لأنها تكون سهلة الانقلاب ، ولسكنهم يستخدمونها في حروبهم العنيفة ، وقد حدث أثناء وجودى هناك أن ألقع البنادقة بأربعين سفينة منها لحاربة دوق ميلانو قصد الاستيلاء على إحدى المدن تخرج الالمبارديون لصددهم ، ويقال إنه جرت بين الجانبين معركة عنيفة .

وبستعمل الالمبارديون نوعا صميرا من القوارب يسمى « جلاباجو » (١٣٢) قد غطى كله بطبقة من المعدن حتى ليبدو وكأنه القبو ، ويصطنعه القوم لإشغال البيران في سفن الآخرين على حين أنه ليس من الممكن إزال الضرر بهم ، على أن ذلك لم يُفجزز البنادقة فقد بعثوا رجلا غطس تحت الماء وسبح حتى بلغ سفن العدو وأعمل فيها تمويبا بثقاب كان معه ، ففقد الالمبارديون ثلاثة من مراكبهم قبل أن يقفوا على ما حدث ، على حين خسر البنادقة أربع سفن ألهمتها البيران ، واستمرت المعركة طويلا ثم انتهت بهزيمة البنادقة وفقدانهم ست عشرة سفينة من سفنهم ، فلما استردوا ما استطاعوا استرداده انحدروا مع الهر وعادوا إلى المدينة ، وعلى هذا للتوال نقشب الحرب دائما بين البنادقة والالمبارديين .

* * *

تأملت رحلتى في نهر البو حتى بلغت مكانا في الداخل يسمى «فرانسكولينو» وهو تابع لمركز فرارا ، ومن ثم ذهبت إلى «فرارا» حيث

كان هناك إحدائك البابا وإمبراطور القسطنطينية في حشد كثيف من الناس الذين جتمعوا لمشاهدة الجمع الذي عقد قصد التوحيد بين الكيسة وبين لإعريق (١٢٨)

ولما كان اليوم التالي صبحت كثيراً من القسطنطينيين وذهبت لرؤية البابا «إيوجين» الذي تلقاني بالترحيب العظيم ، ورغب في معرفة تفاصيل رحبتي إلى بيت المقدس والوقوف على أخبار سلطان مصر والسلطان التركي الكبير، وكذلك عن الإمبراطور نفسه ومدى سلطته ، فأبأته بكل ما طلب وأقصيت إليه ، الذي من المعلومات التي رضى بها، ومن ثم غادرته .

ومضيت مساء ذلك اليوم للقاء إمبراطور اليونان وأعطيته كتاباً من زوجته وأخيه الطاغية ، فتلقاني فرحاً قائلاً إنني من عشيرته ومن أهل بلده ، ثم قرّبتني منه وأجاسني إلى جواره مستفسراً عن أخبار وطنه ، وطلب إلى أن أزوره كل يوم من أيام إقامتي ، وأبدي ما يكون عليه من اللسرة القائمة إن أقيمت معه ، وبذلك توفقت للامرقة بيننا ، وكان الإمبراطور يعيش في قصر من قصور مركزى دى فرارا على سطح الماء في « بواتيلاو » التي يسمونها بالجنة ، وهي بقعة رائعة جداً .

استأذنت ذلك اليوم واستعجبت الناس القسطنطينيين الذين كانوا هناك ، وحلفت لحيتي التي كنت قد تركتها تطول زمناً ليس بالقصير ، ثم ارتديت زيي الوطني وذهبت ثانية لمقابلة الإمبراطور الذي ما كاد يراني حتى قال إنني أخطأت في حلق لحيتي إذ أنها غاية ما يشرف به الرجل ومكسبه الوقار ، فأجبته : « لكننا يا مولاي نؤمن بعكس ذلك ، فنحن لا نطيل لحانا إلا في حالة الخروج الخطيرة » وتكلمنا عن هذا الموضوع فترة من الوقت ثم عدنا إلى مسائل اليونان ،

واستفسرني في دقة عن الأوضاع هناك وعن زوجته وأخيه وحالة البلد وماذا يفعل البركي الكبير ، وعن حركاتي منذ أن كنت هناك ؛ وأجبتة عن كل شيء أعلمه .

وكان على الإمبراطور أن يذهب هذا اليوم لرؤية البابا فقصيت في صحبته ، وإن حملة بعض الرجال على كرسي لما كان يشكوه من مرض النقرس الذي أعجزه عن السير ، فاستقبله البابا باحترام عظيم في قاعة فسيحة أعدت لذلك الغرض وكان معه عدد من الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ومركزى دى فرارا وغيرهم من سادة الإقليم وقد جلس كل في مكانه الخاص به ، فكان على اليمين مقعد إمبراطور ألمانيا تتلوه كراسى ملوك المسيحية وأمرائها ، وعلى اليسار كرسي إمبراطور اليونان وبعض رجال الدين ، وتوسط الجانبين مقعد البابا وكان عالياً فوق بقية المقاعد الأخرى ، واستمر انعقاد مجلسهم في هذا اليوم مقدار ثلاث ساعات أو أربع وهم يناقشون - كما قيل - فيما بينهم بعض الاختلافات المتعلقة بالإيمان بين الإغريق واللاتين .

ثم انصرفنا بعدئذ ودخل البابا حجرتي بينما عاد الإمبراطور إلى قصره مصحوباً بأعضاء رحلته ، لأنه كان قد أحضر معه من اليونان رفقة كبيرة من الناس خرجوا جميعهم تقريباً في ثياب طويلة ولحي كبيرة ليكبوا أنفسهم مظهر الحد والوقار ، وكانوا في الواقع أطيب صحبة ، وإن دأخل المرء شعور بأن أكثرهم كانوا من حاشيته وبطائته أكثر مما يريد أن يُظهرهم به ، ويقال إنه كان معه ما لا يقل عن ألف شخص .

ودخل الإمبراطور قصره وانفض الجميع من حوله إلا أنا فقد بقيت معه وذهبت بصحبته ودعاني لمشاركتهم طعام العشاء على مائدته ، وكان شديد الرعاية بي .

بعد ثمانية أيام من ذلك الحفل حل عيد القربان المقدس ، وعلى الرغم مما كان نصيحة البابا والإمبراطور من حاشية عظيمة راثية إلا أن احتفادهما به كان على صورة مهينة قد تشأوهما فيها قرية لا يزيد عدد أهلها عن عشرة أنفس ، وذلك لتبديل العادات للرعية في هذا العيد نظراً للجموع العظيمة من الأعراب التي وجدت حينذاك ، وبما كنت هناك رأيت رسولين جاءا في أمر إلى البابا ، أحدهما من دوق رجنديا يسأله الإذن بسماع القداس بعد الظهر ، وثانيهما من قبل دوق ألمانيا ياتمس السامح بأن يكون القداس قبل منتصف الليل .



ومدينة فرارا من أبداع الأماكن التي رأيتها ، وهي تضاهي « بلد الوليد » في سمعتها وإن امتازت عنها ببيوتها الحسنة جداً وشوارعها الجميلة ، ثم إن لها حسنة التصوير ذات أبراج وخندق ومها قلعة واقعة على أحد جوانب نهر بو ، ورغم جمال داخلها إلا أن خارجها أعظم جمالاً ، وتربتها شديدة الخصب وتنفثر بساتين الفاخرة في شتى جهاتها ، وتدفع المدينة للبابا الجزية ، ويقال إنه استلم منها في إحدى المرات مائة ألف أو مائة وخمسين ألف دوكات ، ولكنها أخذت في النقص بمقدار عشرة آلاف أو ستة آلاف دوكات ، حتى بلغت الآن ثلاثة آلاف دوكات وما أشرح حالا سبب هذا .

ذلك أن مركيز دي فرارا من أهل فرنسا ويقال أيضاً إنه من سلالة « جالالون »^(١٢٩) ، وتبع هاليد معينة خاصة بالخيز معه ومع الآخرين من نفس البيت كوضعهم الرغيف على اللائدة مقلوباً وإدارته بالمكس ، ويقال إنه جاء إلى ملك فرنسا سانلا إياه أن يمدّه بالسلاح وأن يعفيه من هذا التقليد ، فأمدّه

للموت باستراح، ولكنه قال إنه لا يستطيع إجابة مطالبه الثاني، وهذا المركيز سيد
 كبير ورث كثيراً من المدن الجميلة والبلدان والقلاع، بالإضافة إلى دخل
 مقدّره القوم بثلاثمائة ألف دوكت، وهو رجل شديد المرح بهي الطاعة كلف
 بالهم والعزل، ويقال إن لديه على الدوام عشرة أو اثني عشرة محطية في قصور
 خاصة له بالمدينة، ولا يقل عمره عن ثمانين سنة، وهو صغير الجرم مفرط السمنة،
 يقال عنه فيما يقال إن زوجته - وهي ابنة أحد أدواق ألمانيا (١٣٠) - توتعت
 غراماً بمنزله من زوجة أخرى، وتطور غرامهما إلى حد نسي الابن فيه واجبه
 حيال أبيه وسيت الزوجة واجبهانجاه زوجها، فاندسا في شهراتهما الجسدية،
 فما علم المركيز بالخبر من أحد خدمه فاجأها وهما يرتسكان الخفية، فبعث بهما
 إلى قصاة البلاد ليقرروا الحكم الذي يوقمونه بهما، فعاتبه كثير من سادة البلد
 وغيره حتى إن البابا توصل إليه أن يسلك سبيل الرحمة، فكان رده على الجميع
 أنه لن يأمر بقتلها أو المنّ عليهما بالحياة بل يترك تقرير ذلك للقضاة يحكمون بما
 يرون، فاقضوا - في حضوره - بقتلها، فأخذوهما في الحال إلى حيث تنفذ العدالة
 وأهدوا الحكم فيهما، ولو رحنا نصف كل ما حدث لاستغرق ذلك وقتاً طويلاً،
 ولكن المركيز أمر بتهينة زورق كبير ركبته وأبحر به إلى بيت المقدس، فما
 عاد تزوج من ابنة دوق آخر من أدواق ألمانيا، وكانت فتاة شديدة الجمال
 في الخامسة عشرة من عمرها بينما هو في الثمانين، ومن ثم فلا مشاحة إن
 وقعت بلية أجل من الأولى.

وللمركيز عدة أبناء من زوجته الأولى لا زالوا في دور الطفولة، كما أن له
 ابناً شافعاً من أم ولد في الثلاثين من عمره، على جانب كبير من المصيرية إلى
 حد أنه فارس في الحرب معوار، ولما رأى المركيز أن إيطاليا لا تعرف أبداً

السلم وأنه لابد تارك أملاكه لهؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون كيف يحكمون —
عما سيؤدي حتما إلى الضرر — فقد اعتزم ترك أملاكه إلى هذا العمل ، ومن ثم
اعترف بأبوة الشرعية له ، وقرره وريثه في كل ما يملك ، وأمر الناس بتقبيل
بذبه واعتباره حاكمهم ولقد استشار الماركيز البابا في ذلك فأذن له ، ثم أصدر
الماركيز أمره بإعطاء أكبر أولاده الشرعيين — وكان لا يزال صغيراً — نصف
الدخل ، وأن لا يكون له من الحكم شيء .

ولقد رأيت ذات يوم هناك احتفالا كبيرا في القصر حضره جمع غفير
من علمية القوم من الرجال والنساء وأقيم استعراض ، فلما فرغوا منه تسابقت
السيدات جميعهن في الجري لمسافة معينة قد وضعت في نهايتها ثلاث قطع
من القماش : إحداها من الحرير للطرز ، والثانية من الخمل القرمزي ، والثالثة
حمر اللوت ، فنالت الفائزة الأولى القطعة الحريرية والثانية قطعة الخمل
والثالثة الحمراء ، ولكن لو كانت هناك^(١٣١) « جراندبلا دي ألكوديا »
Garandilla de Alcudia تقطعت المسافة ثلاث مرات ولربحت جميع الجوائز .

والماركيز رجل مرح ، فيه ما يفصح عن عرقه الفرسى .

* * *

ولقد بقيت في هذه المدينة عشرين يوما أستمتع وأناهب للقيام برحلتى
إلى ألمانيا ، واشتريت من الدواب ما أحتهج أنا وجماعتي ، فلما تم كل شيء
مضيت إلى إمبراطور اليونان مستأذنا إياه في الرحيل فسألني أن أعود لزيارته
مرة أخرى قبل عودتي إلى إسبانيا ما دام لا بد من عودتي إلى البندقية لأخذ
مصاعتي فوعده بذلك ، ورحلت من « فرارا » واجتازت منطقة الحدود إلى
مدينة تسمى « بارما » على نهر « بو » وتابعة للهوك ميلان .

ولما اجتازت النهر وجدت « نيكولا »^(١٣٢) يتشينو « قائد عام الدوق على رأس عشرين ألف فارس وهم يؤلفون أجل فرقة وقعت عليها عيماى ، ويقال إنه كان داهياً للاستيلاء على مولونيا التابعة للبابا ، فمكثت ثلاثة أيام فى « مارما » لأشاهدهم وهم راحعون ، وكان من أجل المناظر رؤية فرقة من الرجال مثل هؤلاء رائعة التسليح ممطرة صهوات جيادها وقد جهزت بكل ما هو لازم للحرب ، وأحسن من هذا كله أن يكون على رأسهم مثل هذا القائد العطر القدير .

وفى هذه المدينة أحسن أنواع الكرى الى رايتها .

ذهبت من هناك إلى مدينة « بيانشزا » التابعة لنفس الدوق ، وهى أيضاً مدينة كبيرة يقطنها سبعة آلاف أو ثمانية آلاف شخص ، فلما كان اليوم التالى رحلت عنها إلى « ميلانو » الصخرة التى تعد من أعظم مدن العالم المسيحى ، بل إن الواقع يؤكد ما يقوله الكثيرون من أنها أعظمها جميعاً ، ومع عدم اكتراث القوم بنسورها إلا أنه يحيط بها فندق كبير له متراس صخم وبداخله المدينة وهى حصة البناء ، وشوارعها جميلة جداً . وإن رؤية ميلان فى يوم عمل لأروع وألذ من مشاهدتها فى يوم عطلة ، فشوارع صناع الأسلحة وبيوتهم أبهى مائكون منظرأ ، وكذلك دور صناع الرماح والسرّج والخياطين الذين يصنعون ملابس الحرب وأدواتها ، وهم الذين يعرفون كم عدد حكام إيطاليا وكم بها من قواد الجيوش ومارتك كل منهم ، وجميع هؤلاء الحرفيين مجهزون بكل شئ يستطيعون معه إمداد هؤلاء جميعاً بكل ما هم فى حاجة إليه ، مما عظمت مكانة الطالب فى إيطاليا .

وجميع الصناعات مهرة بارعون ، ويقومون بإيجاز أعمالهم فى انتظام .

ويوجد بالمدينة المكان الذي يعيش فيه الدوق، وهو قصر بالغ الروعة، عظيم الاتساع، بكتفه سور قوى ضخم فيه شرفة حصينة جداً، وله خندق عميق واسع يحترقه النهر الذي يصطاد منه الأهالي كثيراً من السمك، ويقوم هذا المكان على أرض مستوية على أحد جانبي المدينة. والواقع أنه لا يوجد في كل أرجاء «لباردنا» بيوت مشيدة على الصخور ولكن بناءها في السهول لا يجعلها بحال من الأحوال أقل منعة، إذ إننا محاطة من جميع نواحيها بالخنادق.

وتزخر هذه المدينة بكثير من الكنائس والأديرة الشهيرة لاسيما كنيسة الكبري التي لا زالوا يعملون في بنائها حتى اليوم والتي يسمونها «بالقبة» وهو بناء فخم جداً، ويرتلون فيها القداس الأمبروزي الذي هو عكس قداسنا، كما علت أيضاً أنهم يختلفون عنا في أداء الصوم الكبير.

ويقوم بها دير غني جداً لجماعة الإخوان المبشرين قد دفن فيه القديس بطرس الشهيد الذي يعتقد أنه استشهد في هذه المدينة.

ولا يسمع دوق^(١٣٣) ميلان لأحد ما أن يراه، ويطلون ذلك بخوفه من أن يمس له ذلك الأحد السم، لكن حدث في ذات يوم أن كان في بستان هناك فرأبته وتحدثت إليه فتبينت أنه رجل فطن رشيد، جاد شريف، ضخم البنيان والتركيب، ذو أنف طويل جداً، حليق الرأس عاريها، ولم يكن يقوم على خدمته كثيرون، ويقول الناس عنه إنه لا يحفل بأحد غير المحاربين ورحلة السلاح الذين يقيمهم على السوام في المعسكرات وميادين القتال، والواقع أنه مصيب في تقدير أمثال هؤلاء الرجال.

وليس لهذا الدوق من ابن أو بنت سوى واحدة من أم ولد، زوجها اسكوت فرثسكو الذي هو الآن دوق ميلان^(١٣٤).

وليس المدينة تدّ أو ضريب بين المدن المسيحية في مساحتها وكبرها
وعدد سكانها : أشرفاً كانوا أم صنّاعاً ، ويقولون إن دخل الدوق من المدينة
وحدها يبلغ ألف دوكات في اليوم ، ولا يستطيع أحد ما دخول المدينة إلا
إذا حصل أولاً - عند دخول أراضى الدوق - على شهادة تثبت أنه
قادم من بلد صحى غير موبوء بالطاعون ، وهم يلتزمون هذه القاعدة أشد
الالتزام ، ويقال إنه لم يعصب أى جزء من القطر بالوباء منذ ستين عاماً .

واستفشرت عن أمور كثيرة تتعلق بحكومة المدينة وهى منظمة جداً ،
وكان استفسارى أكثر عن أحوال أهل بيت الدوق ورجاله ، ويقال إنه محرم على
أعضاء مجلسه الحكومى أخذ مال إلا منه . وإذا كان تمت ضرورة تستدعى عقد
هذا المجلس وتطلب رأيه أرسل إلى كل عضو من أعضاء المجلس ورقة مكتوبة
تتضمن المسألة التى يراد البت فيها ؛ فيكتب كل واحد رأيه فى أسفل الورقة دون
مشاورة رفاقه ، فإن خالف أحدهم هذا المنهج وحاد عن هذه الجادة إلى غيرها
أنزل به الدوق العقوبات الشديدة . ثم يقرأ الدوق رأى كل عضو من أعضاء
المجلس ويختار من بينها ما يراه أحكمها .
ولقد استعفت قراراته التناء العظيم خلال حكمه .

الفصل الثاني والعشرون

الطريق إلى ألمانيا . عبور الألب . عمر سنت جوتار . نزل .
الحمامات . ضل الذهب . سقاسبورج . الحيلة
ضد النار . ميتر . الرين . كوبلنز .
الوصول إلى كولونيا .

...

رحلت من هيلان ميمما شطر ألمانيا ، ولما لم أصل إلى أى مدينة همة
تستحق الإشارة فليس لدى ما أقوله ، غير أننى وجدت كثيراً من الأماكن الخربة
التي أنت عليها النيران ودمرها القائد الإبطال الكبير «فرانشينو كاني»^(١٣٥) ،
ولما كان اليوم الثالث من مغادرتي ميلان أدركت مدينة ألمانية بسمونها
«لوسرسا»^(١٣٦) ، غير أن الضرورة ألحّت علىّ - قبل تمكّني من دخول إياها -
أن أصع جميع الدواب والأحمال على المراكب ، وأن أعبّر بحيرة ضخمة تمتد
بهاهما من جبال الألب ، وهي بحيرة شديدة العمق تمتد مسافة أربعة فراسخ
تقريباً وتزخر بشتى أنواع الأسماك التي يقال إنها أشهى ما تكون طعم ،
وتحتوى هذه المدينة على ما يقرب من ألف وخمسمائة مكن ، وهي حصنة
التموير ، تزينها الدور الجميلة المشيدة على الطراز الألماني وبداخلها المواقد ،
وتزخر بالحانات الرائعة .

* * *

واقعد غادرتها في اليوم التالي ووصلت إلى سفح عمر سنت جوتار الوجود
في بقعة عالية من جبال الألب ، وشرعنا في ارتقائه غداة وصولنا بعد اتخاذ

الإجراءات اللازمة والاستعدادات الضرورية ، وكان الوقت إذ ذاك أحرى بأن
شهر أغسطس حيث ينفو الجليد بسبب شدة الحرارة مما يجعل السير بالع
الخطورة ، ويستعمل الأهالي في تلك الجهات ثيراناً ألفت عبورها ، ومما
يستعملونه نوع من الدواب يسير في المقدمة وهو يجر حبلاً طويلاً قد شُدت إليه
مقطورة تشبه النورج القشتالي^(١٣٧) ، يجلس عليه المسافر حيث يمسك بحمالة
خدمته بدعامه ، وبذلك يتم عبور الممر في أمان ، فإن قُدر حدوث مغامرة
لم تتمدّ هلاك النور .

وحيث يمتاز المسافرون المأبر الضيقة وبكون الذابح المعطى للجبال
على الجانبين موشكاً على الأنهار فإنهم يطلقون البيران حتى تنساقط تلك
النورج التي تكون دانية من السقوط ، ويحدث في بعض الأوقات أن تسقط
النورج المتهمة وتدفن المسافرين بين طياتها ، وتفيض القنوات والأنهار في ذلك
الفصل بمياه الجليد الذائبة .

وهذه الجبال شديدة الازدحام بالسكان ، وحيثما سار المرء صادف
في طريقه الخناات والتمسك الصغيرة ، ولقد تسلقنا في هذا اليوم صومعة
القديس « حوثار » الموحدة في بقعة تمسكاد نمس السماء ، ومع ذلك فمناك
جهات نشأوها ارتفاعاً حتى ليقول الرهبان إنه لم يفتن لأحد ما رؤية قممها
لأنها مغمورة على الدوام في الضيوم ، ومن هنا يستطيع المرء رؤية إيطاليا ،
ويمكن لدوى البصر السليم الخاد أن يروها بأكلها وذلك لارتفاع الجبال
في هذه الناحية ارتفاعاً هائلاً على حين أن الأرض الإيطالية بالغة الانسلاط
والانخفاض بالنسبة إليها .

حين باعنا هذه الجهة دفعنا أجر دوابنا وسرنا عبر الجبال في الطريق
لأودى إلى « بازيل » الذى يزخر بكثير من السفنير وغيرها من المخلوقات
والحيوانات ، كالماعز التى يتخذ الناس من جلدها « الشموا » .

وأخذنا سمتنا في هذه الطريق ، وأنحدرنا من الجبال والقمم ، وظلما سائرين
مدة يوم عبر السهل حتى أدر كنا مدينة « بازيل »^(١٣٨) الرائعة ، حيث كان
الجلوس الكسبى منعهداً يومئذ ، وقد ازدحمت المدينة بظائفة كبيرة من الخلق
من شتى الأجناس ، من بينهم كثير من الأشراف الإسبان رغم أن
« ألفريز »^(١٣٩) كان قد غادره حينذاك ، ومع ذلك فقد ظل بها من بعده
كردبال « سان بدرو » وأسقف « كونيكا » وأسقف « بيرجوس »
وغیرهم .

وتقع المدينة على شاطئ النهر الذى ينبع من الألب ومن بحيرة
« شافوازن » ، وهو سريع الجريان سرعة مخيفة ، وطالما حدث أن جرفت
المياه معها في اندفاعها كتلا ضخمة من الثلج المتجمد كأنه الأحجار صلابة مدمرت
المباني وهدمت الجسور وقضت على كل ما اعترض سبيلها ، الأمر الذى يجعل
البحارة في خطر دائم من مصادفتهم إحدى العبارات التى يكون فيها هلاكهم
رغم ما يهتمون به من براءة فائقة وحذر بالغ ، إذ لا يتأنى المودة مطلقا
للعراكب التى تنحدر مع النهر في جريانه لأنها لا تستطيع أن نشق طريقها ضد
تياره ، والواقع أن هذه هى الخطوة التى يتبهما القوم في السير مع التيار الذى
يصيب الإنسان بالدوار إن نظر إليه ، وزخر هذا النهر بكثير من الأسماك
الشهية والمفيدة ، ومن بينها أسماك « السالمون » الشديدة الضخامة .

• • •

وتحفل مدينة بازيل بكل المنتجات الألمانية والأطبقة الرائعة وغيرها من المشروبات ، وهي حصينة التسيور رائعة البناء ، وتتألف دورها من عدة طوابق ذات مداخن عالية ، تزينها النوافذ الزجاجية المطلة على الشوارع ، وتمتاز معظم عمارتها بالأبراج ذات الصليبان ودورات الريح ، والمدينة جميلة جدا من الداخل ، وهي أجمل ما تسكون منظرًا من الخارج ، وشوارعها مرصوفة بالحجارة ، وتكثر فيها أحواض مياه الشرب ؛ أما كثافتها وأديرتها فبالغة الروعة ، وأما بيعتها الكبرى فشيدة أحسن تشييد وبمقد فيها الجمع السكاني اجتماعاته ، وبلغ سكانها - رجالا ونساء - في الطرف غاية وفي الزاء مفتاه .
وتحكم المدينة نفسها بنفسها رغم تبعيتها للإمبراطورية ، ويقال إن أهل بازل لا يلتزمون للإمبراطور بشيء سوى استضافته للغذاء حين يكون بها ، وسوى إمداد ، بزواج من السراويل القصيرة ، لكن في استطاعته دعوتهم للحرب .
وتتصل بالمدينة ضواح كبيرة آهلة بالسكان ، وقد تواعد على بازل جموع كثيفة من المقسولين من شتى رحاب ألمانيا الذين جدهم إليها المجلس السكسي ، ويكادون وحدهم يكوّنون في مجموعهم مدينة كبرى .

ولقد سمعت أن « كريدنال سان بندرو » كان في منطقة جهال الإلب في حمامات الساخنة التي يسمونها بالحمامات المقدسة ، وعلى بعد ميل منها تقريبا دير عظيم اسمه دير « أرياسيلا »^(١٠) الذي ظل الكردينال مقبلا به ستة أشهر ، كراهية منه في أن يدخل بازل مخافة أن يعضب البابا « يوجين » ؛ ولكنه كان يدير أمور مولانا الملك من هذا للسكان ، ولقد ذهبت لرؤية الكردينال الذي لقيني أحسن لقاء ، ولما كنت لا أزال أشكو من الجرح الذي أصابني في « تروى »^(١١) والذي يبدو على الدوام أن السفر يزيد سوءا فقد حملني

السكردينال على الإقامة عنده تحت إشراف مطيب يقدره رجال الدين وندبيون على السواء أعظم التقدير ، ولا جدال في أنه أهل لهذا التقدير بفضل شخصيته المبارزة ، ومضائله السامية وأمانته العائقة ، واستغرق علاجه إياي عشرين يوما عوفيت بعدها وأقيمت الشفاء على يده ، وينظر الرهبان إلى هذا المطيب بمحبة زائدة، إذ لم يقب الأمر عند أفضاله عليهم بل أقام لهم حجرات دافئة ، كما استنبط غير ذلك من المزايا لخدمة الدير الذي يقع غالبا في الجبال وفي مكان يعتبر أكثر أمانا من أمانها برودة .



ومضيت لرؤية الحمامات حيث أقيمت حسدا كثيفا من المرضى والحجاج الذين قدموا إلى تلك البقعة من جهات قاصية وقاء لنذور وعهود قطعوها على أنفسهم ، ولا يحظر بهالم شيء من ناحية الرجال والنساء الذين يسبحون عرايا جنبا إلى جنب ، والذين جرت عاداتهم أن يمارسوا بعض الألعاب ويتناولوا طعامهم وهم في الماء ، ولقد قابلت هناك سيدة كانت تؤدي فريضة الحج من أجل أخيها المأسور في تركيا ، وكثيرا ما أقيمت بعض العملات الفضية في السبع وكانت فتياتها يغلطن وراءها يلتقطنها بأفواههن ، ويستطيع للراء أن يتصور ماذا يمكن في الهواء حينما يحملن رموسهن إلى تحت ، والقوم هنا ذوو أصوات جميلة حتى إن العامة منهم لينشدون بعض الأغاني بمهارة فائقة تحسبهم معها فنانين .



لم يكذبتم شفائي من جرحي حتى التمت الإذن من السكردينال وعدت إلى بازيل في محبة السيدة التي أقيمتها في الحمامات، ولم أتركها حتى بلعنا مدينة

« كولونيا » التي كانت بها أملاكها ، وفي اليوم الأول من رحيلنا - بعد معادرة الحمامات - سافرنا مبشرين إلى مدينة تسقط فيها مياه النهر من مكان يبلغ برحين ارتفاعا ، وحينذاك أزل البحارة الركاب وشدوا القوارب ، ثم سار طويلا لتتحد مع المياه الساقطة ، حتى إذا صارت في الجهة السفلى مصوا إليها ثم عاودها ركابها لتنتقل بهم سريعة بقوة المياه للندفعة بعنف كبير من الحال ، وبذلك وصلنا إلى بازيل ثم غادرناها بعد أن أمنا بها ستة أيام .



وصلنا بعدئذ إلى مدينة شاهدت على شاطئها جموعا من الناس تفسل الذهب من رمل النهر ، ويقيمون في ذلك الطريقة التالية وهي أنهم يضمنون مائدة على مقعد طويل مجاور للمياه ، وتكون إحدى قوائم هذا المقعد على حافة النهر وقوائمه الأخرى مرتفعة ، ثم يضمنون فوقه قطعة من الخشب أشبه بالسلام يكاد عرضها يبلغ ذراعا ، ويأتون بالرمل بعدئذ من بحري القداة ويقذفون به إلى أهل المائدة ، ويتركونه ينحدر تاركا وراءه نوعا من الطين الأبيض عالقا بالسلام ، حتى إذا تجتمعت لديهم منه كمية ضخمة وضعوها في حوض ماء مجاور لها حتى يمتلئ الحوض ، ولما كان الذهب ثقيل الوزن فإنه يترسب في القاع ، وحين يرفعون الطين بأيديهم يمكنهم رؤية الذهب يبرق ، إلا أن الحظ لا يواتيهم كل يوم ، على أنهم يسكنون من هذا الذهب العملة المعروفة باسم « ذهب الراين » .



وتقوم على جانبي النهر المدن والقلاع متجاورة آخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، كما تقوم على شاطئه الكنائس والأديرة الرائعة ، هذا إلى وجود كثير من مستشفيات الجذام « لنت لازار » مما تستحق المشاهدة ، ويقال إن انتشار هذا المرض راجع بالضرورة إلى كثرة أكلم الناس السمك وإفلالهم الشديد من شراب الببند واستعمال الزيت ، ويروون فيما يروون أن إننا لأحد أدواق ألمانيا قدم - منذ زمن غير بعيد - مع زوجته - وهي ابنة دوق آخر - ليقص لي ليلة في أحد بيوت المجذومين ، فسمعت لهم أنفسهم اعتصاب السيدة مما حمل الزوج على قتلها ، فقتلوه هو الآخر ، فلما عرف أهلها الخبر قدموا وأحرقوا البيت بمن فيه ، لكن لو أردنا أن نروى كل ما حدث لضاق المكان عن استيعاب ذلك .

وفي اليوم التالي وصلنا إلى مدينة «ستراسبورج» التي تسمى في اللاتينية «بأرجلتيها» أي «مدينة الفضة» ، والحق أنها من أسج المدن في العالم المسيحي إذ ينساب النهر فيها متخللا شوارعها . وهي ذات أسوار حصينة وحندق شديد العمق ، حسنة البناء ، وشوارعها بهجة المنظر مستوية جيدة الصرف ، وتوجد بها كثير من المدافن كما تحفل بيوتها بالموافد ، وخاناتها جميلة ، وكذا نساها وأديرتها رائعة في بابها مما تستحق للمشاهدة لا سيما كنيسة الجامعة التي هي نسيج وحدها فنا ، ولها برج فخم به الساعة ، مما لم أر لها قط مثيلا في الجبال ، ويقف على البرج - فوق الساعة - ثلاثة من القس يتناوبون الحراسة فيما بينهم طول الليل ، وكلما دقت الساعة نفخوا في بوق أشبه ببوق الرعاة ولكنه ذو دوى أضخم من دوى الطبله ، ويقول الناس إنما أقيم هؤلاء الرجال هناك كرقاة ضد الفيران ، ويوجد في كل أبرشية جماعة من

القواد، فإذا دوى النقيير إنذاراً بالنار عرف كل رجل لواءه فمضى قدماً إليه ،
وإذ ذاك يسير كل شيء وفق نظام معين ، فالبعض يحضر زكائب القش ،
وآخرون يأتون بجرادل المياه والقووس والخطاطيف الحديدية والرماح الطويلة ،
وبذلك تكون جميع وسائل الإنقاذ موجودة في الحال ، ولقد ذهبت ذات
ليلة لمشاهدة تغيير نوبة الحراس ، والواقع أنه منظر رائع جدير بالمشاهدة .
وهذه المدينة رائعة حقاً .

ثم رحلنا بعدئذ إلى « مينز » ، التي يوجد على يسار داخلها مقعد شاهق
الارتفاع من الكاس والحجر هو الذي يتم عليه انتخاب الإمبراطور^(١٤٧) الذي
يتعظم حضوره إلى ها هنا ومقاؤه مدة ثلاثين يوماً ليرى ها إذا كان ثم أحد
ينازعه ويسكر عليه انتخابه ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يظهر له منافس
يجاس على هذا المقعد ويحل محله ، وهذا رسم مفروض على كل المتنافسين حتى
يتحقق الجميع أن الاختيار تم علناً .

...

ثم حدثنا بعد ذلك إلى « مينز » وهي مدينة كبيرة جداً آهلة بالسكان
حسنة التكوين والثراء ، كما أنها واحدة من كبرى استعميات ألمانيا ، وتتميز
بكثافتها وأديرتها البالغة الجمال وسكانها الطرقاء ، وقد استغرقت إقامتنا بها
مدة يومين سافرنا بعدها إلى « كولونيا » ، ومن الحق أن نقول إن للرين
منظراً شديداً المهجة ليس لجماله من ضريب في العالم كله ، وتقوم على جانبيه
للدين الرائعة والقلاع العدة .

استمتعت بالجمال العظيم الذي يعجز الإنسان عن وصفه ، كما أن المدن

والفلاح مزدحمة بنازليها ويتأخم بعضها بعضاً ، وتزدان أبراجها بالصليبان العالية ودورات الهواء المذهبة . ووصلنا عن طريق هذا النهر إلى مدينة رائعة تدعى « كوبلنز » ، وفي مواجهتها على الشاطئ من النهر أبراج وحصون لورد « هازبيرك »^(١٤٣) الفارس الذي خرج ذات مرة حاجاً إلى مزار « سنتياجو » حيث وقع في الأسر وحمل إلى « بيرجوس » ، ولم يستطع فكك أسره إلا بعد أن سمح لجماعة من تجار « بيرجوس » — الذين كانوا أسرى في ألمانيا — بالعودة إلى قشتالة ، فلما تم ذلك ردت على اللورد الفارس حريقه ، لكن بينما كان في طريق عودته إلى دياره إذا به يقع في أيدي « فردتند كونت فيلاندراندرو » الذي استبقاه في أسره طلباً للفدية ، ومن ثم كانت رحلة حبه رحلة مكودة سيئة الطالع .

ولقد أسدى البعض لي النصيحة بأن أسرع في محاوذة هذه المنطقة فحسباً لأى ضرر يلحقني من هذا اللورد ، فامتثلتُ لإشارة هذا البعض ، وكان في صبحي — طوال ذلك الوقت — تلك السيدة التي ذكرت مقابلتي لها في الحمامات ، وحينذاك رحلت وأمضيت الليل في مدينة « كولونيا » العظيمة الرائعة وهي مقام تلك السيدة ، فدعيتني إلى دارها وأسبغت على كثيراً من التشريف خلال إقامتي لديها ، تلك الإقامة التي طالَّت حتى بانَّت ثمانية أيام .

وفي اليوم التالي بعث إلى لورد « هازبيرك » بأحد أولاده مع جماعة من السادة يسألني الذهاب إلى مزارعه حيث أجد المتعة والراحة وحتى لا أصدق ما تَقَوْلُ به الناس بشأن نواياه ، رغبة منه في أن يثأر كد السلم بينه وبين القشتاليين الذين لم يفعلوا أكثر من القيام بواجبهم ، وذكر لي رساله

أنه لا يجب أبداً أن يكابد القادمون ضراً يأتي من جانبه ، وقالوا أيضاً إن
الإمبراطور بعث إلى اللورد في قصره رسالة يأمره فيها باستقبال أي فارس يأتي
إلى تلك الساحة ، فشكرته شكراً جزيلاً على نيته الطيبة ، وذكرت له أن
لا بد لي من اللبادة بالعودة إلى دوق برجنديا ثم أكر راجعاً إلى المجلس
السكنسي ، وأرجأت زيارتي إياه إلى مرة قادمة ، ثم استأذنت في السفر .



الفصل الثالث والعشرون

كولونيا . الحانات . أسقف ديتريش . الكاندرائية .

سجرة بالكينة . السوق . الرحلة في الراين .

دوق كليفس . نيميغن . بوال ديك .

بروكسل . فيليب الطيب .

. . .

بقيت في مدينة كولونيا هنا في هناك عظيم وبدلت دوابي نظراً لما كان قد
حل من إتهالك بما كنت قد جلبته منها معي ، وكولونيا أغنى مدن ألمانيا
وأجملها على الإطلاق ، إذ يقع الرين على أحد جانبيها ، وتمتد على الجانب الآخر
الحقول والمراعي الفسيحة التي تشبه مثيلاتها التي تسكر في العادة بألمانيا ، وهي
جيدة التسوير لها خندق عميق حيد وشوارعها لطيفة ، وتمتلئ بعدد من الصانع
الذين يمارسون شتى الحرف ؛ وتمتاز البيوت القائمة داخل المدينة بجمالها وإنفاقها
دور ضواحيها التي تشأوها روعة وعدداً ، أما الفنادق فرائدة وجديرة بأن
تضيف أي ملك إن دعت الحاجة إلى مثل هذه الاستضافة ، وقد جرت
العادة أن يتفق عدد من الأرباب فيما بينهم على تأسيس زل فيسام كل واحد
مهم يدفع قدر معين من المال لقاء تسلمه جزءاً من الأرباح يتناسب والمبلغ
الذي دفعه ، ثم يختار هؤلاء السادة من بينهم رجلاً شريف الأصل ليكون
المضيف ، وحثهم في ذلك أن المضيف الطيب يلائم النزلاء الطيبين ، وقد
يحدث في كثير من الأحيان أن يرغب أحد الأفاضل في أن يمتكف عن الدنيا

حين نطمئن به السن ، وإذ ذاك يأتى إلى القميم على الفندق وبساومه على مبلغ
بتفاهة منه بقية حياته ، فيشغل حجرة وفراشاً ، ويتناول وحببتين رئيسيتين
وأحمرتين صميرتين ويدفع قدرأ معيناً من المال للقداس ، فإذا وفى بذلك كله عاش
رضى القلب ما تبقى له من العمر .

وتوجد هناك أمور أخرى هامة فيما يتعلق بفنادقها مما لا يمكن سردها
زمناً طويلاً ، فقد فهمت أن بها حركة كبيرة وإدارة حكيمة والتسمية بها
رائعة .

وبهذه المدينة سيد كبير هو كبير الأساقفة^(١١١)، أهله لهذه السيادة مكانته
ومولده ، إذ أنه ابن أحد الأدواق ، ولكنه فى اعتقاده أجدر بالأمور الدنيوية
منه بالمسائل الدينية ، وقد كان أكرم الناس وأخفهم بى ، وأحسست معه بالغة
لا يحسد إلا من كان قد نشأ معه ، فطاف بى أرجاء المدينة راكباً ، وأراني
كنائسها وأديرتها وقصور السادة والسيدات اللأى — بدى لى — أنه
لا يتأفف منهن .

والكنيسة الكبرى بالمة الروعة ، وهى من أفخم المباني ولا زال العمل
فيها مستمراً حتى الآن ، وفى وسط أكبر الكنائس الصغرى مذبح صغير محاط
بخطائر حديدية حيث يرقد للملك الثلاثة ، ويقولون إنه حدث منذ أيام
قلائل سالفة معجزة بالغة على الصورة التالية :

ذلك أن الكنيسة الصغيرة الخاصة كانت قد كملت إلا من حجر كبير
يملو سطحها ، وبينما كان القوم يرفقونه لوضعه حيث يجب إذا به يقع من
الحدال المشدود بها فوق البقعة التى سيجت بها أجساد الملوك الثلاثة ، وإذ ذاك

نحرك الضرب من تلقاء نفسه مسيرة خطوة ، فسقط الحجر واستقر إلى جانبه ، وهذه الأجساد الثلاثة محفوظة كي يراها الناس من قمة رأس إلى أخمص القدمين ، وهي سليمة لم تمس ، ولا شك أنها آثار بالغة القداسة ، ومن ثم يراها الناس ويوقرونها توقيراً عظيماً .

وبهذه المدينة دير للراحيات يشوى فيه جثمان العذراء القديسة « آرسولا » وجثث إحدى عشرة ألف عذراء أخرى يتن معها ، وقد تلت « آرسولا » هذا الشهاد ، وهذا الدير كبير وهو مكان شهير للعبادة

وفي أثناء إقامتي بالمدينة انقصد سوقها وعرض فيه كثير من أنواع المتاجر لا سيما عدد من الطبول الإنجليزية وجياد اللباق وحُصن الجرمما أعجبنى جداً ، والألمان شعب مثابر جداً ، وهم كما قلت يارعون على وجه الخصوص في الصناعات اليدوية .



تركزت كولونيا وسرت متعديراً مع النهر حتى جئت إلى بلدة قابلة لدوق « كليفيش »^(١٤٥) والد أميرة « نقارة » ، وهو متزوج من إحدى أخوات دوق رجنديا ، كما أنه إقطاعي كبير ذو أرض واسعة ودخل كبير وإن قيل إن أحسن ما يده من الأراضى قد سلبه من جيرانه بمدوانه للشخصى ، وقد تلقاني الدوق لقاء كريماً جداً وأحسن استقبالي وأمر بإطلاعى على شعاره الخاص وعرفنى بالشروط الخاصة به ولكنها بدت لى أشد ما نكون خشوة ، ولما كان البابا قد أحلى من اليمين المتعلق بهذا الشعار الذى حملته فاتنى لم أستطع الموافقة على ارتدائه .



رحلت من هذا اللورد والمحدث مع الراين على اليمين لجئت إلى بلدة
تسمى « نيميجن » أي « مايو الجديد » التي أسسها يوليوس قيصر ، وبها
لوحة قد نقشت عليها القصة كاملة وهذه البلدة تابعة لدوق « جيندرر »^(١٤٦) وهو
من كبار الحكام بل لعله أغنى من ذلك الحاكم الذي تركته حالا ، كما أنه
متزوج من إحدى بنات دوق برجنديا .

وهذه البلدة أجمل بلدة اكتشفت بها عيناى من كل الوجوه ،
فهي شديدة المناعة إذ بنيت على الصخور القائمة وراء سور قوى وخندق
منيع ، فاقمت بها ثلاثة أيام ، وتقيمت دوقها الذي كان مقبلا إذ ذاك
على مسافة مرحلة خارجها في قصر له في الريف للركوب والصيد ،
فتلقاني لقاء ليس أكرم منه ، ورأيت معه الدوقة وأبناءهما وبناتهما ،
فرغبوا إلى أن أتناول الغداء معهم ، فلما حل المساء استأذنت منهم
وعدت أدراجي إلى المدينة ، حتى إذا كان لليوم التالي سافرت وبلغت
بلدة كبيرة اسمها « بوا - لي - ديك » واقعة في منطقة « برابانت » وتابعة
لدوق برجنديا ، وهي مكان شهير جداً رغم أنها غير مزدحمة بالسكان ،
ويحترقها النهر في كثير من الأماكن . ويربى الناس من البجع ما يضاهاى
في كثيره أوز قشقله ، ويقال إن الدوق يأمر بتوزيعها بين الناس الذين
يربون الطيور ويقدمون إليه تقريرا عنها ، فإذا كانت أيام الأعياد أكلت
واعتبرت من المبالغات في الترف ، وقد اشتريت هنا حصاناً بستة عشر
دوكات وإن كان يساوى بلا شك مائة دوكات في بلدى .

* * *

رحلت بعدئذ إلى « ليلا »^(١٤٧) الواقعة هي الأخرى في رابات

وتسعة أيضاً لدوق برجنديا ، وهي بلدة لطيفة جداً ، وقد جرت عادة أهائها على السفر في عربات ، لكنني لم أستطع تحمل السفر بها لأنني أوتر المعسر عنها ، ومن ثم دأبت على الركوب على حين تبعني رجال في هذه العربات .

وتتناثر الطواحين الهوائية بين مرحلة وأخرى في القسم الأكبر من هذا الإقليم ، ويحرق أهل أحجار الكلس وقوالب الطوب بدلاً من الخشب ، ولذلك يمد صاحب كل أرض إلى أعدادها في الصيف وتجفيفها في الشمس ويحفظ بها إلى دخول الشتاء ، وتار هذه القوالب لطيفة ويقال أنها نافذة حدا للصعة ، وانظر هنا شديدة الندرة ، وبشرب الناس الجعة لرداءة الماء .

تركنا « ليلا » إلى « ماليز » التي يسميها القشتاليون « ميليناس » ، وعلى الرغم من صغرها إلا أنني لم أر من قبل أو منذ ذلك الحين مكاناً بدانيها فنية ، ويمجد الدوق مسرة كبرى في الجيء إليها للاستجمام بها استجمام الشخص في المدينة ، وليس له قصر في البلدة ولكنه ينام في فندق بلغ العاية في الروعة حتى إنه لا يصلح لهذا الأمير وحده بل لأعظام أمير على وجه البسيطة .

بقيت يومين بهذه البلدة التي أعجبتني غاية العجب بختائها وجمالها ، ثم غادرتها إلى « بروكل » الواقعة أيضاً في برابانت ، فوجدت بها دوق برجنديا وزوجته^(١٤٨) الدوقة قدمت لها احترامى ، فقلتي أحسن لقاء ، وقد حمل الدوق على ذلك أصله الفرنسي والحب الذي يكنه القشتاليين ، أما الدوقة ولأصلها الإسباني وقراتها لولانا الملك جون إذ أنها ابنة

عمته ، وقد أمر الملك بإسكانه وتوفير للسكن لى وتهيئة كل ما يلزمى
أما ومن معى ، فاسترحت كل الراحة .

فما كان اليوم التالى امكفأت إلى قصر الدوق الذى وحدته فى
القدس ، ثم رحت أستفسر عن ابن سفت بول^(١٢٩) حتى لقيته وقابلته
وأبلغته تحية « جوتير كويكسادا » الذى كان مرتبطاً بمبارزته وكنت
قد رأيته وهو يركب البحر إلى بيت المقدس ، وقد بعث إليه كلمة
يقول له فيها إنه سوف يعود على سحاح السرعة للوفاء بالتمامه وزكى
نفسه للفعل ؛ فدنى منا الدوق وإذا سمع غوى الرسالة قال مازحاً : « نعم
ما فعل موزين جوتير من ذهابه إلى القدس ثم اعتزامه العودة لفعل
رفيقه أو التفعل عليه ، وقد كان من الخير له أن يقوم بهذه الرحلة بعد
المبارزة » ، ولقد قال الدوق كل هذا مازحاً ، وأخذ الفعل منذ ذلك
اليوم يولى أعظم اهتمام حتى لكأنى واحد من أقرب الناس إليه .

والفعل فارس رشيق ورجل شريف استطاع بفضل شجاعته الشخصية
أن يتقدم على الكثيرين غيره ممن يشأونه فى الأملاك ولكنهم دونه
احتراماً وتقديراً عند الدوق والدوقة وبقية السيدات ، وقد جمع بين
الروعة والشجاعة ، وأسم عليه الدوق بوسام الأسطول الذهبى تقديراً
منه لفضله واستقامته ، ولم يكن أحد ما حتى ذلك الحين — قاصراً
كان أم غيره — قد نال هذا الوسام ، ولكن حين رأى الدوق والمجلس
ما عليه هذا الفارس من البسالة والركة أجمعوا أمرهم على أن
يسموا به عليه ، ويقال إن النوط الذى يلبسه الآن هو الذى كان لورد
« تريمويل » قد خسره بفراره فى أثناء القتال .

والعج رائع في شخصه وتركيبه ، رقيق القوام ، وهو رجل حصيف
بقي ، يبلغ من العمر الخامسة والحسين ، وإن كان نحيفاً أميل إلى الاصفرار ،
وفي وجهه ندبة من حرح أصابه في القتال حين وقع في الأسر ، ثم أطاق
سراحه بعد دفع دية كبيرة دفعتها الوصية أم دوق رجنديا التي يقال إنها تحبه
حباً عظيماً .

وقد أرائني هذا الناس قصر الدوق والمدينة وكل شيء بها ، يبدأه
لا يوجد شيء يفوق في جلاله رجال الدوق والدوقة وأسلوب الحياة التي
يتقلمون في مطارفها ، وهي أغنى حياة تسمى لي رؤيتها ، وفي ذلك الحين كان
الناس الآتية أسماؤهم يعيشون في القصر لمادمة دوق سانت بول الفوي وزوجته
وأتباعه ، وكونت « استامب » وهو يماثل الدوق في قوته مع أتباعه ، وأميرة
« انفارة » ابنة أحي الدوق التي تقيم في مسكن خاص بها ، وكذلك أخوها
« جون كليفيز » وسيدان آخران اسمهما « شارني » و « كريكلي » مع زوجتيهما
وكثير من فرسان أهل بيت الدوق . ويقال إن هناك مائتي آنة من أواس
الشرف يقمن دائماً بخدمة الدوقة ، وينام جميعهن وما كلن في القصر كما يفعل
الفرسان الذين ليست لهم أماكن إقامة مستقلة ، ويدفع الدوق من جيبه الخاص
جميع النفقات كما لو كان يدفع نفقته الخاصة ، وهو يبدو لي من هذه الناحية
عكس دوق ميلانو الذي يرل جميع الرجال في الحقل ولا يسمح لأحد
بالمعيشة معه ، على حين أن الدوق يسكن الجميع معه ولا يسمح لأحد بالمعيشة
خارج قصره ، غير أن دوق رجنديا يستطيع استبقاء فرسانه في القصر لأنه
يشتمع بالسلام والهدوء ، وقل أن يتمكن للراء من وصف جموع الناس

وتهذيبهم وزينتهم ، فهناك سلسلة دأمة من المبارزات وكل ما يدخل المهجة
على القلوب .

أما الدوق فرجل عظامى ذو عرق ضارب فى الفضيلة ، رائع الطلعة لبق ،
وهو طويل القامة وإن يكن نحيفاً بعض الشيء ، خفيف الحركة ، ذو محبة
وسروعة ، كما أن الدوقة بالغة الثراء جداً ، محبوبة كل الحب من رعاياها ولا
يشأوها فى حبهم إياها سوى زوجها ، ولم يرزقا من الدربة غدير ولد
واحد (١٥٠) .

...

ولقد أبصرت فى البلاط رحلين كفيفين من قشتالة يضربان على القيثارة ،
ثم صادفتهما فيما بعد فى قشتالة ، وحدث فى أثناء إقامتى هناك أن بعث
الدوق إلى عدة مرات مستفسراً منى عن الأماكن التى تهوأت لى زيارتها ،
وكرر من الأسئلة ما أفصح عن رغبته فى أن يكون إمامه تاماً بكل ما رأيت
وفعلت ، وأظهر سروراً كبيراً بما أفصيت به إليه ، ففهما إياى شوقه الملح إلى
غزو بيت المقدس ، وهذا على الأقل هو ما بدا لى من استفساراته ، وسألنى
هما إذا كنت راعياً فى متابعة رحلتى أم أنى برضىنى البقاء فى بلاطه ، فأجبتهم
أنه لا بد لى - وقد زرت بلده وباريس - من العودة سريعاً إلى قشتالة ، إذ
بلغ مسمى أن مولاي لللك أراد أن يحارب المسلمين بنفسه . ومن ثم اهتم
الدوق بالأمر اهتماماً جدياً ، وأصدر أمره إلى النفل حنت بول بمرافقتى فى تجوالى ،
فإذا رغبت فى الرحيل كان عليه مصالحتى فى رجوع أملاكه لحراستى ، وراى
على ذلك بأنه مستعد لتزويدى بكتب توصية منه إذا كانت ضرورة لذلك ،

فسرني هذا منه كل السرور؛ ثم توجهنا بعدئذ لمشاهدة المدينة وما هي عليه من
الصحة والثراء والقصور الجميلة التي يقوم في وسطها قصر البلدية حيث
ينعقد المجلس، وليس لهذا القصر صريب أبداً؛ كذلك مضينا إلى خارج
المدينة لرؤية بعض الإقطاعات التي يملكها الدوق والتي يعمى إليها الشمس للهو،
وكان من بينها ضيعة بها مرل رائع جداً تحوطه حديقة كبيرة يبلغ محيط دائرتها
قراءة مرسخ، تخرج فيها الغزلان والحيوانات البرية.



غادرت بروكسل في رفقة أحد الفرسان واسمه كابتن «سُلويس» الذي
أوصاه بي النفل، وبلغنا عشية هذا اليوم مدينة لم نسكن بها فطرة واحدة
من المبيد، فاقترحت أن نتابع سفرنا إلى «بروجس» إذ لا بد أننا واجدون
بها بعض ما نريد، بيد أن الفارس أخبرني أن سيدة من ذوى قرابه هي
رئيسة أحد الأديرة المجاورة، وأنه مرسل إليها سائلاً إياها عما إذا كان لديها
شيء من الخمر، وقد لا أفد رسولا إليها، فأجابت الديرافية بأن لديها من النبيذ
وعرة بامة، ولسكها لى تمده به إلا إذا وفد عليها لتناول العشاء وهو ورفيقه
الفارس الإسباني، ومن ثم ذهبنا إليهما فأكرمت وفادتنا غاية الإكرام
ورحببت بنا أعظم الترحيب، فلما فرغنا من العشاء أخبرني أنها كانت قد
حجت إلى «سنتياجو»، ولقيت حفاوة كريمة جداً من القشتاليين ولا تدري
كيف تحاربهم عنها، وإذ ذاك التمتت منى البقاء بضعة أيام عندها للاستحمام
بعد ما كابدته من عناء الرحلة ومشقة السفر، وأنها تني أنها سوف تعاملى كما

كما لو كنت ابنها ، فشكرت لها كريم منتها واستاذنتها في الرحيل ، ثم
خرجنا بعدئذ قاصدين « بروجس » التي دخلناها مع العسق ونزلنا في فندق
الملاك ، وحيداك فارقتي كابتن « سلويس » ورحل إلى طيبته بعد أن دعاني
لزيارته في ليله ومشاركته سروره ، فوعده بالوفاء بما سأل

• • •



الفصل الرابع والعشرون

بروجس . أراس . غنت .

انتورب .

...

بروجس^(١٥١) مدينة كبيرة بالغة الثراء ، وهي إحدى أسواق العالم الكبرى ، ويقال إن المدينتين اللتين تتنازعان السيادة فيما بينهما هما «بروجس» و «فلاندرز» بالعرب و «البندقية» في الشرق ، ومع ذلك فيهدو لي - ويتفق معي الكثيرون في ذلك - أن النشاط التجاري في بروجس أعظم مما هو عليه في البندقية ، ومرجع هذا الأمر أنه لا يوجد في الغرب بأجمعه مركز تجاري نشيط سوى ما في بروجس رغم ممارسة إنجلترا نفس التجارة ، ويقول الناس إنه يحدث في بعض الأحيان أن يجاوز عدد السفن المقلمة من ميناء بروجس سبعة مائة سفينة في اليوم الواحد ، أما الحال في البندقية فعلى العكس من ذلك إذ لا يصل العدد إلى مثل هذه الضخامة ، لأن العمل في التجارة بالميناء قاصر على أهلها .

وتقع بروجس في إقليم كوتية فلاندرز وهي أم مدنها ، هذا إلى ازدحامها بالسكان ، وهي ذات شوارع رائعة وبيوت جميلة ، كما تحفل بالكنائس والأديرة والحانات المظمة ، وتتمتع بنظام حكومي دقيق مقنن سواء في الناحية القضائية أو سواها ، وترد إليها البضائع من إنجلترا وألمانيا وبرابانت وهولندا وزيبلند ورجنديا وبيكاردي والجزء الأكبر من فرنسا ، وكانتها ميناء هذه

الأقطار جميعها ، والسوق الذي ترسل إليه كل منها بضائعها ليبيعها بلا حرج
بطراً لو قرنتهم في بلادهم

وسكان « روجس » أهل جد وعمل ، ولعل مرجع ذلك جذب أرضهم
لقلة إنتاجها من الحبوب ، ولا يوحد بها التئيد ولا الماء الصالح للشرب
ولا المأكلة ، ومن ثم فإن منتجات العالم تأججه ترد إليها بوفرة كبيرة ،
كما تصدر منها تجارت اللبيا من الأقمشة الصوفية وملابس « أراس » وشتى
أنواع السجاد والبسط وسواها من ضرورات الحياة التي يتوفر منها بها الشيء
الكثير ، كما يقوم هناك بناء ضخيم فوق مجرى كبير من المياه يتدفق من البحر
عند « سلويز »^(١٥٢) ، يستمنه « لاهاله »^(١٥٣) التي تفرغ بها جميع البضائع
على الصورة التالية :

ذلك أن البحر في هذه النواحي من العرب يتعذر بشدة ، وبين روجس
وسلويز (والمسافة بينها فرسخان ونصف فرسخ) قناة كبيرة تشبه النهر
في عمقها ، كما توحد في أمكنة متفرقة بوابات مثل الطواحين الهوائية ، فإذا
فتحت اندفع خلالها الماء ، وإن أغلقت حيل بينه وبين التدفق ، فإذا كان
وقت ابدت شعنت السمن وأبحرت بما عليها من « سلويز » ، فإن بلغ لواء ذروة
ارتفاعه سدوا الميوس ، وحينئذ تعود للراكب التي أفرغت ما عليها ثملات
جديداً ، وقد استمل الأهالي للياه لحمل كميات ضخمة من البضائع ما بين صادرة
وواردة ، ولو كانوا يستعملون الدواب لنقلها لسكنتهم ذلك أعباء جمة وكبدهم
مشقة عظيمة .

وتتمتع مدينة روجس هذه بدخل كبير جداً ، وأهلها على جانب كبير
من الثراء ، وقد ثاروا أخيراً ضد الدوى^(١٥٤) وقت وجوده بالمدينة مما اضطره

إلى الحرب مع زوجته وحشمه ، ثم أحد يستعد للقتال ويهيئ نفسه له ، وشر
حرباً على المدينة واحتلتها بالقوة ، وانتقم منها أقطع انتقام في الأرواح والأملك ،
واقدر أيت يعي رأس كثيراً من المشاق العالية حول « بروحس » حتى
« سلويز » وعليها رموس المالكى .

وأهالى هذه الناحية شديدو التأتق في مظهرهم ، ممرقون في طعاهم
وما كلهم ، مبالغون في الأخذ بالكاليات ، ويقال إن ساء هاله الساقطات
يحصلن على إادن يسمح لأى فرد بالذهاب إليهن وقضاء الليل معهن ، ويمكن
لمن يرتاد هذه الناحية أن يحضر أى امرأة يختارها ويضاجعها على ألا يحاول
دويتها أو التعرف على هويتها وإلا كانت اللوت نصيبه ، ولا يبالي القوم
باستخدام النساء والرجال معا ، وينظرون إلى ذلك نظرة شريفة أشبه ما تكون
بنظرتنا إلى ذهابهم معا إلى الكنيسة ، وليس من شك في أن للثروة اعتبارها
وللكاليات سيادتها ، ومن ثم فليس فيها مكان للعقير الذى لا يستطيع الإقامة
بها ، أما من توفر لديه المال وشاء صرفه فسيجد في هذه المدينة وحدها كل
ما أنجبه العالم ، ولقد رأيت بها فاكهة البرتقال والليمون الواردين من قشالة
حتى لحسبهم كما قد قطعنا للحفظها من على الأغصان ، وشاهدت بها المواك
والنبذ الواردين من اليونان بالسكرة التى تتوافر بها في ذلك القطر ،
كما شاهدت الحنوى والتوابل من الإسكندرية وجميع بلاد شرق البحر الأبيض
متوسط حتى ليخيل للمرء أنه يتلك البلاد ، ورأيت الفراء الوارد من البحر
الأسود ، كذلك كانت هنا إيطاليا بكل ما فيها من المنسوجات والحريز
والأسلحة وحتى أنواع الصناعة القائمة بها ، والواقع أنه ليس ثم بلد في العالم

لا توجد متبجاته في بروجس ، ومع ذلك كله قد كانت مجاعة كبرى في السنة التي زرتها خلالها .

* * *

رحلت بعدئذ لمشاهدة « سلويز » (١٥٥) — ميناء بروجس البحري — وأقيمت مع ربان الباخرة ، وحدث أن كنت ذات يوم في الكنيسة أسمع القديس حين اقتربت مني امرأة وقالت إن لديها أمراً يهمني وتريد الإقصاء به إلى على انفراد ، ثم سارت في إلى دارها المجاورة للكنيسة ، وقدمت لي فتاتين صغيرتين وسألني أيهما ترضيني ، فاستبدت بي الدهشة من ذلك وسألتهما كيف سولت لهما نفسها أن تملك هذا المسك معي ، فأبوتني أنها تكاد تموت جوعاً وقد مضت عليها عدة أيام لم تجد ما تقتات به سوى قليل من السمك الصغير ، كما أن الفتاتين أوشكتا على الموت جوعاً وأنهما عذراوتان ، فأخذت من ثلاثين عهداً ألا يحاولن ثانية هذه المحاولة مع أحدهما ، وذكرت لهن أن السنة الجديدة ستكون أحسن طالعاً وتجلب معها الخير ، وأن ما سأعطيه لهن سوف يكفي لإغاثتهن ، ثم تناولت المرأة ستة دوكات بنقدية وغادرتهم .

ولقد كانت المجاعة أسوأ مجاعة عُرِفَتْ حتى ذلك الوقت ، ثم جاء في أعقابها طاعون جامع خرب كثيراً من النواحي .

* * *

بقيت مع الربان هناك مدة يومين شاهدت خلالها المكان الذي تبلغ بيوته أكثر من خمسة عشر ألفاً ، وهو مكان شديد المذاعة بفصل السور القوي المحيط به والخندق المملوء بالمياه ، كما يزدحم بالأجانب

وبصائعهم حتى لتضيق البيوت على كثرتها عن إيوائهم جميعاً . ولقد
قادت هما كثيراً من القشتاليين وغيرهم من الجنسيات الأخرى التي أعرفها .
ويقول إنه من المسير جداً دخول ميناء هذه المدينة من حراء
الشواطئ الرملية ، لكن لا تكاد تنفع السفينة في اجتيازها حتى
تصبح في غاية الأمان ، أما حين يتعصر الماء فتبقى راسية على الرمال
المالحة العميقة كأنما هي في بحر من الماء .

ويبدو المرفأ لناظره كما لو أن نصف العالم قد حمل سلاحه لمهاجمة
المدينة حيث يوجد بها أسطول ضخم من السفن من شتى الأنواع قد ألفت
مراسيها في هذه الماحية ، فمنها النازحات والفرقاطات من ألمانيا ، والشوانى
من إيطاليا ، والطرادات والسفن ذات الأبراج وسواها من ضروب المراكب
الأخرى من مختلف الأقطار ، وإذا كان بين بعض أصحابها والبعض الآخر
عداوات فلا مجال لإظهارها هنا برأ أو بحراً ، إذ يسير كل فرد في سبيله ولا يعبأ
بغير عمله ، أما إذا نهج أحدهم نهجاً يخالف هذه القاعدة أنزلوا به أشد أنواع
العقاب ، ويمكن للمرء أن يرى في هذا المكان رجالاً من جميع الشعوب وقد
جلسوا إلى مائدة واحدة يتناولون طعامهم دون خصام أو عداوة . ولقد بقيت
في « سلويز » مدة يومين في صحبة الريان عدت بعدها إلى بروجس .

أخذت طريق بدنتز هير « بيكاردى » إلى مدينة اسمها « أراس » ، وهي
تأسس لدوق برجنديا ، وتمتاز بروعة مظهرها ، كما أنها مفرطة الأراء لاسيما
بفضل منسوجاتها وسجادها المختلف الأنواع ؛ ورغم صنع هذه في أماكن أخرى
غيرها إلا أنه لا جدال في أن ما يُصنع منها في « أراس » يفصلها جميعاً .



ولقد جرت هنا مفاوضات الصالح بين ملك فرنسا ودوق برجنديا ، و بقيت
 بها ثلاثة أيام واعتزمت للضي منها إلى إقليم « نرمنديا » لمشاهدة « روان »
 ثم إلى باريس ، بيد أن وطأة الطاعون بلغت من الشدة حدا أرغمتني على
 طريق العودة إلى « بروجس » في فلاندرز ، وكان لي مبلغ من المال
 بعض صيارفها فمضيت إليهم للمطالبة به ، لسكنتني وجدت جميع التجار
 غادروها إلى « أنتورب » حيث كان السوق منعقداً ، فبقيت في « بروجس »
 يوماً واحداً رحات هذه ، ثم قدر لي بعد يومين أن أبلغ « غنت » الواقعة هي
 الأخرى في كوتية فلاندرز .

• • •

و « غنت » واحدة من أكبر مدن العالم المسيحي ، وهي محصنة أعظم
 التحصين من كل ناحية رغم وقوعها في منطقة سهلية ، وذلك لإحاطتها بسور
 قوى وفرة الخنادق التي يستعمل معها مهاجمتها إلا من مسافة قاصية ، هذا
 بالإضافة إلى كثرة الأسلحة والدافع بها ، ويقولون إن القانون يحرم على كل فرد
 من سكانها حمل سلاحه ورمح ، وأنه يمكن تعبئة ستمين ألفاً من المشاة
 للقتال ، وسواء أكان هذا الخبر صادقاً أم موضوعاً فالثبات أن بها من المثوبة
 ما يكفيها ست سنوات ، وهي تتحدد كل عام ؛ وحين كنت بها كان أهلها
 في قتال ضد حاكمهم الدوق^(١٥٦) الذي زحف عليهم وحاصر المدينة التي ظلت
 تقاومه فترة غير قصيرة من الوقت ، ولكنه نجح في الاستيلاء عليها أخيراً ،
 وانتقم منها أشد انتقام ، حتى إن الأهالي راخوا يقدون إليه - كما قيل
 عرايا إلا من فضلة قيص يسألونه العفو عنهم ، كما أذعنوا الأمور كثيرة إظهاراً
 منهم لخصوهم له ، وحينذاك فحسب رحل عنهم غير أن هذا الاستيلاء كلف الدوق
 جهداً طائلاً ، فقد فقد بصاعته وهلك فيه أحد أبنائه ، كذلك هلك بها أيضا

الأخ « جاك دى لابن » الذى حارب من قبل فى قشتالة ، وكان مصرعه من حرج أصابه من شظية مدفع .

ومدينة « عنت » كبيرة جداً أهلة بالسكان عظيمة الثروة بفصل تجارتها ، وذلك لوصول مياه البحر إلى أسوارها مما يساعد كثيراً من السفن على دخولها ، ويمكن القول أكثر من هذا فما يتعلق بها لكتنى لا أميل للإفراط كثيراً عنها ونسكف المشقة بالكتابة الطويلة .

سافرت من عنت وقدمت إلى « أنتوب » الواقعة فى « رابات » التابعة لدوق برجنديا ، وهى مدينة كبيرة بها ما يقرب من ستة آلاف مكن ، ولها سور رائع وحصن وخنق ، وشوارعها ودورها جميلة جداً ، وبها ميناء رائع ، كما ندخل السفن المدينة عبر أحد الجداول ، مما يستطاع معه ربط الزوارق إلى أسوار المدينة ، كما أن السوق^(١٨٧) الذى بمقدنها هو أعظم أسواق العالم طراً ، وعلى من شاء أن يرى المسيحية كلها أو الجانب الأكبر منها مجتمعة فى مكان واحد فهو مستطيع ذلك هنا .

ويحضر دوق برجنديا على الدوام إلى السوق الذى يرجع إليه الفضل فيما يصحلى به بلاطه من بهاء وروعة ، إذ يفد عليه أقوام من شعوب جمة متباينة كالألمان المجاورين له والإنجليز ، كما يفشاه الفرنسيون فى جموع كثيفة يشترون منه ويبيعون فيه السلع الكثيرة ، أما الجربون والبروسيون فيساؤون السوق بحيوهم ، كذلك يطالع المرء هنا وفود الإيطاليين ، ولقد رأيت بنفسى سفن وشوانى البندقية وفلورنسا وجنوة ، أما الإسبان فهم أكثر ، بل لهم أكثرى « أنتورب » منهم فى أى مكان آخر ، ولقد قابلت تجاراً من « بيرجوس »

من المستقرين في «بروجس» كما صادفت في المدينة أيضاً «جوان دي موريللو»
أحد خدم ملكنا .

وليس لأنتورب كسوق تعارى - نذ ولا ضريب ، حيث يتجمع
كل الثروات ووسائل التسلية ، ويتسم نظام المرور فيها بالروعة ، وتباع الصور
من شتى الأصناف في دير القديس فرسيس ، وأقمشة «أراس» في كنيسة القديس
يوحنا ، ويقوم أحد أديرة الدومنيكان بالتعامل في جميع أنواع المصنوعات
لذهبية ، ومن ثم فإن السلع المختلفة مورعة بين الأديرة والكنائس ، ويبيع
البعض منها في الشوارع ؛ ويوجد خارج المدينة عند إحدى بواباتها شارع كبير
يبيع القوم فيها خيول الجر وجياد السباق وغيرها من أنواع الأحصنة ، وهذا
منظر فاتن ؛ والواقع أنه ليس ثم شيء يشواقه الإنسان دون أن يراه هنا بوفرة
عظيمة ، ولست أعرف كيف أصف سوقاً هائلاً مثل هذا السوق ، فلقد رأيت
الكثير غيره في «جنيف» بسافوى ، وفي فرانكفورت بألمانيا ، وفي «مدينا»
بنشالة ، لكنها كلها مجتمعة لا تقاس بسوق أنتورب .

الفصل الخامس والعشرون

لوفان . بوال ديك . فرانكفورت . كولونيا . ميتر

أسر الرحالة وإطلاقهم . طيمور يقصد سبعة .

لنزبل . ماررة في شافهاورن .

كسار . نومورج . براج .

حاكم ميلين

...

سافرت من « أنتورب » وجئت إلى مدينة « لوفان » الواقعة في « برابانت »
وهي مدينة كبيرة جداً لكنها غير آهلة بالسكان بصورة ظاهرة ، وتوجد بها
جامعة لدراسة جميع العلوم وإن قالوا إن دراسة اللاهوت تحظى بنصيب أوفر
مما تحظى به سواها من الدراسات الأخرى ، ورأيت بها اثنين غير شرعيين
من أبناء دوق برجنديا يدرسان فيها الفلسفة ، وقد أصبح أحدهما فيها بعد فارس
حربياً صنديداً ثم اتى مصرعه كما ذكرت آنفاً - في حصار غنت .

غادرت « لوفان » وجئت إلى « برا - لي - ديك » التي كنت مها من
قبل ، ثم سافرت منها إلى « نيسيجين » التابعة - كما قلت من قبل - لدوقية
« هيلدرز » ، ثم بارحتها إلى دوقية « كليفس » وباعت مدينة فرانكفورت
وقت اعتقاد السوق الكبير وإن لم يقف على قدم المساواة مع سوق أنتورب ،
على أن المدينة مكتظة بكل أنواع للثروة ، وبها أربعة آلاف نسمة ، ويرجع
الفضل إلى هذا السوق فيما تنعم به المدينة من الثروة ، وهي واقعة في وسط

ألمانيا ، كما أنها في نظري أروع ما تسكور لها من الحيوانات ، وقد مكثت
بها ثلاثة أيام انكفأت بعدها عائداً إلى كولومبيا فررت رئيس أساقفتها وفاءً
بوعدي له ، فلقيني أكرم لقاء .

والتيقبت في كولومبيا سفارة كانت عائدة من مازيل إلى دوق رحنديا ، كما
صادفت ثلاثة طيعة من المرحال أرسلها « المجلس » إلى الدوق رجاء حمسه على
مساعدة الجميع والوقوف إلى جانبه ومصره عن ولائه للبابا وتأبيده إياه ، وكان
في السفارة ثلاثة من رجال الدين : أحدهم أسقف « فيرو » بالبرتغال ، وثانيهم
ألماني الجنس ، أما ثالثهم فهو « لافيخو » أعظم أدباء عصره وحامل دواة
البابا ، وقد حدث أنما، تمرق بأسقف « فيرو » الذي قابله في جزيرة
« خيوس »^(١٥٨) باليونان - حيث كان ذاهباً لمقابلة إمبراطور القسطنطينية -

أن اضطررت للعودة في صحبته حتى بازل ، فلما جثا إلى « مينز » بعث السفراء
في الحال إلى « سنيفن » دوق بافاريا^(١٥٩) يطلبون منه عهد أمان في الطريق ،
ذلك لأن الدوق كان معلماً لأن أخيه دوق « لويج » وكان سيد تلك
الجهة كلها ، والسبب في ذلك أن الدوق كان من مؤيدي البابا « يوجين » ،
فبادر بإرسال كتاب الأمان في الوقت المناسب ، ورحلنا عن مينز ، لكن
ما كدنا بعد عمها بثلاثة فراسخ حتى هاجمنا مائتاخيال أمروا السفراء وكنت
من بين الأسرى ، وحملونا إلى حصن بأحد الجبال اسمه حصن « ليمانتين »
الذي عرف فيما بعد باسم « لوسهايم » ، وكان هذا عملاً فاحش السوء ، بالغا
الندم في قلة الدوق وإن لم يمسنى أحد منهم بضر إذ رأوني فارساً ، ولكمهم
بعثوا في طلب فارس أخذ مني حبي ومهازي ثم أبقونا في ربيعة الأسر
خمس عشرة يوماً لكن لم يكن هناك خوف من قلة الطعام ، إذ كانوا يحملونا

الليل وعند ابتلاج النهار وكذلك طول ساعات اليوم على الأكل والشرب مع حرصنا حرباً على مألوف عاداتهم مما لم يكن لها مثيل عندنا ، مما أدى إلى مرضنا واشتداد العلة بنا ، فأرسلت في الحال للدوق « سقيف » أخيره عن أكون ، وعن طريق محبي ، وطلبت إليه إطلاق سراحى ، فاستجاب لى بإرساله أحد أسماء جلده ليخلصنى من الأسر ، فلما رُدت إلى حرقى رغبت فى رؤية رفاقى ومحادثتهم ، لكن القوم رفضوا طلبى هذا لأنهم كانوا قد أبقوا كلامنا على أفراد عن الآخرين .

لم أكد أخرج من سجن القلعة حتى ركبتُ مع جماعتى وذهبت إلى دوق « سقيف » الذى كان مقبلاً فى بلدٍ تبعد عن هناك فرسخاً واحداً ، وحادثته طامهاً إليه لإطلاق سراح رفقى ، وأخبرته أنه إذا لم يطلقهم فى الحال فلن يقف الأمر عند حد ضياع بضائمه بل وأيضاً أملاك ابن أخيه التى كانت فى حوزته .

وبينا كنت موجوداً هناك جاءت الأخبار بشورة شغب ابن أخيه ضد الدوق قائلين إن الدوق دنس شرف ابن أخيه ، وأنه نكث عهد الأمان الذى منحه ، وحينئذ سألنى الدوق أن أعود إلى السفراء فى محاولة منه للمصالح بينه وبينهم ، قائلاً إنه شديد الرغبة فى إطلاق سراحهم على ألا يرفعوا شكواهم إلى المجلس أو إلى الإمبراطور ، كذلك بعث إلى الرسل الذين وفدوا عليه منضياً إليهم بإطلاق قيد السفراء ورعايته إياهم كل الرعاية ، فرحلت حينئذ مع أحد أقاربه وعدت إلى المكان السجون به السفراء وأفضيت إليهم بحيلة الخبير ، فسروا سروراً عظيماً بما فعلته ، وسرعان ما استجابوا إلى الشروط التى طلبها الدوق فأطلق سراحهم واستردوا جميع ما أخذ منهم ولم يهتدوا شيئاً ما ، لكن الذى

أدهلى هو أن القوم تفقدوا سيفى الذى كانوا قد سلبوني إياه فلم ينفوا له على أثر ، فقدّموا لى بديلا عنه واحداً من سيوف الدوق ، بيد أنى روصته اردراء ، مقسماً اليمن ألا أحمل غير سيفى ، وأن لا بد أن يدفع للدوق الثمن غالباً للإهانة التى لحقتى رغم كتاب عهده بالأمان .

حيثك رحلنا أما والسفراء عبر أراضى دوق « لدويج » ، حيث لقينا من الأدهلى غاية الاحترام ، وأجروا أن نتحمل دفع ثمن ثىء ما ، لكن بينما كنا على وشك معادرة أملاكه جاءنى سيد من رجالات الدوق على صهوة جواده ملتصقاً بى أن أسى عصى لأن الأمر لم يكن موحياً ضدى بل ضد السفراء ، ثم جاءونى بسيفى وأخبرونى أن الدوق تكلف فى العثور عليه مشقة أعظم من مشقته فيما لو كان يحارب لاحتلال إحدى المدن ، وعلى هذا غادرنا أرض هذين السيدين : الم وابن أخيه ، وعدنا إلى « ستراسبورج » ، وتابعنا سفرتنا آخذين معنا من كل مدينة حرساً مسلحاً لحمايتنا نظراً للأحزاب المتنازعة ، ولإحصومات التى بين البابا والجلوس ، وانكسأنا إلى « بازيل » حيث وجدنا للمرة الثانية سفراء من لدن مولانا الملك ، وهم الذين رأيتهم من قبل .

...

ولما رحلت من بازل فى الوقت المحدد وصلت إلى مدينة بسمونها « شافهورن » تقع على الراين الأعلى ، ورغم صغرها إلا أنها جميلة وبالغة النظافة ، وكانت بها إذ ذاك مبارزة عظيمة رتبها الأمراء على الصورة التالية : هى أن يجتمع جماعة معينة من الفرسان ويدونون فى قائمة أسماء جميع نبلاء تلك الماحية ، مع تكليف أحد الرسامين بنقش رنك كل واحد منهم وهو يحمل من دار لأخرى ومعه الدرع ، ويعلنون يوماً معيناً من الأيام يذهبى على كل

شريف الحضور فيه يتفقه إلى المكان المتفق عليه وهو في كامل سلاحه وبخيوته
لساهم في المارزة ، كذلك يذيعون هذا الخبر على كل كبار سيدات تلك
النواحي ، وبعدئذ يجتمع النبلاء والسيدات ، فإذا تكامل عقدهم جميعاً انتحى
كبارهم في السن ناحية مع بعض المتقدمات في العمر وراحوا يتشاورون فيما
بيدهم ، ويستفسرون عما إذا كان أحد النبلاء قد ارتكب خطأ أو سلك
مسلكاً غير لائق ، وهل هناك ثم واحد منهم قد اغتصب سيده أو آتته أو
أساء السيرة معها ، أو سلب حقاً لضعيف أو لشخص لا حاي له ، أو خسر
نفسه طمعاً في مال فتزوج امرأة من طبقة أدنى من طبقة ، أو ارتكب عملاً
يذل من مكانته ، وبذلك يستعرضون أخطاء كل واحد ، فإن وجدوا من
يدينونه استدعوا إليهم جماعة معينة من الفرسان الذين وردت أسماؤهم
في القائمة وكلفوهم بالهجوم على المذنب وضربه بالعصى وسوقه أمامهم ، فإذا تم
ذلك تقدم الفرسان المستنون والسيدات من المذنب وأخبروه عن علة ضربه ،
ثم ساروا به وأذنوا له بعدئذ بأنحاذ مكانه مع بقية الأشراف في الحلقة كما لو
كان قد تطهر من ذنبه وكفر عن جرمه ، أما إذا رفض المذنب الحضور حكوا
عليه حكماً ضاعفوا له به العقاب ، فإن أصر على عناده في المرة الثالثة أخرجوه
من طبقة الأشراف .



وفي كل هذه النواحي يستطيع الجميع للبارزة والاشتراك في رياضات
الفرسان ، أما النبلاء ذروا الأحساب المريقة للمروقة فهم وخدم الدين يساهمون
في هذه المارزة ، وتلك عادة طيبة جديرة بالتقدير لأنها تجعل الناس يعرفون
من يحق له أن يسكن داراً ذا أصل عريق ، ومن أذنبوا بارتكابهم أفعال

السوء التي تحملهم بالعار ، ولقد أمرت أن أشترك مع البلاء الآخرين
وأشاهد ملاحهم .

قيت في « شاموزن » يومين ثم سافرت قاصداً « كونستاس » التي كان قد
عقد بها مجمع ديني^(١٦٠) للقضاء على الخلافات الموجودة في الكنيسة ، وحصره
السفيران القشتاليان « فرناند بيريز دي أيللا » و « دي لوس دونسيوس » ، وهما
لقيت كـردبنال « سان مديرو » الذي كان بها ، وأقيمت معه ثمانية أيام ممتمة ، نعمت
حلالها برؤية المدينة الجميلة الجديدة بالمشاهدة لما اشتملت عليه من المنازل والشوارع
والكنائس والأديرة والمخانات الرائعة والتزل ، ولا بد أنها كانت على الدوام
بلداً طيباً ، ثم اردادت طيباً منذ أن عقد بها « المجلس » .

وتوجد بها بحيرة عذبة تصل مياهها إلى الأسوار ، وهي تابعة من جبال
الألب ، ويبلغ طولها خمسة أو ستة فراسخ ومثلها عرضاً ، وهي شديدة العمق
وتستطيع كثير من السفن الإبحار فيها ، وتكثر بها الأسماك التي يقال إن لحمها
من أشهى لحوم حيوان البحر مذاقاً ، كما يقنأ ثرونها عدد من الجزر الصغيرة حيث
توجد الصوامع إلى جانب الأديرة ، وتأتي كميات ضخمة من المثلثة عبر هذه
البحيرة التي يرحم الفضل إليها في رخاء المدينة ، ولقد شاهدت بها أجمل امرأة
قد رى أن نكتحل عيني برؤيتها ، وبلغ جمالها حداً حالجني معه الشك في آدميتها ،
ولو أنسى لها من الطيبة مثلما نسي لها من الفتنة لكات حور الجنة مثلها .

وافند عقد المجمع الديني جلساته هنا في الكنيسة الكبرى ؛ وحدث أن
مات في ذلك الوقت « فرناندو » ملك أراخون ، وأقيمت في هذه الكاتدرائية
الآنم الكبرى الأتفة ممكاته ، وزينت الكنيسة كلها بصور أسلحة أراخون

استأذنت الكردينال في السفر ورحلت لمشاهدة الإمبراطور الذي كان مقبلاً إذ ذاك في بوهيميا، واتخذت طريق عبر ألمانيا العليا حتى جئت إلى «أولم» التي سميها «أولوس»، والتي تصنع بها المنسوجات القطنية المنسوبة إليها، وهي طيبة الموقع بديعة البناء، كما أنها إحدى المدن الإمبراطورية التي تشير إلى حق الإمبراطور في القضاء وتناول الدخول وما سواها. وعلى بعد نصف فرسخ منها يجري الدانوب الذي يصب في البحر الأسود.

واقعد غادرت «أولم» إلى مدينة «نوردن لمعن» التي كانت حينئذ في صراع ضد أحد لوردات تلك الناحية، وزودني القوم بحرس سار معي عبر هذا الإقليم الخطار، ووصلت بعدئذ إلى مدينة «تورمريج»، فلقيت أناساً كثيرين منهم سفراء البابا وكردينال «سان كروزو»، كما صادفتُ جمعاً كثيراً من القسس من بينهم كردينال «سان سنو» الخالي المسمى بالأخ «جواندي توركهبادا»^(١٦١).

وكان من أنصار الجمع ومؤيديه كاردينال «أربيس» وكثيرون غيره من القساوسة، منهم للعلم «جوان دي سيجوفيا» أستاذ اللاهوت؛ أما من جانب الإمبراطور فهناك «كاسبر شليك»^(١٦٢) نائب المستشار، وكثير من الأمراء وأهل العلم، وقد اضطرت للإقامة هناك حتى أنهى مجلس «الديت» اجتماعاته واستعد القوم للرحيل للسفر مع «كاسبر شليك» الذي كان في طريقه لمقابلة الإمبراطور في بوهيميا، ولولا ذلك لما كان في استطاعت السفر دون توقع خطر الهلاك، ولقد زكأن لديه القشتاليون الذين كانوا هناك، مرضى أن أكون في معقه حيث قدم معه ابن أحد الكونتات واسمه «باندورف»، وكنت قد تعرفت عليه في قشتالة أثناء الحروب ضد المسلمين

على حدود « جيان » ، وهو الذى دُشِنَ فارساً فى « كاميل » ثم هرب إلى إسبانيا من أبيه حين أراد أن يجعل منه أسقفاً ، وكان له أخ أكبر منه ، عبر أنه حين عودته إلى ألمانيا وجد أن أياه وأخاه قد ماتا فورث عهدهما أملا كهما التى يبلغ إيجارها عشرين ألفاً من اللوكات ، ولقد لقيت من هذا الفارس عظماً كبيراً مثل الذى لقيته من حاشية الإمبراطور .

أما مدينة « نورميرج » فواحدة من أكبر مدن ألمانيا وأوفرها ثروة ، وهى قديمة جداً ويسكاد تعداد سكانها يبلغ تعداد سكان طليطلة التى تداينها فى الحجم وتشبهها فى الموقع ، ويوجد بها كثير من أهل الطرف لاسيما المعدنون ، وهم يصنعون الملابس الحديدية التى تسمى باسمها ، كما توجد بها كنيسة وضع الإمبراطور شارلمان بها الآثار المقدسة التى جاء بها من الأرض المقدسة حينما أخذ بيت المقدس ، ولقد ذهبتُ مع الكردينال لشاهدة هذه المخلقات وأطلعونى على الكثير منها ، ومن بينها حربة من الصلب تبلغ قدر متر فى الطول ، وذكروا لنا أنها نفس الحربة التى طعن بها السيد المسيح فى جنبه ، لكننى ذكرت لهم أننى رأيت الحربة الحقيقية فى القسطنطينية ؛ وأعتقد أنه لولا وحدى فى رفقة جماعة من كبار الرجال لكنت فى خطر من الألمان لما قلته .

وهذه المدينة بالغة الثراء رغم وقوعها فى الداخل ، فهى ملائ شش صروب البهائم . وحين فرغ السفراء من أعمالهم آو كل منهم إلى وطنه ، ومصيت مع الألمان إلى تخوم بوهيميا حتى بلدة اسمها « أجير » وهى التى خلع فيها الإمبراطور سيجسموند على « كاسبار شليك » جميع الوظائف الكبرى وكانت بها زوجته أيضاً ، ولقد أقما فى تلك البلدة ستة أيام احتفى فى أناسها

بزواج إحدى أخواته ، وكان بها كثيرون من ألمانيا وبوهيميا ، كما أقيم بها
عديد من المبارزات والاحتفالات الكبرى .

غادرنا نورمبرج وأخذنا طريقنا عبر بوهيميا حتى بلغنا مدينة « براج » ،
التي لم نستطع مقابلة الإمبراطور الذي كان قد سافر إلى « سيليزيا » على
حدود بولندية ، حيث كان يشن الحرب على الملك البولندي .

وبراج مدينة موعلة في التقدم إلى جانب روعتها وثراتها ، رغم أنها
أخذت في التدهور منذ أن أصبح البوهيميون هراطقة ، ويبدو لي أنه لم
يُقبض القضاء العام على الهرطقة ولم تستوصل شأفتها نظراً لوجود الجبال والمواقع
الهامة التابعة « للتأبوريين » ولقيام قلعة بسمونها قلعة « تابور » ، ولا يزال
الأهالي سادريين في غلواتهم وأحفظاتهم ، كما أن الجانب الأعظم من أهل
الملسكة يفتنون إلى جانبهم لاسيما النساء نظراً لوحود مجتمع نسوي ، وإن
كنت أعتقد أن ذلك إرضاء لشهواتهن الجنسية الدنيئة ، وهو أمر
سمحته أيضاً .

وتنقسم براج إلى قسمين يسمى أحدهما براج القديمة والآخر براج
الجديدة^(١٦٤) ، ويمر بين الاثنين نهر كبير عليه جسر يصل بينهما ، وبها
جامعة ذائعة الصيت لما يدرس فيها من جميع العلوم لاسيما اللاهوت ، وقد بقينا
في براج يومين وغادرناها عبر بوهيميا حتى بلغنا أقصى حدودها ، ويقوم بين
ألمانيا وبوهيميا سلسلة من الجبال الكثيفة الأشجار أشبه ما تكون بالجدار ،
ولا يستطيع المرء عبورها راكباً أو راجلاً إلا من مسالك خاصة .

وإذ غادرنا بوهيميا دخلنا ألمانيا وبلغنا مدينة تابعة للأمير « ميسين »
دوق سكسونيا^(١٦٥) الذي تزوج بأخت الإمبراطور فردريك ، وكان قد مصى

إذ ذاك قرابة أسبوعين منذ أن شرع في محاربة المراطقة البوهيين وأنزل بهم
الهزيمة واستولى على غنائم كبيرة منهم ، وأسر منهم ألف شخص من بينهم مائة
من النبلاء ، وقد استقبلني هذا القوق استقبالا كريما وحباني بكثير من
الرعاية ، وقد أقام معي بها « كاسبار شليك » ثلاثة أيام ؛ ثم رحلنا بعدد
عبر ألمانيا وشاهدنا كثيرا من الأماكن والكنائس التي آلت إلى أطلال
خربة دسرها ملك بولندية إبان محاربة الإمبراطور البوهيميين ، ومن ثم كان
لا بد له من وقف حركاته العدائية والتخلف مباشرة ضد البولنديين .

الفصل السادس والعشرون

برسلاف . الإمبراطور ألبرت الثاني . الحياة

في البلاط . ملك بولندية . برسلاف

في القضاء .

...

بلغنا « برسلاف » قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وهي واقعة في إقليم
سوييزيا وتطل على أقصى تخوم ألمانيا ، ووجدنا بها الإمبراطور « ألبرت »^(١٦٦)
وفي صحبته كثير من الأدوات والكائنات وغسبرم من أعيان الرجال ،
وكذلك القساوسة من ألمانيا والجر وبوهيميا ، كما أرسل الأخ الأعظم رئيس
الفرسان البروسيين فارساً من هؤلاء مع طائفة كبيرة من الجند ، وإلى جانب
هذا كله صاحب الإمبراطور عسكرٌ كثيف لأنه كان في الحرب ، وكان في
حاجة إليهم لاشتبها كه إذ ذاك في قتال ضد عدو ضخم العدد بالغ الشجاعة ،
بيد أنني علمت أن القتال لم يحل دون إقامة الاحتفالات أو المبارزات
أو البرجاس أو حفلات المرس التي أعدها الإمبراطور لشعبه ، بما لم تمر قل
استمرار القتال ، بل أعدت لكل أمر عديته ، وكان تتويج الإمبراطور قد تم
منذ أمد قريب جداً وشهدته جموع غفيرة من الناس ، فيهم السفراء الذين
أوفدهم الملوك والأمراء والجمهوريات الإيطالية ، كما حضره أسقف « بيرجوس »
بأسر من ملكنا ومولانا « دون جوان » الذي أبدى الإمبراطور نحوه أعظم
الاحترام ، والواقع أنه كان أهلاً لذلك ، فإلى جانب كونه ممثلاً للملك فإنه كان

رجلا بيلا حصيداً جليل المنزلة ميجل القدر ، كما كان هناك ممثلون لدوق
برجندياودوق ميلان والبنديقية وقلورنسا وجنوه ، وممثلون البابا يوجين وملاك
أراجور ، وجاء الكثيرون منهم بالهدايا لاسيا البنادقة والفلورنسيين ، وكانت
هدايا البندقية - على وجه الخصوص - أعظمها وأجلها .

ولقد تقبل الإمبراطور جميع الهدايا قبولاً حسناً إلا هدايا البندقية فقد
رفضها قائلاً : لا يابق به أن يقبل شيئاً من شعب يعتزم قتاله ، وزاد على
ذلك قوله في حصة الجميع أنه قد أقسم بيميناً لا رجعة فيه ألا يقبل التاج
الإمبراطوري وألا يأخذ دخوله حتى يرد البنادقة إلى الإمبراطورية ما سلوه
منها^(١٦٢) ، وأنه سوف يتوج في القبر المقدس حين يتم له استعادته إياه ، فعمت
الفرحة الشديدة جميع من سمعوا هذا الميم ، غير البنادقة الذين رحلوا ساعة
سماعهم إياه .

• • •

ولقد قدمت للإمبراطور - هذا اليوم - احتراماني وأنا في جماعة من
القسثاليين والألمان وفي صحبة نبيلين سبق أن قابلتهم في بيت المقدس ، وفارس
« ياندورف » الذي رافقته في الرحلة من قبل ، ولفي الإمبراطور أحسن
لقاء وأحاطني بمظاهر التشريف ، واحتفل في هذا اليوم بزواج كونيتر أرملة
من أحد فرسان البلاط ، وتبارز مع مركيز « براند مبرج » . وفي إحدى
جولات هذه البارزة لم يكن معتلياً صهوة فرسه إلا أنه برشاقة امتطاه ، وألقى
بحوذته جانباً ووضع على رأسه قبعة محلاة بشبك غالي الممن ، ثم اقترب من
العروس مقدماً إليها القبعة والشبك ، ثم أخذها من يدها وسار بها إلى القصر
وحوله كوكبة من النبلاء وكبار الرجال ، ومضى الجميع يتناولون العشاء حين

حل النساء ، فجلست السيدات وحدثن على انفراد ، أما العروس فقد اتخذت مجلسها بين السادة الأشراف ، أما مائدة الإمبراطور فلم يجلس إليها سوى ثلاثة هم : الإمبراطور نفسه وفارس بروسيا وأنا ، واستمرت الوليمة حتى بعد منتصف الليل بساعة ، ثم بدأ الرقص الذي استمر حتى العجى . كان الإمبراطور رجلاً ذا نزعة طيبة ، كريم النفس ، غريب الشخصية ، سمح الوجه رغم أنه كان ذا هيئة غير مألوفة ، فقد كان لونه أميل للسمر الشديدة حتى إن الألمان كانوا يمزحون فيقولون إن الدم القشتالي يجري في عروقه .

ولقد أخذنى من يدى وأسرفى بإلقاء نظرة على السيدات حتى انتقى منهن من أوثر الرقص معها ، وحمل أمانى الصباح صرتين أو ثلاثاً ، وهكذا أمضينا تلك الليلة ، ورأيت فيها كثيراً من الأشراف الذين كانوا يجعلون بالشارة التى تليها من مولى الملك والذين رافقوني فى الانصراف بعد استئذانى الإمبراطور . فلما كان اليوم التالى — وقد فرغ القديس — استقدمنى الإمبراطور إلى حضرة جميع السفراء الذين وفدوا عليه وجلس على عرشه المرتفع ، كما طلب أسقف « بيرجوس » وسأله أن ينوب عنه فى الرد على جميع السفراء ، وقد فعل الإمبراطور ذلك تكريماً للأسقف ، فلما انتهى الأمر اقتربت منه وأعطانى رنكه وكذلك وسام طائفة « النين » التى تعادل مكانتها فى الحر مكانة « وسام النسر » فى النمسا ووسام « وتوسينيو » فى بوهيميا .

...

وبما دأب الإمبراطور على إقامة الاحتفالات كل يوم — كما قلت —

فإنه لم يهمل قط أمر الحرب التي كان يستعد لها على النوام ، وكان السبب الرئيسي لهذه الحرب هو الإمبراطورة^(١٦٨) أرملة سيجسموند وحياة الإمبراطور الحالي ألبرت ، وهي — كما يقول الناس — امرأة متعلة الأخلاق غاية الانحلال ، فلما اتخذ زوج ابنتها الإجراءات ضدها غادرت بلاده وهرمت إلى ملك بولندا حاملة معها ثروة ضخمة أعطتها إياه ، كما تنازلت له عن جميع حقوقها في أراضيها الألمانية ثم تزوجته ، إلا أن هذا الزواج كان باطلاً كل البطلان حيث إنها كانت قد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها على حين لم يتخط هو الثانية عشرة ، وقد مكن هذا النزاع البولنديين من النجاح في دخول ألمانيا ، غير أن أسقف « ييرجوس » الذي كان موجوداً بينهم حينئذ استطاع بفضل حصافته أن يعالج الأمور بحكمة هددت من حدة الطرفين وأدت إلى عقد الصلح بينهما ، وكان ذلك أمراً شديداً الصعوبة من جراء التمسائر التي سبق أن تكبدتها الجانبان .

ونتيجة لذلك أنيحت لي الفرصة لرؤية ملك بولندا حيث وجدته في إحدى القرى التي تبعد مسيرة يوم وفي صحبته جماعة كبيرة من الأشراف وهم في أحسن لباس وقد تساحوا على مألوف عادة بلادهم وامتطوا صموات جيادهم ، ويقولون إن الملك سيد إقطاعي كبير لا يملك من الأرض وما ينصب في خراسته من الأموال ، وكان في السن التي ذكرناها آنفاً ذا طلعة بهية راسط الجأش .

كذلك رغبنا في رؤية مدينة « سكرا كار » وهي أهم مدن مملكته إلا أن ذلك كان مستحيلاً ، كما أنني لم أحظ برؤية صيد الدب وهي من أعظم ما يستحق للمشاهدة في تلك البقاع حيث حيواناتها بالغة التوحش والصفى معرطة الأقدام ، وتلك رياضة رائجة لا يمكن ممارستها دون وجود الكثير

من الرجال والكلاب ، كما أن لها شهى للذوق والطعم .

. . .

استأذنت من ملك بولندة ورجعت إلى الإمبراطور في « برسلاو » ،
وبينا كنت ذات يوم أتحدث عن تجاربي سألتني عما صادفت في ألمانيا ،
فأجبتة أن دوق « سقيمن » قد سجنني في « راينلاند » ، فاشتد غضبه
قائلا إن القشتاليين لا يستحقون مثل هذه المعاملة لمعرفته أفعال ملك
إسبانيا وشعبه على الألمان ، مضيفا إلى هذا أنه كان قد اعترم زيارة إسبانيا
قبل زواجه

فلما كان اليوم التالي وأنا على مائدة أسقف « بيرجوس » للمشاء دخل
رسول الإمبراطور المجري الذي كنت قد قابلته مع أمير البعير « دون
فادريك » واسمه « نوزول » ، وجاء هذا الرسول بكأس فضية مذهبة
الحواشي بها ثلاثمائة فلورنتي ، بعث بها الملك إلى وقال إنه يرجو أن أغفر
له أنه لم يستطع أن يمنحني أكثر من هذا نظرا لظروف الزمان والمكان ،
فشكرته شكرا بليغا لما وصلني به وأيت إلا أن أعيد إليه اللال ، فقد كان لدى
ما يكفي احتياجا ، كما أن أخذي إليه سيكون عبئا ثقيلا على كاهلي ،
كذلك قلت له إنني لو لم يكن مني اللال لما اكتفيت بقبول رغبته بل
لبادرت بطلبه منه إدرا كما مني لسخطه العظيم ، فلما سمع الرسول قلتي هذه
خلفني ومضى ، كما أن أسقف بيرجوس فرح بجوابي فرحا شديدا وقص الخبر
فيما بعد على الملك « جوان » في حضرتي .

وقلما مر يوم في هذا البلاط دون مبارزة يشهذ فيها كل جاسب حرا به ،
وبعد خوضه الحديدية ودروعه ، غير أنهم جميعا كانوا معتادين على ذلك الأمر ،

مدربين عليه ، بارعين فيه بدرجة تفنى الخطر عنهم .

. . .

ومدينة برسلاو كبيرة جدا بل إنها أكبر من إشبيلية ، هذا إلى شدة
إردحامها بالسكان ، وتدخل في نطاق أسقف « سيليزيا » أعظم أساقفة
هذه النواحي على الإطلاق ، وكان — إلى جانب دحوه الكبيرة —
يستطيع أن يدفع إلى ميدان القتال عددا ضخما جداً من الرجال .

أما الإقليم فشديد البرودة إن هو قيس بألمانيا السفلى قياس ألمانيا إلى
قشالة ، ولا تكفى للواقف وللداخن في التدفئة ، لكن هناك نوعاً من
أمران الحرارة شائع الاستعمال ، إذ يوقد الناس النار تحت حجرة علوية ذات أرض
ملية بالفتحات ، ثم يضمون للقاعد فوقها ويجلسون عليها ويفتحون الثقوب
فتتصاعد الحرارة بين الأرجل .

ولشدة برودة المدينة فإن الإمبراطور ورجال حاشيته يحترقون الشوارع
في عربات خشبية أشبه بالكالات درس اليلة ، وتجرها جياد ذات حدوات
حديدية كما يفعلون في الربف ، يسير بهم في الشوارع ، ويمضي البعض الآخر
في عربات تجرها ثمانية أو عشرة جياد ، وهي مغطاة في إحكام بالمظلات
ويثبتون الجوامر فيها ، وبذلك يمشون من بيوتهم إلى القصر أو إلى أى مكان
يشاءون ، ولا يركب الموسرون الجياد خوفاً من الزلق لأن شوارع المدينة أشبه
بالزجاج من جراء الجليد الذى لا يتقطع تساقطه ، ويسير الكثيرون رجالاً
على أقدامهم ويحضر كل شخص — حتى الأطفال — إلى الكنيسة عند منتصف
الليل ولا يقوت أحداً منهم حضور القداس ، ويزودون أنفسهم بكميات كبيرة
من الطعام والشراب ، وهي عادة قد تبدو لنا أشد غرابة من كل عادة سواها

وأعتقد أن ما يتفق على القراء والتوابل أكثر من نصف ما يتفق العالم كله
عليهما ، فالقوم شديدو الأراء ، ولديهم القضة بوفرة كبيرة ، ولما كانوا لا يحتفظون
بكثير من الخدم ، وكانوا في الوقت ذاته ذوي دخل هائل وثروة ضخمة فإنهم
يمشون عيشة طيبة جداً .

. . .

والإمبراطور ألبرت رجل محمود الفضائل ، صادق في مسيحيته مخلص
لها ، يستجيب للأوامر الدنيوية ويتمثل هذا في أعماله للنظرية على الرحمة ،
ويرجع إليه الفضل وحده — أيام أن كان لا يزال دوقاً — في عدم دخول
البرهمنين ألمانيا إذ كانت مقاومة الإمبراطور سيجسموند قليلة لأن أصله
البرهمني حمله على عدم الزحف عليهم .

الفصل السابع والعشرون

مهادرة برسلاو . الرحلة إلى دينا . مهاجمة طيفور في الطريق

دينا . لإمبراطورة البراث . يودا . نوبشتانه .

فردريك دوق النمسا . الألب . فريبول .

تريبهسو . بادوا .

...

سألت الإمبراطور أنت بتفضل فيأذن لي بالرحيل لرغبتي في العودة إلى قشتالة بعد أن ساهم مولاي الملك بنفسه في الحرب الإسلامية ، والحس الحاضرون منه أن يسهل بي إلى رعاية اثنين من فرسانه كانوا مسافرين إلى دينا في قوة قوامها مائتا فارس ، ومن ثم رحلنا من برسلاو واستطعنا الوصول بعد المشقة الكبرى والخطر العظيم إلى حدود بوهميا ، ثم دخلنا ولاية مورافيا التابعة للإمبراطور ألبرت منذ أن دخلها عليه صهره الإمبراطور سيجسموند بعد زواجه ، فطالعنا بمورافيا كثيرا من النواحي المهجورة التي دمرها البوهيميون والتي لا تزال آثار النيران ظاهرة بها ، ومن ثم أمضينا إثني عشر يوما حتى أدركنا دينا بعد أن قاسينا الأمرين من الجليد والصقيع ، وسهرنا في طريقنا على مهرين عبرناهما بمراتنا على الثلج ، وكانت الجو قارس البرودة والصرد تفضفضت له أسناني حتى كادت أن تسقط من فمي ، وليس من شك في أن اجتياز مثل هذا القطر في الشتاء أمر مستفزع .

كان أحد رفيقي الفارسين يعيش في مكان تابع للإمبراطور الحالي ، أما الآخر فيقيم هو وزوجته في دينا بدار منحه لهاها الإمبراطور ألبرت خارج

المدينة وتبعد عنها بحرتين ، فلما أصبحنا على مسافة فرسخين من فينا تركى
الفارسان وشخص كل منهما إلى مقامه ، وقد سألنى هذا الفارس الذى ببش
فى فينا أن أمضى معه فى داره خمسة أيام أو ستة ، قائلا إنه سيأتى لأخذى من
المدينة ، ثم افترقنا بعد أن دلنى على الطريق إلى فينا وأخبرنى أين أقيم .

لم أكد أبعد نصف مرحلة عن الناحية التى كنت بها حتى تصدى لى حاجتى
جماعة من النبلاء المشاة قاصدين سلبى مامى ، ولكنهم لم يسبحوا فى خطهم
بفضل ما لى أنا وصحابى من جواد سريعة ، فتهيأت لنا النجاة منهم ، وبلغنا
فيما ونزلنا الخان الذى ذكر لنا ، لكن لم أكد أجلس إلى المائدة حتى ظهرت
نفس هذه الجماعة من النبلاء الذين عاجونى ففرت أحدهم فى الحال ، وسألهم
كيف يرتضون لأنفسهم أن يسكلوا هذا الملك ، فأبأونى أنهم نبلاء قراء
وأنهم يحتالون على الحياة بالاصوصية ليقسوا أودهم ، فأخبرتهم أنى أنا نفسى رجل
نبيل فقير ، وزبادة على ذلك فابنى غريب فى أرضهم ، وأن احتياجانى ربما
فاقت احتياجانهم ، فراحوا يلتمسون منى الفروعهم ، وعرضوا على أن
يرحلوا فى طلب شىء من المال يستطيعون به استضافتى لكننى شكرتهم
وأجلستهم معى ووصلتهم بيمض النقود التى كان فرحهم بها عظيما جدا ،
ودأبوا على ملازمة صحبتى معظم الأيام التى قضيتها فى المدينة .

وتقع فينا^(١٧٧) على نهر الدانوب وهى كبيرة جدا يبلغ حجمها حجم
قرطبة ، وبيوتها فى غاية الحسن من الداخل والخارج ، وشوارعها لطيفة
وكذلك كنائسها وخاناتها ، أما كنيسة الكبرى فأبرز ما فيها البرج المنقول
تماما عن برج كيسة « سترابرج » ، والأراغين كبيرة جدا فإذا قفخ فيها

خيل لمن بالسكنيسة أنها على وشك الانهيار ، وتحفل هذه المدينة بالصناع في شتى الحرف، وبها جامعة لدراسة العلوم .

وللإمبراطور قصر رائع جدا كانت به الإمبراطورة^(١٦٧) فزرتها تلبية لأمر زوجها ، وهي ابنة الإمبراطور سيجسمند ، لا يقع الطرف على أجل معها طرفة ، كما أنها طويلة القامة ، وقد رزقت ابناً صغيراً هو الآن ملك الجرج ، وابنتين يتراوح عمرهما بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ، فلما لقيت الإمبراطورة أصبحت إليها بخبر زوجها، وأنبأتها بانقضاء السلام بينه وبين مالك بولندة ، وأن الإمبراطور يتأهب للمودة فخلق قوادها فرحا لسماع هذا النبأ ، ثم بعثت في استقدام جماعة من أفاضل حاشيتها وأمرتهم بحسن معاملتي وإطلاعي على مشاهد المدينة وملازمهم محبتي ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم استأذنتها بعدئذ في الرحيل فأعطيني وسام التين الذي كانت تلبسه — رغم أن الإمبراطور قد خلع عليّ مثل هذا الوسام — قائلة إنه وسام أبيها ، وأنها لا تستطيع خلع سواه عليّ .

بقيت مع هؤلاء السادة وفي المدينة أربعة أيام مؤتلفاً بصحبتهم حتى بعث إليّ الفارس الذي كان رفيقي في الرحلة بسيدتين لمصاحبتني فرافقتهما ، وغادرت هذا المكان إلى حيث كان هذا الفارس في انتظارى ، فلتقاني بداره المساء « لسكيتدورف » ، غير أنني قبل مغادرتي فينا ذهب لرؤية « جورج فونبروك » الذي تأخى مسرع « دون فرنا ندودي جيفارا » في السلاح ، وصحبني هذا الفارس مسافة القوسين إلى البيت حيث دعاه عصيفي للغداء معنا قبل رحيله ، وكان سمرنا في هذا اليوم عظيماً ، ثم عاد الفارس إلى فينا وبقيت مع مصيفي أربعة أيام استعدت فيها شاطلي تماماً بمدهاء

وقد أكرم القوم وفادتي كأننى أحدم ، وتلقنى ربة الدار لقاء
الأم لولدها .

رأيت كافة نواحي المزرعة التى تعد من أكبر وأروع المزارع التى شاهدتها ،
وهى شديدة الحصانة بفضل خندقها وسورها رغم وقوعها فى سهل ، كما يقوم
على أحد جانبيها بستان كبير يمتد مسافة فرسخ طولاً تمرح فيه الخنازير البرية
والقطباء وغيرها من حيوان الصيد ، ويشق للزرعة نهر تنمو على جانبيه
الأعراش الكثيفة ، ويحتفظ الإمبراطور فى هذا المكان بصناع الأسلحة
والسيوف والأقواس والسهام والدروع وغيرها من الأشياء الرائعة التى
تستحق المشاهدة .

. . .

ثم وصافى الفارس وزوجته ببعض الهدايا ، فأعطتنى هى ثوبا من التيل ،
ونفضل هو على سيف ومهراز وسرج مذهب ، ثم استأذنتهما فى الرحيل ،
وسألت هذا الفارس أن يبعث بأحد رجاله معى إلى « بودا » إحدى مدن الحجر
وتبعد عن هنا مسافة ثلاثة أيام .

رحلت بصحبة هذا السيد واتخذنا طريقنا على طول نهر الدانوب حتى دخلنا
بلاد الحجر وهى بلاد بالغة الاتساع ، كثيفة السكان ، تزخر بالحصون الكبيرة
والواقعة على الحدود الألمانية .

وصلنا إلى مدينة « بودا » التى تبلغ فى حجمها حجم مدينة « وادى الوليد »
ويشققها نهر الدنوب ، كما أنها تعد أكبر مدن بلاد الحجر ، ويكثر فيها الصنائع
ولسكنها لا تبلغ شأو المدن الألمانية فى النظافة ، وأهلها أميل إلى الامتلاء ،

مما يرجمه البعض إلى ما يتقلبون فيه من الترف ، وقد قام الإمبراطور
سحسمند بإدخال تحسينات جمة بالمدينة ، وشيّد قصرًا رائعًا بها أقام فيه
قاعة استقبال ضخمة تشبه تلك التي في « بادوا » ولكنها لم تندُ لعيني في
روعتها .

رحلت من هناك حتى بلغت حدود البحر ودخلت ألمانيا وحثت إلى مدينة
اسمها « دويشتات » أي « البلدة الجديدة » ، فألفت بها الإمبراطور
الحلى فردريك الذي كان إذ ذاك دوق النمسا^(١٧٢) ، وهو ابن عم الإمبراطور
ألبرت ولكنه لا يبلغ من النبل مبلغه ، وكان مشغولاً حينذاك بالاحتفالات
التي أقيمت لزواج ابنته من والي « ميّين » المشار إليه سابقاً الذي كان قد
أزّل الهزيمة بابوهيميين ، فبقيت مع الدوق الذي أصبح الآن إمبراطوراً ،
ولازمته أسبوعاً كاملاً ، وهنا التفت مرة أخرى برفيق رحلي الثاني الذي
أهدى لي كثيراً من الرعاية والرقّة، كما فعل مثل فعله الدوق الذي كنت أتناول
معه طعام الغذاء كل يوم .

جاء مشاهدة عقد القران جمهور كثيف جداً من الناس من ألمانيا، ولم
يكونوا من أهل بيته فحسب لضخامة مسكاته ، بل كان فيهم جماعة
من بني جلدته وأصدقائه ، وكانت العروس سيدة رفيعة فكان الحمل
كرماً ، أما عرسها فكان متعنياً في وطنه بسبب الحرب ، فأخذوا
العروس إليه .

أما الدوق — وهو الإمبراطور الحالي — فقد بلغ من الثراء حداً
ليس بعده زيادة لمزيد وإن قيل إنه يعرف جيداً كيف يحتفظ بما لديه ،
وكان قد عاد من بيت المقدس قبل رحيلي بعدة أيام ، وسره كثيراً أن

يتحدث إلى أمير البلاد الواقعة فيما وراء البحر ، ونشطت نفس مصحبهه ،
ثم استأذنته في الرحيل فأذن لي ، وبعث بالتابع الذي كان قد رافقني إلى
البحر إلى مولاه الذي كان على مسيرة رحلة يوم من هذا المكان .

. . .

تركزت « نوبشتات » مخترقا بلاد هذا البوق الواسع الأملاك ، ماراً بمدنه
وبلدائه وقلاعته حتى بلغت جبال الألب التي لقيت المشقة الكبرى والخطر
الجسيم في اجتيازها بسبب الصقيع الشديد ، على أن الأسر الذي
يستوجب الانتفاة أن هذا البرد لم يحمل دون ازدحام جميع
المرات بالسكان وتوافر المونة بكثرة ، وكان البنادقة قد اغتصبوا كل هذا
الإقليم من الإمبراطورية^(١٧٣) ، فبنوا في المرات والمعابر الضيقة أسواراً
وأبواباً بفاقونها عليها ، كل ذلك ليقوتوا من بأس طغيانهم ، ثم انحدرت
نحو إيطاليا وجئت قطراً بسمونه « فريبولي » ببيع بطرك « أكويدبا » ،
وكانت له أملاك كثيرة فسيحة في هذه الناحية ، إلا أن البنادقة استولوا
عليها كلها ، ولقد رأيت البطرك في بلاط الإمبراطور شاكياً إليه هذا الأمر ،
ولاشك فيما يقال من أنه لو لم يمت الإمبراطور لما جله البنادقة بالسلم بعد أن
أن تراهي إلى سمهم نبأ اليمين التي قطعها على نفسه بأن يسلمهم كل ما في
حوزتهم من أشياء تملكوها قسراً واغتصاباً .

ثم ذهبت إلى « تريفيسو » ، وكانت هي الأخرى من المدن التي
احتلها البنادقة ، وهي مدينة كبيرة غنية واقعة على مقربة من البحر ، وتبعد
عن البندقية رحلة يوم تقريباً .

. . .

رغبت في أن أتوجه حالاً إلى البندقية ، ولكنني سمعت أن البابا قد

اعتزم معاداة « فرارا » إلى « قورنا » ومن ثم حثت الخطا لأصل قبله ، مجئت إلى مدينة « بادوا » التي تكاد تبلغ حجم إشبيلية تقريبا ، وتمتاز بشدة ثرائها ومركزها التجاري العظيم ، وتقع على مقربة من البحر ولا تبعد عن البندقية بأكثر من نصف يوم ؛ وكان البنادقة قد أخذوها هي الأخرى من صاحب « كرارا » التي كانت من أملاكه الدينية ، وقد ذهب هو أيضا إلى الإمبراطورية شاكيا إليه صنيع البنادقة . ولقد علمت أن البابا ان يرحل إلا بعد خمسة أيام أو ستة ، فبقيت في « بادوا » ثلاثة أيام ، والوقع أنها تزخر بكثير مما يستحق المشاهدة ، ففيها جامعة عظيمة جدا تعدّ من أحسن جامعات العالم المسيحي ، وبها دير ضخم غني بضم جثمانى القديسين « أنطونيوس دى بادوا » و « لوقا الإنجيلي » وهو مكان شهير مقصود للحج والمبادة .

وفي وسط المدينة قاعة كبيرة^(١٧٦) تبلغ ضعف حجم أى قاعة مما رأيت ، وسطحها منطى بالرخام ، أما داخلها فيمعدن البلاتين ، وسقفها أزرق اللون بديع الرسوم على بنجوم ذهبية ، وفي وسطها قضبان من الحديد على شكل أعمدة ازدانت بصور تفاح ذهبي اللون كبير الحجم ، وقد صوّرة عليها قصة العالم منذ بدء الخليقة إلى ظهور المسيح .

ويقولون إن الرسم وحده تكلف أكثر من أربعة ألف دوكلات ، وتدور حول القاعة مقاعد خشبية حيث تقام المدالة ويقضى بين الناس ، أما في الخارج فتوجد مجموعة من الأعمدة الباسقة .

وللقاعة أربعة أبواب ، على كل منها تماثيل رخامية ، إثنان منها لتخليد ذكرى رجال العلم من أجل هذه المدينة لاسيما « تينس ليفيس » المؤرخ « وبطرس أبانو »^(١٧٧) أحد كبار السحرة الذي أحرقة الإخوان الصغار لقيامه بأمر عجيبة

رائعة ، مثل سَحْبِهِ سَفْنِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ مباشرة إلى ميناء البندقية وغير ذلك من الأعمال التي تدخل في قدرة السحرة .

وقد أقام القوم تحت هذه القاعة حوائط لصناع الملابس والأحذية ، ويستطيع المرء من هناك أن يتبين نخامة القاعة حيث يوجد جميع تجار المدينة رغم شدة انساع المدينة التي تحتوى على بعض للبانى الشديدة القدم ، وقيل إن بابيها « أنتينمور » بعد خراب طرودة ، والواقع أن مبانيها ذات طابع قديم . وحدث في يوم وصولى أن كان حكم للقضاء ينفذ في أحد أهالى بادوا لاغتياله فارساً من أهل قطالونيا واسمه « موزن فيلافرانسكا » كان قد نزل ضيفاً على هذا المواطن .

الفصل الثامن والعشرون

فرارا . البابا يرحل إلى فلورنسا . البندقية .

فبرونا . فلورنسا . البابا والإمبراطور .

جرا . بولونيا . البندقية .

...

تركت بادوا وسافرت عبر القنوات ، ولما كان هذا الإقليم قريباً كل القرب من البندقية فإن الناس يحمون المياه في بحيرات بعضها عذب مأوّه وبعضها ملح أجاج ، اسكها ذات رائحة كريهة جداً ويسمونّها بالسفوفات ، وإذا أراد الإيطاليون الإشارة في كلامهم إلى شيء عفن أو قن شبهوه بهذه السفوفات . ولما اقتربنا من « فرارا » أخبروني برغبة البابا في مفادرتها ، وكان حقا ما قالوا ، فقد وجدت البابا على وشك الرحيل إلى فلورنسا حين وصولي ، ولم أكد أبلغها حتى مضيت إلى إمبراطور اليونان الذي لم يكن سروره البائع لرؤيتي مرة أخرى ، ورأيت تقدم البابا الذي تم على الصورة التالية (١٢٧) ، فقد نهض لاستقباله موكب خرج فيه جميع الأساقفة ورؤساؤهم والسكينة والقسس حاملين الصليان سيراً على الأقدام ، وجاء من مدم السكرادة على ظهور الجياد ، وعكا كبيرهم في أيديهم على النظام السابق ، ومن ورأيهم إتما عشر حصانا عليها حلّ قرمزية ، قد وضعت للظلة على أحدها ، والكرسي على الثاني ، والوسادة على الثالث وهكذا حتى النهاية .

وأما الحصان الأخير فكان منطلي بنسيج حريري مشعر ، كما وضعوا

العشاء المقدس المبارك في وعاء محمول على سرج فضي ، وعلقوا إلى هذا الحصان ناقوساً ذهبياً يقوده اثنان من الشماسة من اللجام .

ثم جاء البابا نفسه معتلياً حوادقاً في زينات قرمزية ، وقد ارتدى مسح القدس ، ولبس تاج الأسقفية ، وراح يبارك الواقفين على الجانبين ، بينما مضى الرجال ينثرون قطع العملة في الشارع ليمال ملتقطوها المفران ، وقد عمدوا إلى هذه الوسيلة لينعموا جموع الناس من التزاحم على البابا الذي كان مركزه « فراراه وكوات » أرينو » بأخذان بلعام حصاته .

وجرت الشائعات أن دوق ميلان يتربص للقبض على البابا ، ومن ثم قام المركز بحراسته ذلك اليوم حتى أوصله إلى صومعة على بعد ميل من هناك ، وكان في صحبته حشد كثيف من الرجال المسلحين ليوقع في وهم الرأى ما يخال معه كثرة القوات الحربية المرافقة للبابا في سفرته إلى إحدى مدنه حيث كان قد أعدت احتفالات كبيرة ، ولكن الواقع أنه ركب معه في اتجاه مخالف حتى أوصله إلى فورنسا سالماً بعد يومين ، ويقال إن البابا قدّر للمركز هذا الصنيع وعبره من الأيادي التي قدمها له ، تخفض الضريبة المفروضة على المركز إلى ١٠٠ ألف دوكات ، وأقر جميع امتيازات ميلان مما يتجلى من الرسوم الذي نقشه المركز على لوحة حجرية وضعت في كنيسة فرارا الجامعة .

تلبّثت يومين في فرارا، ثم رغبت في السفر فلم أجده مناصاً من الرحيل إلى فلورنسا لأن كل المصارف كانت مغلقة ، وكان جميع الصيارفة قد رحلوا ، ورعب الإمبراطور في أخذى معه لكنقر رحلت تاركاً جيادى في فرارا للعليف ، ومضيت إلى البندقية للوقوف على خير بضاعتى ولأخذ حظى من الاستحمام ، بينما كانت جيادى تستعيد نشاطها وتجدد قواها في فرارا .



أما الإمبراطور فقد رحل في اليوم الثاني وبقيت أنا في البندقية، فزلت
 نزلاً طيباً أحسست فيه كأنني في داري، ورأيت أننى مدين بالفصل الكبير
 إلى صديقي الشاعر الذي عهدتُ إليه بمهماتى، إذ الواقع أنه لم يسكن في
 الإمكان أن أعهد بها إلى أحد خيراً منه، وكان يستعد للرحيل إلى إشبيلية،
 فسألته إن كان يقبل أن يشحن معه بصاعتي إليها، ولم أستبق منى غير النقود،
 فأجاب سؤالي وأدى لى هذه اليد الكريمة عن طيب خاطر كما فعل من قبل
 منى، فبقيت معه بالبندقية حتى رحل.

وفي هذا الوقت الذي كان البابا يعقد فيه بلاطه في « برشيا » تواترت
 الأنباء بأن دوق ميلان قد ملأ تلك المدينة بقوارب جاء بها من البحيرة
 مما استعمل معها إدخال للزونة، وأن البنادقة جهزوا غراباً واسعاً طاعوا بدهائهم
 نقله على اليابسة عبر جبل في الجبال بطاول ارتفاع جهال قشالة، ثم جرّوه
 وأنزلوه في البحيرة^(١٧٧)، وأحسب أن مائة ألف من الناس قدموا لرؤية هذا
 العمل الباهر، وما كان لهم إلا أن بفعلوا ذلك لأننى لم أشاهد قط ما يجاريه روعة
 أو يبلغ ما بلغه من صدوبة لا يكاد يصدقها الإنسان، فما كاد الغراب ينزل الماء
 حتى حطم جميع القوارب الأخرى، فلم توات الشجاعة غيره من القوارب على
 الهوى، وبذلك نجت المدينة ورفع عنها الحصار رغم أن أهل ميلان راحوا
 يتشدقون ويزعمون استيلاءهم عليها، فذهبت لرؤية رجال دوق ميلان الذين
 صكّاروا هناك وفي صحبتي « نيكولا بتشيرينو »^(١٧٨) قبطانهم فكانوا
 جيشاً جميلاً جداً.

سافرت حتى جئت إلى مدينة « فستزا » الجميلة التابعة للبندقية، ثم
 وصلت بدند إلى « فيرونا » وكانت هي الأخرى من أملاك البنادقة، وهى مدينة

كبيرة غنية رغم قلة عدد سكانها كما أنها قديمة جداً، والوارد عنها في الأخبار أن الفضل في تشييدها يرجع إلى جهود للتغنين الرومان الذين أطلقوا عليها اسم « فيروما » ومعناها « ها هي ذا روما أخرى »، والواقع أنه يمكن رؤية كثير من الآثار الرومانية بها مما يقوم دليلاً على التشابه بينهما .

ثم عدت إلى البندقية وبقيت هناك يومين ورحلت بعدها إلى فلورنسا حيث وجدت البابا والإمبراطور ، فجمعت أموالى ومكنت بها ثمانية أيام أشاهد المدينة التى من أعجب مدائن العالم المسيحية اتساعاً وبراءً وحكومة ، ويحكمها أشخاص ينتخبون بالقرعة كل شهر ، وقد تقع القرعة على إسكافى أو شريف ، وعلى أية حال فليست هناك حكومة أشأوها .

وفلورنسا غاصة بالبيوت الجميلة والشوارع والفنادق الفخمة ، وقد ضربت بسهم وافر في النظافة والنظام ، إلى جانب ما تحفل به من الكنائس الرائعة والأديرة ، ولا يوجد ضرب من العالم استشفياها ، فهناك واحدة للرجال وأخرى للنساء ، وهى نظيفة جداً وحسنة الترتيب والتجهيز ، وإذا مرض ملك أو أمير بادر في الحال إلى قصره والاتجاه إليها طلباً للشفاء ، وزيادة على ذلك فهناك غفرانات لمن يعيش فيها ، وغفران تام لمن يموت بها ، فمن ذا الذى يستطيع أن يُقدّر العمل الطيب الذى تقوم به هذه البيمارستانات ؟ ذلك أن كل مريض يقم حسب مكانته واسكن العلاج واحد للجميع ، والواقع أن فلورنسا قد أجهت رجالاً عظاماً بارعين في العلوم ، ولا زالت على ذلك حتى اليوم .

وكنيسة هذه المدينة الجامعة من الكنائس التى نالت غاية الشهرة ، كما تحفل بالمباني الرائعة لا سيما البرج القسائم عند باب الكنيسة المزينة تقريباً حتى قمته بالتمائيل الرخامية ، وأمامها ميدان فسيح تتوسطه كنيسة بلغت من الضخامة حداً كبيراً ، قد زين داخلها بالقسيصاء وغطى خارجها بالرصاص ، وتدعى بيعة

القدس « يوحنا المعمدان » ، وبها حوض معمودة كبير وهيكل بقيمونه به
القدس ، وقد رقت خفاقة رايات جميع المدن التابعة لفلورنسا والحاصلة لحكمها ،
وقد رجعت و... - بفضل حكومتها الرشيدة - في الاستحواذ على الكثير
من الأراضي ، حتى إن مدينة بيزا نفسها - التي كانت فلورنسا تابعة لها حيناً من
الزمن - قد صارت في ولايتها ، وأصبح حكمها الآن يقولون شئونها باسمهم

* * *

ومدينة بيزا - كما يقولون - كانت تملك في وقت من الأوقات جرائر
عقلية ومردنيا وكورسيكا وولايات أخرى شاسعة في البر ، لكن حدث
ذات مرة أن اجتازت سافينة كان عليها أحد الكرادلة وبعض القسوس وجماعة
من سفراء البابا في طريقهم إلى ملك فرنسا ، ولم تؤد السفينة التجهيز المألوفة^(١٧٩) ،
وإذ ذاك هرع البيازنة إلى سلاحهم فامشقوه ، وأسروا السفينة وأحرقوها ؛
فلما سمع البابا بهذا النبأ اشتد به الغضب وأمر بإعلان الحرب على البيازنة
واعتبرها حرباً صليبية وجهاً دينياً وأنزل بهم ضرراً بليغاً ، ولم ينقذ غضبه
إلا بتدخل بعض الملوك والأباطرة ، وكف منح الفقران لثولاء الجرمين بسبب
نهبهم إلى المدينة المقدسة واحتلالها ، وإذ ذاك أعد البيازنة أسطولاً ضخماً
خرجوا به واستولوا على بيت القدس وتوابعها وأقاموا بها ردهاً من الزمن ،
لكن تبين لهم في النهاية أن المحافظة عليها تكلفهم ثانياً فباعوها : الأمر الذي
يُظن أن جميع مصائبهم جاءت منه ، ويشك فيا إذا كان بالمدينة الآن يري واحد
ولد ولادة طبيعية ، وكان عليهم أيضاً أن يهدموا مبانيهم وأن يلبسوا
قلاصهم مقلوبة آية على دسهم ، ومن ثم فإن الناس قاطبة يستنكفون منهم ،
وهكذا ذكروا أن كانوا بالأمس خدمهم .

ويقال إن البنادقة والجنوية كانوا يبيت المقدس حين احتلال البيازنة

إنه ، فلما سقطت المدينة في أيديهم هدموا إلى تقسيم الكنز الذي وجدوه
أقساماً ثلاثة ، فجاءوا إلى أحد هذه الأقسام واتخذوا مكاناً للكأس المقدس
المصنوع من قطعة واحدة من الزمرد ، ووضعوا في الثاني العمودين اللذين كان
المرء يستطيع أن يذهباً بالخطر من كل منهما بالشروع التي ستعيق بهوما يرعه ،
أما القسم الثالث فقد جعلوه موطناً للكنز .

ثم أخرجوا سهامهم بشاوروها فكان الكأس المقدس من نصيب جنوة
حيث لا يزال إلى الآن كما رأيته بنهسي^(١٨٠) ، ونال البيازنة مدينة بيت المقدس
والعمودين اللذين نقلوها إلى بيزا ، أما البندقية فأخذت الكنز الذي هو أساس
جميع ثروتها ، غير أن العمودين اللذين نقلتا إلى بيزا فقدتا ميزتهما حين
بيعت بيت المقدس .

وبيزا كنيسة شهيرة جداً ودير قد نقلت تربته من أرض بيت المقدس
الكريمة ، واشترت هذه التربة بثلاثين قطعة من الفضة وتسمى هنا في بيزا
بالتربة المقدسة Campo Santo ، ويقال إن الجثث التي تدفن هنا لا تبقى أكثر
من ثلاثين يوماً لأن الأرض تقبضها .

وليس من شك في أن بيزا كانت مكاناً عظيماً ، فيناؤها نهر يصل إلى
المدينة فتدخلها الأغربة وتصدر عنها ، أما « لجهورن » القريبة منها فهي الميناء
الرئيسي للشواني والسفن .

. . .

رحلت عن فلورنسا وجئت إلى بلدة يسمونها « فيرتولا » وهي تقع في
جبال « بستويا » حيث انتصر هانديبال في وقعة « كاناي » ، ويوجد على مقربة
من « فيرتولا » نهر يلتف حول حقل محترق كله^(١٨١) ، إذا رموا بالخشب فيه

احترق في الحال ولكن لا يظهر أثر لنار أو شيء يحترق.

وهذه عجيبة كبرى .

وقد تسلفت هذه الجبال الشديدة الوعورة رغم ازدحامها بالسكان، ووصلت إلى مدينة يولوميا العظيمة الشهيرة، ثم رحلت عنها إلى « فرارا » وأخذت جيادى التى كنت قد تركتها للرعى والكلاء، فوجدتها قد أصبحت شديدة السمنة فبعثتها وعلت إلى البندقية حيث مكنت شبراً فى انتظار إحدى السفن لىلقى، حتى وجدت أخيراً واحدة مبهمة شطر صقلية فجمعت كل متاعى وركبتها.

الفصل التاسع والعشرون

السودة للوطن . رافنا . برنديزي . مصيق مسينا . الموريات .

جزائر ليباري . بالرمو . مرفطة . جبل إيتا .

نونس . سردينيا

...

غادرنا البندقية وأبحرنا مصافين للساحل الإيطالي حتى بلغنا مدينة اسمها « رافنا » وهي مدينة قديمة جداً ، جئنا منها إلى « ريميني » التابعة لكونت « أرينودا مالا تيسا » ، ثم مضينا إلى مدينتي « بزارو » و « فانو » الجبلتين ، وأدركنا في النهاية « أنكونا » وهي من أملاك الكنيسة ، ثم أبحرنا إلى ميناء « برنديزي » الرائع ولعله أجمل من أي ميناء آخر وقمت عليه عيشي ، وهو في منطقة أبوليا التي يسمونها *Tierra di Lavoro* .

فلما كان اليوم الثاني رحلنا عنها ، واتخذنا عند رأس « سبارتيفنتو » ، ثم أبحرنا يمينا لأن الريح كانت موانية لنا فبلغنا هذا للساء جزيرة صقلية ، فبقينا بالبحر حتى طلع اليوم التالي ، ثم خرجنا - في جو طيب - خلال مضيق مسينا - تاركين « قلهورية » الواقعة في مملكة نابلي على يميننا وصقلية على شمالنا ، حتى أرسبنا عند مدينة « مسينا » بعد جهد شاق بسبب التيارات العصفية الموجودة هناك .

ويزعم الشراء أن هذا المضيق كان موطن عرائس البحر ، ويقولون إن نابلي وجزيرة مسينا كانتا في وقت من الأوقات متصلتين ببعضهما ببعض

وكانتا ثولفان قطرا واحدا ، غير أن زلزلاً فصل هاتين الجزيرتين بعضهما عن بعض ، والبحر هنا أعمق منه ، في أى مكان آخر .

ويقولون أيضاً إن في هذه النواحي نوعاً من السمك على شكل امرأة من الوسط إلى أعلاه ، أما أسفل ذلك فيشبه السمكة ، وتعيش هذه المخلوقات في الأعماق حيث يمكن ملاحظة أول تحركات الرياح ، فإذا أحست بالحركة وكانت قوية جداً أدركت أن عاصفة حاصلة على وشك الوقوع ، وإذا ذلك تظهر على سطح الماء وهي تنفخ أغصية ، ويزعمون أن الموت المحقق من نصيب من يسمها ولا نجاة له منه ، فهي أغصية حزينة نادية ، لأن هذه العرائس لا تنفخ إلا حين تشد العاصفة وتزجر عاصفة فلا تنفخ إلا حين تنفخ .

ولما عند ميناء مينا شديدة العمق مما يمكن السفن الكبيرة أن تدير فيه ، وبعده لسان من الأرض أشبه بالرصيف الصناعي ، ويوجد عند أحد أطرافها دير للرهبان^(١٨٢) اليونان ، وعند الطرف الآخر ترسانة السفن .

والمدينة غاصة بالباني السكبيرة وهي قديمة جداً ، وقد أكثر من الكتابة عنها الشعراء والخطباء والمؤرخون القدامى لاسيما في الحرب البونية الأولى ، وهي مسورة أحسن تسوير ، وتكثر الحدائق الجميلة بداخلها وخارجها ، وهي حسنة الري ، وعلى الرغم من أن مساكنها الآن متناثرة بعض الشيء إلا أن في قدرة الناظر إليها أن يدرك أنها كانت عظيمة في وقت من الأوقات .

زفوق المدينة - تجاه قلمهورية - يوجد مكان اسمه « ريجو » ؛ والمضائق شديدة الانساع حتى يستطيع المرء في اليوم الصحو أن يرى الشخص راكبا جوادا على الساحل بالجانب الآخر .

تركت مينا وجئت إلى « ياني » وهي بلدة صغيرة في نفس الجزيرة ،

وأمامها جزيرة البركان التي يقولون إنها أحد أفواه الجحيم الثلاثة لأنها تقذف
بلا انقطاع النيران للصخور بدمدمة الرعد وكميات ضخمة من Scoria الحشة
التي تبلغ في خفتها حدا تطفو منه على سطح الماء .

وعلى مقربة منها توجد فوهة أخرى يسمونها « سترمبولي » ترمى بالحلم
كسابقها ، وتتصل بها جزيرة صغيرة يسمونها « ليباري » يمانى أهلها شدة
الآلام في عيونهم من جراء الدخان المتصاعد من سترمبولي ، وهي مركز الأسقفية
الرئيسي ، ورأيت بها - وأنا أحاول الرسو - أكبر سمكة تسقى في رؤيتها ،
تقدحات من الضخامة يبلغ برج كبير .

ركبنا هذا اليوم لأن سفينتنا لم تستطع التقدم من جراء الهدوء الشديد ،
وكان هناك غراب إسلامي ضخم يصعبه إثنان أصغر منه ، وقد خرجت كلها
للقرصنة وراحت تدنو منا وإن لم نجرؤ على مهاجمتنا ، ومن ثم بقينا هذا اليوم
حيث نحن حتى صلاة الغروب حين هبت ريح رخاء وملأت أشراعنا ، فطلتنا
مبحرين طول تلك الليلة ، فلما كان فجر اليوم التالي أصبحنا على مقربة من جبل
« بلجربنو » الذي يعلو ميناء « بالرمو » ، فأرسلنا به ونزلنا إلى الشاطئ لينجز
القائد عملاً له هناك ، وبقينا به مدة ستة أيام .

وتبلغ مدينة بالرمو في الضخامة مبلغ إشبيلية ، ثم أخذت في الاتساع الشديد
منذ أن شن ملك أراجون الحرب على نابلي حتى لقد زاد عدد سكانها الآن
كثيراً عما كان عليه من قبل ، وهي المركز الرئيسي للمواصلات ، كما أنها
مركز أسقفية ، وتبعد الكاتدرائية عن المله مسافة ميلين ، ويكون فيها تنويع
ملوك هذه النواحي ودفعهم بها ، وهي كنيسة فخمة مزينة أبهى زينة ومحلاة
بأجل ميماء رأيت في الأقطار اللاتينية ، ونسبى كنيسة « مونريالي » (١٨٢) .

وقد أصابت مدينته بالرمو حفظاً وافرأ هيأته لما تجارتها ، كما أنها حافلة بكل شيء ، وتقع في قطر كبير وتعتبر من أكبر مدنه ، وتشتهر بما يوجد فيها من قصب السكر .

« ومونت بليجرتنو » جبل شديد الارتفاع كثير المياه واسع للرعى ، ويقول الناس إنهم لا يكادون يأخذون إلى ذلك الجبل أى حيوان على وشك الموت حتى يشفى في ثمانية أيام ، وتبعث هذه المدينة إلى ملك أرغونة في نابلي بإمدادات وفيرة من الأقوات والجياد ، ويقوم أهلها ببناء السفن المسماة باسم « طيفورية » التى تحمل الواحدة منها ستين حصاناً أو أكثر .

غادرت « بالرمو » وذهبت إلى « ترابانى » الواقعة عند نهاية الجزيرة ، وهى ميناء جيدة جداً وبها برج يسمونه برج « كولبريا » يصيدون على مقربة منه للرجان^(١٨١) ، وهو مكان رائع حسن البناء ، ويطلوه جبل عال يسمى بجبل « مونت ترابانى » حيث يسكن جبان « أبى أنياس » .

رحلنا عن هذا المكان وأبحرنا حول الجزيرة متجهين ناحية الشرق حتى بلغنا « جرجنتى » ، ثم مضينا إلى مدينة سرقوسة المطيعة التابعة للملكة أرجونة أخت مولانا الملك جوان ، ثم جئنا بمدننا إلى « قطالونيا » الواقعة على منحدرات جبل « إتنا » ثالث أبواب الجحيم ، فاستبضنا وأوسقنا السفينة بالبضاعة ، ثم أبحرنا بعد ثلاثة أيام ميممين شطر سردينيا ، لكن طاجاتنا في وسط البحر ربح شرقية فادمة من اليونان دفعتنا تجاه تونس ، فظلنا مبحرين يوماً وليلاً حتى بلغنا في الساعة الثالثة من اليوم التالى رأس « بلاسكو » وهى ميناء تونس ، فألحقت فى الرغبة فى النزول إلى الشاطئ لمشاهدة البلدة فلم يأذن لى القائد بذلك لأنه كان قد اعتزم الرحيل لتوّه .

وميناء تونس شديد الضحالة فلا تستطيع السفن دخولها ، من ثم فإنها
تفرغ حولتها في قوارب خفيفة ، وقد بقينا هناك يوماً واحداً ثم أبحرنا مدة
يومين وليتين حتى جئنا إلى جزيرة سردينية التابعة لملك أرجونته، ودخلنا ميناء
« كالياري » وهو مكان لطيف ؛ فأمر غنا به ما معنا من البضائع وألقنا به
يومين .

وهذه الجزيرة غير صحية هي ذات هواء سيء وماء رديء . . .

(هنا ينتهي ما هو موجود من خبر للرحلة) .

حوادث
رحلة طافور

(١) كان دوق هنرى كونت ليرة أحد فرسان عصره البارزين ، وظهر أن هجرته على جبل طارق قد وقع في ختام سنة ١٤٣٥ حيث نستدل من كلام طافور فيما بعد (انظر الفصل الثاني ص ١١ حاشية رقم ٩) على مواعيد وصوله إلى جنوة ، وهناك كثير من المؤرخين يجمعون وفاة الدوق هنرى في سنة ١٤٣٦ ، ويلاحظ أن خبر الثورة في جنوة بلغ مصامع الملك جوان في مسنهل يناير ١٤٣٦ (انظر Cronica de Don Juan II. Ch. III.)

(٢) الملك الذى نسمع عنه كثيراً في قصة طافور هذه هو جوان الثانى ملك قشتالة (١٤٠٦ — ١٤٥٤ م) ، وقد تزوجت ابنته إريانا الكاثوليكية من فرديناند صاحب أراجون .

(٣) المقصود بذلك ليرة عيد ميلاد ١٤٣٥ م .

(٤) لا نستطيع الجزم بمن كان الزوج في ذلك الوقت أهو توماس فريجوزد ، أم أرنار دو جاركى .

(٥) صورت الأسطورة للتملقة بدشاة جنوة على حوائط كنيسة سانت لورنزو ،

انظر في ذلك Carden, Genoa, London, 1906, p. I.

(٦) كانت والسا كرو كونيغو جراً من الأسلاب في فيسرية عام ١١٠١ م وهي مصنوعة من الزجاج ، وقد أرسلت إلى باريس وعرضت هناك سنة ١٨١٥ ، ونظراً لعدم العناية بها فقد تحطمت في الطريق .

(٧) حدث في سنة ١٣٧٣ أن قتل بعض التجار الجنوية مما أدى إلى إرسال أسطول إلى قبرص وجى بالملك بطرس الثانى أسيراً مع عمه ، وعرضت عليها عرامة كبيرة ، وصلت « فاما جوستا » إلى الجنوية كجزء من الفدية التي قررت لإطلاق سراح الملك ، أما الطفل الذى ولد في جنوة فكان ابن المم وأصبح فيما بعد يعرف بالملك حابوس الثانى ومات سنة ١٤٣٢ ، ويلاحظ أن ابنه حابوس الثالث

كان يشغلى العرش وقت زيارة طافور لقبرص ، انظر Stubbs, Lectures

on Medieval and Modern History pp. 225—228.

(٨) كان الملك إذ ذاك - أعين وقت زيارة طافور الجوزة - هو جاكوس الثالث ، وفي المراجع العربية المعاصرة كاللوقا المقريري وإنباء العمر لابن حجر وعقد الحمان للمعري والنجوم الزاهرة لأبي الحسان - إشارات متعددة لهذه الجزيرة لمصر .

(٩) ليس من شك في أن جنود ملت ميلعاً كبيراً من النشاط التعدي في هذه الفترة ، غير أن للأوامر الداخلية الكثيرة كانت عائقاً يثقل في سبيل إردباد هذا النشاط إلى الحد الذي يمكنها به أن تكون مافسة للبندقية ، بل إن جوة اضطرت تحت ظروف خاصة لقبول السيادة الأجنبية عليها فداب للألمان ثم لأهل ميلانو ، أما الاضطرابات التي يشير إليها طافور في القرنين الثاني والثالث كان هو شاهد عيان لها فقد تربت على هريفة ألفونسو صاحب أراجون على يد الجبوية وأسرم إياه في معركة بحرية أمام بونزا Ponzia وذلك في أغسطس ١٤٣٥ ، هذا وقد كان ألفونسو طالب بمعاملة نالي عند موت جوانا الثانية وذلك دخلت جوة ميدان الزواج ، ولما تم للجبوية أسر ملك أرجوة غضبوا إذ رأوا أسيرهم يؤخذ إلى ميلان حيث تلقاه دوقها بالترحاب وحالته واحده صديقاً ، هذا وقد وقعت الثورة التي يشير إليها طافور بآتين في ديسمبر عام ١٤٣٥ ، وفيها لقي الحاكم « أوبرينو » مصرعه ذبحاً ، راجع Cardon: Genea, pp. 89 seq.

(١٠) كان الكونت Francesco Sforza (١٤٠١ - ١٤٦٦) في هذا الوقت بالذات مشغولاً بالحرب ، إذ حارب في صف ميلان ضد البندقية ، أما الآن فكان يحارب من أجل البابا والبندقية وفلورنسة ضد ميلان .

(١١) كان نيكولا Piccinino (١٣٨٦ - ١٤٤٤) واحداً من أبطع المقاتلين وقطاع الطرق وأنغام قلباً .

(١٢) - ترد الإشارة فيما بعد بالتفصيل إلى فلورنسة وذلك في الفصل الثامن والعشرين من رحلة طافور هذه .

(١٣) للتعود بذلك البابا يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) الذي كان قد مر من رومة إلى فلورنسة في يونيو ١٤٣٤ وذلك عقب مقاومته لقرارات مجمع « بارل » للتعقد في سنة ١٤٣١ ، وكان يوجين الرابع هذا قد أمر بغص حاسات

مجمع بارل رغم معارضة أعضائه الذين اعتبروا جلساتهم مستمرة ومفتوحة ، وقد عاش البابا ثمانى سنوات فى القرنى الإحدى الذى اختاره لنفسه ، ووجد أن خبروسية لمبارية بمجمع بازل هو عقد مجمع آخر فى Ferrara عام ١٤٣٧ ، وقد اتخذت فى هذا المجمع الأخير خطوة هامة هى بحث محاولة القضاء على الخلافات القائمة بين الكيسيتين الرومانية والبرنطية ، راجع فى ذلك :

Gregorovius : Rome in the Middle Ages (Eng. Translation), Vol. VII, pt. 1, p 45. Lodge : The Close of the Middle Ages.

(١٤) كان حاكماً إذ دالك هو نقولا الثانى (١٣٨٣ - ١٤٤١) ويظهر المركز الثانى عشر من حكمها ، انظر أيضاً فى حد الفصل الحادى والعشرين من هذه الترجمة العربية .

(١٥) انظر ما كتبه طافور تفصيلاً عن البدقية فى الفصل العشرين من هذه الرحلة .

(١٦) كان خان السمكة هذا من أشهر الخانات فى العصور الوسطى إبان هذه الحقبة .

(١٧) فى باينعلق بروما عام ١٤٣٦م انظر Gregorovius : Rome in the Middle Ages, VII, pt. 1, p 80 وقارن الملاحظات التى جاء بها طافور فى هذا الفصل عن الحيوانات الضارية فى روما بما جاء فى الكتاب المذكور (ج ٦ فى ٢ من ٦١٨) حيث يشير إلى أن القوم قتلوا نخة من القناب الكبيرة عام ١٤١١ كانت أسرح فى حدائق الفانيكان .

(١٨) فى باينعلق بكسية بطرس راجع Marucchi : Basiliques et Eglises de Rome (1909), p. 110 وما تضمنته من الرسم والخرائط ، أما أساس لكسية الحالية الموجودة الآن فقد وضع فى سنة ١٥٠٦ .

(١٩) كان الذى وضع المسلة فى المكان الموجودة به الآن هو Sixtus V سنة ١٥٨٦ وكانت العقيدة الشائعة بين الحجاج هى أن كل من يسير رجلاً على ركبيه تحت هذه المسلة تحب خطاياهم وتغفر ذنوبه ، انظر فى ذلك : F.M. Nichols,

The Marvels of Rome, Lond , (1899), pp. 71-73 & notes.

(٢٠) الأرجح أن هذا إشارة إلى تثال ماركس أوريليوس الذي كان يقوم إذ ذاك في مواجهة الكنيسة ، انظر في هذا E. Rodochanachi : The Roman Capitol (Eng. Trans. , p.p. 131 ff.

(٢١) لما يتعلق بالروايات والأساطير المتعددة المتعلقة بهذا الأمر راجع F.M. Nichols : The Marvels of Rome (1889) pp. 62, 103; G. Mc. N. Rushforth in The Journal of Roman Studies (1919), p. 14.

(٢٢) فيما يتعلق بأسطورة أوجستوس والتنبؤ بولادة المسيح ، انظر : Nichols : The Marvels of Rome, pp. 85, 90.

(٢٣) يقصد بذلك الباشيون .

(٢٤) Nichols : op. cit. p. 11.

(٢٥) يرجع قيام الكنيسة للوجود حالياً وهي للمروغة بكنيسة S. Paolo alle Tre Fontane إلى سنة ١٥٦٠ م ، أما طافور فيشير إلى كنيسة S. Anastasio alle Tre Fontane التي أهديت عام ١١٩٠ إلى القديس برنارد الذي أوجد هناك ديراً للرهبان البيض .

(٢٦) لا أعرف مصدراً آخر لمحدثين الصين .

(٢٧) هو براشيو دامونتاني Braccio da Montano (١٣٦٨ — ١٤٢٤) وكان أحد المايطرين الأتقياء وخصاً دينياً لسفورزا .

(٢٨) كان الكونت جيدالدو Guidi Antonio da Montefeltro ابن أطلونيو كونت أوربينو ومونترو ، وقد حلقه في عام ١٤٠٤ ، وربما يتعلق بكلام طافور حول معبودته راجع : Donistoun : Memoirs of the Dukes of Urbino (1851), 1. pp. 88 seq.

(٢٩) أنظر ما يلي من ١٦٢ وما بعدها .

(٣٠) عرف ملك نابلي Ladislaus بالشجاعة والقدرة (١٣٨٦ — ١٤١٤ م) وقد ناع مدينة رلرا إلى النافقة عام ١٤٠٩ . يبلغ مائة ألف أفنورنتي ، وبلاحظ أن كورفو مع بقية الجزائر الأيونية قد آلت إلى البندقية في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٥ بجزء من نصيبهم في غنائم هذه الحرب وفي أثناء توزيع تركة الإمبراطورية البيزنطية ، علماً بأن سيطرة البنادقة التامة لم تحدث إلا سنة ١٣٦٨

(٣١) راجع وصف الجزيرة والدير في Fabri . op. cit. I, p 184.

(٣٢) ورد وصف مطول لمودون في M M Newell : Canon Pietro : Casole's Pilgrimage (1494), Manchester, 1907, pp 191 ff
المودة آلت في سنة ١٢٠٤ إلى البندقية باعتبارها جزءاً من حديتها في تركه
الإمبراطورية البيزنطية . وقد نجح الترك في الاستيلاء عليها عام ١٥٠٠ م .

(٣٣) W Miller Essays on the Latin Orient (Cambridge, 1921 ' pp. 281 ff.

(٣٤) آت جزيرة إقريطش إلى البادية سنة ١٢٠٤ ، غير أن الأهالي لم
يرسخوا هذه الأبنوة فكانت الثورات دأمة الشيوخ ضد البادية ، ويظهر أن
طافور يشير إلى ثورة ١٣٦٢ ، انظر عنها W. Miller : op. cit. pp. 183 seq.

(٣٥) نجح فرسان الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا في الاستيلاء على رودس
عام ١٣٠٩ واستحوذوا على أملاك الفرسان الداوية سنة ١٣١٢ ، ولكنهم أخرجوا
من رودس عام ١٥٢٢ م ، وسرى طافور يعود فيها بعد إلى رودس حيث يصعب
انتخاب كبير الفرسان أما Collachium التي يقال إنها مشتقة من الكلمة الانليبية
Colligere فكانت جزءاً من المدينة التي تتجمع فيها مباني الفرسان الرئيسية والتي يقيم
بها الفرسان ، انظر خريطة رقم ٢٢ في De Haxbre : Rhodes of the Knights. Oxford. 1908. p. 98

(٣٦) فيما يتعلق بمهاجمة المالك لحسن قشتال الراج بعد ذلك يوضع سوات راجع :
H. Habashi : Egyptian Expeditions Against Castelrosso and Rhodes
(A F A A.S.U., 1961)

(٣٧) فيما يتعلق بهذه الناحية راجع K. S. Bates. Touring in 1800
London , 1911, p. 210. Fabri. op. cit. W. Davies . Bernard von Breydenbach
& his Journey to the Holy Land.

(٣٨) عرفها ابن عبد الحق البغدادي : مرصد الاطلاع (نشر على محمد
البجاوي) ٥٩٧/٢ بأنها من قرى بيت المقدس .

(٣٩) كان أحد قواد الحملة الصليبية الأولى ونجح في الوصول إلى بيت المقدس
حيث كان انتزاعه من المسلمين على يده ، كما اختاره رملاؤه في السلاح حينذاك
أول ملك لبيت المقدس ، لكنه نخل عن هذا القاب تديناً ورفض أن يضع التاج

على منفرة في مكان وضع السيد المسيح عليه السلام الشوك فيه على هامته ، واكتفى بأن يسمى « بحامي القبر المقدس » .

(٤٠) على الرغم من مألوف العادة في كتابتها في المرية بالسين ، وورودها على هذه الصورة في التوراة ، إلا أننا أثروا كتابتها بالصاد ، حيث مر على ذلك ابن عبد الحق البغدادي في مراسد الاطلاع ٩١١/٢ وقال في شأنها « إنها بليدة قرب بيت لحم من نواحي بيت المقدس » .

(٤١) وذلك إشارة إلى قصة شك نوما في قيام المسيح .

(٤٢) كانت العادة قد جرت بفتح كنيسة القبر المقدس مرتين فقط في السنة ، ويبقى الحراس داخل الكنيسة حتى وصول حجاج الموسم التالي (انظر Febri. op. cit. 428) ويتناولون طعامهم مما يعطونه من فتحات في الباب ، وقد ترك لنا طابري وصفاً رائعاً لهذه قضاها في القبر المقدس . ويمكن لأفاري* إذا أراد الوقوف على وصف الكنيسة والأحرام المقدسة مراجعة G. Jeffery: A Brief Description of the Holy Sepulchre (Cambridge: 1919).

(٤٣) جاء بعد هذا ما يشير إلى نص القبرية ولكن لم يرد هذا النص وكذلك الحال في القبرية على شاهد أخيه بلدوين .

(٤٤) يتفق ابن عبد الحق البغدادي (مراسد الاطلاع ٢٣٨/١) مع طافور في وصف صر بيت لحم حيث يقول عنها « بليدة قرب البيت المقدس » ثم يعقب على ذلك قائلاً « المشهور أن عيسى عليه السلام ولد به » .

(٤٥) كانت ترجمته إلياه في القرن الرابع لليلاد وهي التي أفرتها الكعبة

الرومانية ومنها Lectio Vulgata

(٤٦) « من المبارك الرب إله إسرائيل .

(٤٧) يوجد وصف لقواكه البحر اللبت في Curzon : Visits to Monasteries

in the Levant (ed. by D. G. Hogarth, Oxford, 1916), p. 228.

(٤٨) جاء في تعريفها في مراسد الاطلاع ٦٣/١ أنها كلمة عراقية : مدينة

الجبارين في العود .

(٤٩) يعنى السيد الفرنسي القليل .

(٥٠) يقول ماثدليل إنه رأى من داخله ، كما وصفه المؤرخ ولهم الصوري ،

والقصود بذلك مسجد عمر .

(٥١) في وصف هذا الاحتفال راجع Rohricht : Deutsche Pilgerreisen,

p. 21, & Pavane: Theatre of Honour, p. 382.

(٥٢) قال مراسد الاطلاع ١٣٤٨/٣ في شأنها قرية بينها وبين طبرية ثلاثة

عشر ميلا ، منها اشتق اسم المصارى لأن السبيح سكنها فسمي إليها .

(٥٣) راجع في هذا الشأن A. S. Atiya : The Crusade in the Later

Middle Ages,

(٥٤) انظر ما سبق ص ١٠ حاشية رقم ٧ .

(٥٥) وتسمى Ines أو Agnes of Lusignan وهي أخت جانوس الثاني ملك

قبرص .

(٥٦) وهو جانوس الثالث بن جانوس الثاني ، وقد ولد عام ١٤١٥ م

وتولى بعد أبيه العرش سنة ١٤٣٢ ، وكان رجلاً ضعيفاً فاسداً ، وحينا وإماماً للوث

عام ١٤٥٨ كان البيت لللكي في الواقع قد انقضى ، ولم يترك من الأبناء الشرعيين

سوى فتاة اسمها شارلوت خلعت على العرش ، ولكن الأمر إذ ذاك كان قد أصبح

منازعة بين البنادقة والجنوئين في أيهما يملك الجزيرة التي استولت عليها البندقية

تماماً عام ١٤٨٩ وظلت في حوزتها مدة اثنتين وعشرين سنة ضد الأتراك العثمانيين ،

أما الكردبيل فهو Hugo de Lusignan آخر جانوس الثاني .

(٥٧) يصف أحد معاهدي البيان (Monstrelet, ch. XXXIX) قيد الأسرى

كل اثنين معاً ، وقد أركبوا الملك بخلاً .

(٥٨) يقول موستريليه (شرحه) إن هذا الفارس اسمه Gajeran Sarary
 وأنه ألقى بنفسه على لكك صائحاً بالبرية « هذا هو لكك » ، ويلاحظ أن حانوس
 الثاني قد نهب الساحل المصري وأثار غضب السلطان المملوكي الذي عرأ الجزيرة
 عام ١٤٢٦ م وأسر لكك واستمر أسره مدة خمسة عشر شهراً ، ثم وثق أسره بعد
 دفع حريه كبيرة وعاد محتم القلب حيث مات سنة ١٤٣٢

(٥٩) فيما يتعلق باستمال الخيام الزاحل انظر :

Marco Esposito : Pilgrimage of Symon Symeonis in Geogr. Journal, Nov.
 1917, p. 340. Schillerberger : Bondage and Travels : Hakluyt Society, p. 68,
 and Rohricht, op cit p. 24

(٦٠) يعنى بذلك مصر القديمة الخانيه

(٦١) Schillerberger : Bondage and Travels, p. 61.

(٦٢) المطرقة قرب القاهرة « عندها الموضع الذي فيه شجر النسيان الذي
 يستخرج منه الدهن وليس ذلك في موضع آخر » ، انظر مرصع الاطلاع
 . ١٢٨٤/٣

(٦٣) أطلال Mendicities Ch. VII في وصف الناصب ونهارته انقى بمحسرها
 المسلمون ليهه الجماعات النصارى .

(٦٤) فيما يتعلق بهذه التسمية للأهرام انظر :
 Esposito : The Pilgrimage of Symon Symeonis (in Geogr. Journal, 1919, Febr., p. 87

(٦٥) مكبال الخروبة يبادل في جالونات .

(٦٦) لقد رأى سيمونيمز هو الآخر الفيلة ورافقة بالعاهرة ، انظر :
 Geogr. Journ., Febr., 1918, p. 86.
 (٦٧) أى ستة عشر قدماً .

(٦٨) لقد شاهد كيرزون نفس الأمر لكن بعد أرحمئة سنة ، انظر :
 Visits to the Monasteries in the Desert, p. 93

(٦٩) كان اللعب بالكرة من الألعاب المحسة إلى سلاطين مصر المملوكية ،
 وهي المعروفة الآن بالبولو .

(٧٠) كانت الرحلة إلى جبل سيناء تجربة قسمة خطيرة ، قل أن يسكرتها

الحاج مرة أخرى ، أما فيما يتعلق بالرحالة المتأخرين فانظر : Baes : Touring in 1600 (Lond. 1911) pp. 228, Röhricht : Deutsche Pilgerreisen, p. 23 ، ويوجد وصف رائع للدير في وقتنا الحاضر ومكتبه في : A. Mary R. Dobson : Mount Sinai, a Modern Pilgrimage (Lond., 1925). ولقد طلت تجارة الموميات حتى القرن الثامن عشر .

(٧١) كان من البلاد التي زارها نيكولودى كونى بلاد فارس ومن أقاليم

هندستان الداخلية وجزيرة سيلان وسومطرة وجاوة ، ثم رحل إلى الصين ، ولما كان في طريق عودته سار مصافياً لساحل الحبشة وركب البحر الأحمر حتى باع القاهرة حيث ماتت زوجته وأولاده وعاد إلى البندقية بعد غيبة عدة أعوام عنها ، وراح يلتمس غفران البابا له على تركه ملته ، فطلب إليه البابا أن يقص خبر رحلاته على سكوثيره الحاصل Poggio Bracciolini الذى كتبها باللغة اللاتينية، وقد أصدرت جمعية هاكليت عام ١٨٥٧ ترجمتها الإنجليزية بعنوان India in the 15th Century على أن المقارنة بينها وبين مارواه طافور في القرن هنا تشير إلى أن مارواه نيكولودى كونى لطافور يتضمن أموراً خلت منها نسخة « بوجو » .

(٧٢) هو ملك الهند المسيحي الخراسي ، وقد وردت الإشارة إليه أول مرة

في كتاب لأواو أسقف فريزنجن سنة ١١٤٥ م ، وفي عام ١١٦٥ م انتشر في أوروبا خطاب قيل إنه موجه من « بريسترجون » إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل ، ويحتفي بريسترجون بعدئذ من الهند ليظهر في الحبشة ، انظر : F. Zarncke :

Der Priester Johannes. 1876—79; Yule: Cathay and the Way Thither, Hakluyt Society).

(٧٣) لم نقف لهذه الطائفة على خبر .

(٧٤) انظر حاشية رقم ٧٣ .

(٧٥) وتعرف قته « بقمة آدم » حيث يقال إن قبره موجود بها وهي شديدة

الانحدار لا يستطيع تسلقها إلا بالسلاسل ، انظر :

C R. Keesley: The Dawn of Modern Geography, III, pp 187, 269, 308.

(٧٦) شاهد ابن بطوطة مثل هذا الأمر في بلاط أحد الملوك النصارى ، انظر أيضاً

Yule : Marco Polo (3rd ed.) II p 849.

(٧٧) فيما يتعلق بحركة طافور السابعة بقبرص انظر ص ٥٤ وما بعدها.

(٧٨) تزوج الملك جانوس الثاني مرتين إحداهما ب ابنة مركزى مونتيرات
وثانيهما بـ بيلين بالبولوجس ابنة تيودور التى أتت من ابنة واحدة هى شارلوت
التي خلعت على المرض .

(٧٩) انظر ما سبق ص ١١ .

(٨٠) اخبر بطون فلوقيان الأراجونى الجنسية عام ١٤٢١ رئيساً للفرسان
الاستبارية ومات فى التاسع من أكتوبر ١٤٣٧ ، وانظر أيضاً : De Balabre :
Rhodes of the Kolghis p. 19.

(٨١) وقع الاختيار على « جان دى لاسنيك » الذى مات يوم ١٧ أغسطس
سنة ١٤٥٤ .

(٨٢) هو Louis de Anaral y Costa الذى أرسله جون ملك البرتغال
إلى مجمع بازل ، وكان هذا الأسقف فى تلك الآونة فى الشرق فى سفارة إلى
الإمبراطور البيزنطى ؟ كما أنه كان أحد البعوثين الذين أمروا — مع طافور —
قرب مينز كما سيرد فيما بعد فى الفصل الخامس والعشرين .

(٨٣) كان هذا رسالة السيد الأعظم رئيس الفرسان الصادرة عام ١٤٤٥ م
يطلب فيها المال والرجال لوقوف ضد الاستمدادات التى أعدها السلطان جنمق
لمهاجمة الجزيرة .

(٨٤) انظر ص ١٢٤ فيما بعد .

(٨٥) ظلت جنوة تحكم حيوس من سنة ١٣٤٦ حتى ١٥٦٦ م ، وكان يشرف
على إدارتها هيئة تسمى Haona ، ويطلق على أعضائها Haodera ، انظر فى ذلك
Miller : Essays on the Latin Orient, p. 296.

(٨٦) بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ استقر الجيوغى « بريد »
حيث مرضوا فواتيهم وولائهم وأخذوا من هناك يشرفون على تجارة البحر الأسود ،

وكان أهم مركز في « كافا » التي زلزلها طافور قبا حد ، انظر ص ١٣٣ وما
بعدها من هذه الترجمة وراجع أيضاً : Heyd - Hist. du Commerce du
Levant, I, p 438 ويوجد وصف لبياء يريه في Clavijo : Embassy to
Samarqand (1405-6), pp. 47-8 هذا وقد اختفت هذه الجالية مع
الإمبراطورية ، انظر ص ١٥٤ .

(٨٧) كان هذا هو الإمبراطور الذي نفاه أخوه ويذكر طافور ص ١٣٢
أنه قابل الإمبراطور المنتصب في طرايزون .

(٨٨) عبر معروف على وجه التحقيق تاريخ قيام هذه الجماعة من الفرسان ،
لسكن يظهر أنه أنشأها جوان الثاني ملك قشتالة عام ١٤٢٠ لجذب الأشراف
والأفصال للانخراط تحت رايته ، وكان أعضاؤها يظهرون على أنفسهم الميول بالدفاع
عن المملكة ضد المسلمين ، والطاعة حتى الموت في سبيل الدين .

(٨٩) أراد الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجس - وقد هدده
الأتراك - أن يحول المنازعات التي أثارها مؤتمرا بازل لصالحه ، ولقد رحل
الإمبراطور إلى أوروبا يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ ، وكان طافور شاهد عيان لرحيله
حيث لقيه في فرار امرأة ثانية (ص ١٨٣) ، وقد رفض الشعب اليوناني الوحدة
للذهبية مع كنيسة روما ، وكان موت الإمبراطور سنة ١٤٤٨ حيث سقطت القسطنطينية
في يد الأتراك بعد خمس سنوات ، راجع في هذا : Cambridge Medieval
History, IV, pp. 621 ff.

(٩٠) في سنة ١٢٠٤ قام أسطول صليبي من الفرنسيين والألمان والسادقة
وانحرف عن وجهته الصليبية واستولى على القسطنطينية التي استردها اليونان
عام ١٢٦١ .

(٩١) سيرد وصف البياد والأعمدة قبا حد ص ١٧٢ .

(٩٢) حد سقوط القسطنطينية نجتمع اليونان في تيقية وقد نجح ميخائيل
باليولوجس الذي تزوج من إحدى أميرات البيت الإمبراطوري في استرداد

القسطنطينية يوم ١٥ أغسطس ١٢٦١ ووضع الساج على رأسه في كنيسة
القديسة سوفيّا ، انظر Cambridge Medieval History , IV, P. 427 ff

(٩٣) سمى جدتد قسطنطين الحادى عشر باليولوجس ، وقدمات حد الاستيلاء
على القسطنطينية .

(٩٤) كان هذا يوم ٢٤ نوفمبر ١٤٣٧ .

(٩٥) كانت طرايزون إذ ذاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المستقلة الواقية
في أعقاب الفتح اللاتينى للقسطنطينية عام ١٢٠٤م ، وكان الإمبراطور يوحنا الرابع
كورسين قد اعتال أباه ، وللمتقد أن الأب الكسيوس الرابع قد ظل على قيد الحياة
حتى عام ١٤٤٦م ، على حين أنه يستفاد من رواية طاور على أنه قد مات سنة ١٤٣٧
أولى مستهل ١٤٣٨ ، ولذلك فإن ما ذكره Finlay, Greece, Vol IV p. 399
بمنحاح إلى مراحمه ومصحح ، ويوافق ولیم ميللر على ما جاء فى طاور ، انظر
English Historical Review, 1928, p. 409 ، هذا ويلاحظ أن السلطان العثمانى محمد
الفاتح قد فتح فى سنة ١٤٦١ فى صم طرايزون للأملاك العثمانية ، ويمكن للقارىء
أن يطالع وصفها عام ١٤٠٤ فى Clavigo Embassy to Samarcand (Hakluyt Society, p 92

(٩٦) كانت كافا تشغل مكانة أكبر من أن تقتصر على أن تكون مركزاً للتجارة
البحرية فى الشرق ، إذا كانت هى ودخاطة العاصمة التجارية للشرق اللاتينى ،
وربما أمكن القول بأن استقرار الجيوبية هناك قد تم قبل عام ١٢٠٤م ولكن
وحدود الجالية الكبيرة قد نهم عن استعادة اليونان لبلادهم عام ١٢٦١ ، ونستدل
من وصف Schiltberger (حوالى عام ١٤٣٠م) على أن كافا كانت محاطة بمسبل
مردوح وبها سنة آلاف دار فى العصيل الصيق ، وأربعون ألف دار فى العصيل
الأوسع ، وكانت قاعدة أبرشية شنة تبشيرية كبرى وكان بها شنة أنواع من المثل
والمداهب ، انظر : Schiltberger Bondage and Travels, Hakluyt Society
PP 49-50, Early Dawn of Modern Geography, III, PP 371 477, II,
P 453

(٩٧) كانت كلمة Ryzabaque ، Tana تطلقان على بحر أزوف، أما بحر «دا كره» فهو بحر قزوين .

(٩٨) قارن ذلك بما كتبه شلتبرجر (ص ٤٨) حيث يقول « إنهم يأخذون قطعة من اللحم ويقطعونها إلى شرائح ، ويضمونها تحت السرج الذي يركبون عليه ، ويأكلونها حين يحسبون بالجوع ، ولكم يملعونها أولاً، ويظنون أنها بذلك لا تفسد لأنها تصبح جافة بسبب دفء الحصان ، وتصبح لينة تحت السرج من جراء الركوب » .

(٩٩) كان نهر الدون واجداً من نقط البداية الكبرى للطرق التجارية إلى الصين ، انظر في ذلك C. R. Beazley: op. cit. Vol. II. pp. 463 ff.

(١٠٠) خبر هذه السمارة (١٤٠٣ - ١٤٠٦ م) وارد في ربي كوزالزدي كلافيجو في ترجمة سير كلينتمس مرخام ، عام ١٨٥٩ .

(١٠١) فيما يتعلق بهذه الطائفة انظر : W. R. Lothaby & H. Swainson : Santa Sophia, 1896, pp. 19, 190 ويقول كلافيجو إن عشرة من الأغربة كانت تستطيع السير هناك (ص ٣٨) ، وهذا السكياك يبادل الواحد منه ١٦ س ترا .

(١٠٢) هذا في الواقع هو الخيال جستنجان الذي حطته ساعة عام ١٤٩٢ م ، ويوجد رسم رائع له في مكتبة سراي ، وقد نقله Constantineople J. Eberolt . Byzantine et les Voyageurs du Levant, Paris, 1910 t. 80. ولقد نصح « بيرجيل P. Gilles » المؤلف والعالم الطبيعي الذي أرسله فرنسيس الأول ملك فرنسا عام ١٥٤٤ إلى الشرق في العثور على أجزاء من هذا الخيال ، وهي أجزاء ضخمة ، فكانت الساق تتجاوز قمة الرجل ، كما أن طول الأفع كان تسع بوسات .

(١٠٣) رأى كلافيجو (ص ٤٠٣) هذه الصورة في كنيسة القديسة ماريا ديسيزيا ويقول إنها شديدة الثقل حتى أنها كانت تتطلب أربعة رجال لحملها فيما بينهم بواسطة حبال من الجلد انظر Embassy to Samarcand P. 44. وقد حطمت هذه الصورة حين دخل الأتراك المدينة ، إذ مزقها الإنكشارية إلى

بطع صغيرة لهما ؛ انظر W. H. Hutton: Constantinople (Med. Towns Series) P. P. 268, 269 ويبدو أن الصورة كانت تحفظ — بين وقت آخر — في مختلف المكتبات .

(١٠٤) الأرجح أن هذه هي كنيسة « بلاشيرن » وقد رآها أطلالاً « حيران »

عام ١٥٤٤م انظر Ebersolt : Constantinople Byzantine et les Voyageurs du Levant, p. 81.

(١٠٥) كنيسة « المسيح صابط الشكل » Pantokrator شيدها يوحنا كومنين وورثته إيرين التي توفيت سنة ١١٢٤ ، وهي في الواقع ثلاث كنائس بعضها داخل بعض ، أما الوسطى منها فكانت ضريح آل كومنين .

(١٠٦) يعني بذلك الهيدروم وعمود السربنت . وقد عمد فسطاطين إلى نقل العمود من دلي ، وكان العمود يحمل في مداية إقامته الركيزة الثلاثية الذهبية التي كرسها اليونان لأبولو بعد انتصارهم على أجزرسييس في بلاتاى Platta ، ويمكن مطالعة أسماء المدن للدونة على أسطواناتها ، أما الرؤوس الثلاثة فقد اختفت منذ زمن بعيد ، وواحدة منها في المتحف ، أما فيما يتعلق بتاريخ العمود والقوس فانظر Pausanias's Description of Greece, Vol. V, pp. 299 ff.

(١٠٧) لا نعرف على وجه التدقيق أى أعنان يشير إليه طامور ولا القصة الموجودة في كتابات الرحالة الآخرين .

(١٠٨) من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى الأسطورة المتعلقة بمهامات Zeuxippe التي كانت ملاصقة للقصر والهيدروم .

(١٠٩) جاء تيودوسيوس بهذه للسلة من هليوبوليس وظلت باقية في مكانها الذي وضعت فيه .

(١١٠) لم يبق من اللباني التي كانت تؤلف القصر الإمبراطوري سوى بعض الأطلال ، ولا شك في أن الإشارة إلى المكتبة ذات أهمية خاصة وذلك لوجود نقش كثير حول مكانها .

(١١١) ضرب الترك في عام ١٤٢٢ حصاراً حولها استمر من يونيو إلى أغسطس

لكنهم ما لبثوا أن دفعوه ، وحينذاك عقد الإمبراطور السلم لكن على شرط قيامه بدفع جزية ضخمة ، ونحليه لهم عن كثير من الأماكن الواقعة على البحر الأسود ،
انظر Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 689, 60

(١١٢) تشغل بروسة السفوح السفلى من جبل أولمبوس ميزان ، ويقال إنها تأسست بناء على إشارة من هانيبال ، وقد استولى عليها الترك عام ١٣٢٧ بعد حصار استمر عشرة أعوام وقيت عاصمة لهم حتى انتقل مراد الأول إلى أدرنة .

(١١٣) وتعرف اليوم بأزميد ، وقد جاء في لي استرايخ : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشر فرنسيس وكوركيس عواد) ص ١٩٠ أن العرب الجغرافيين الأوائل عرفوها باسم « نيموديا » وهي تعريب لكلمة Nicomedia ، وسماهها الترك « أزنكميد » .

(١١٤) فيها يتعلق بيبره راجع ما سبق ص ١١٥ .

(١١٥) استردت سالونيك بعد كثير من الأحداث وأخذت من البهامة

عام ١٤٣٠ ، وقد بيع سبعة آلاف من سكانها رقيقاً ، انظر : Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 690, W. Miller : Essays on the Latin Orient, 1924, pp. 279 ff.

(١١٦) انظر ما سبق ص ٣٥ .

(١١٧) كان تاريخ عودة طافور إلى البندقية هو ٢٢ مايو ١٤٣٨ .

(١١٨) يمكن للقارىء أن يستزيد عن هذا الخبر والأحداث التي أعقبت في :

Haslitt: Venetian Republic, 1st ed. I, p. 420 أما البابا فهو اسكندر الثالث ، وتذهب الرواية إلى أنه قدم إلى البندقية متنكراً عام ١١١٧ م ومضى إلى دير كريت Carita حيث استقبلوه كقسيس بسيط أو — حسب رواية أخرى — مساعد طاه ، ويقال إن القدي عرقه هو رجل فرنسي اسمه Comodo ، ويلاحظ أنه ليس ثم أساس تاريخي لهذه القصة ، انظر : G. Tassinari : Curiosita Veneziane, 4th. ed. Venice, 1887. p. 148

وقد حدثت هذه المراكبة البحرية يوم ٢٦ مايو ١١٧٧ ، وكان اندحار الألمان فيها هائياً ، وتشير ثلاث لوحات من الرخام الأحمر في سقفة باب كنييسة القديس مرقس إلى البعثة التي ركب فيها فردريك وأنهضه البابا وقد أعزوت عياد بدموع المرح ومسحه قبة السلام ، أما القصة التي يرويها طافور ويشير بها إلى كنييسة وضع البابا قدمه على رقة الإمبراطور وهو مبطح على الأرض فتأخرة تاريخياً ، والصورة لا تزال موحدة في حالة الاحتمالات الكبرى بقصر الدوج .

(١١٩) من المحتمل أن تكون الجياد البرونزية الشهيرة هي التي عات أقواس النصر لتكريم نبرون ومن بعده زاجان ، وقد بحث بها قسطنطين إلى القسطنطينية حينما جاء بها الدوج دادولو إلى البندقية عام ١٢٠٤ م .

(١٢٠) بدى في إقامة الـ Campanile عام ٨٨٨ م ثم أعيد بناؤه في سنتي ١١٤٨ ، ١٣٢٩ م ، وقد سقط يوم ١٤ يوليو ١٩٠٢ ثم جدد مرة أخرى .

(١٢١) شيد العمودان للصوغان من الجرانيت عام ١١٨٠ ، وكان أحدهما يحمل أسد القديس مرقس ، والآخر أسد القديس نيودور — وليس القديس جورج — على تمساح وهو حامي الجمهورية القديم قبل وصول رفات القديس مرقس من مصر عام ٨٢٧ ، وقد ظل العمودان ملاقيين على الأرض بضمة أعوام حتى قام مهندس لباردي اسمه بيكولو برفعهما وحفظهما ، انظر Hazlit ; Venetian Republic , I , P. 488 .

(١٢٢) انظر ما سبق ص ٦١ .

(١٢٣) الإشارةها إلى المؤامرة الخائبة التي دبرها Marino Faliero الذي اختير دوجا عام ١٣٥٤ وهو في السادسة والسبعين من عمره ، ويلاحظ أن طافور واسع الحيان في هذه الناحية ، إذ أن الدوج أعدم يوم ١٧ إبريل ١٣٢٥ ، راجع : Hazlit ; op. cit. vol. III pp. 145 ff.

(١٢٤) ولد فرانتسكو باسوتي Francesco Bassano في قرية صغيرة اسمها كرمانيولا Carmagnola في إقليم تورين عام ١٣٩٠ ، وقد ثبتت عليه جريمة القسام بأعمال خائنة مع الفيكونتي وأعدم يوم ٥ مايو ١٤٣٢ .

(١٢٥) تأسست بيتا في سنة ١٣٤٦ لتلقي القنطار ، انظر : Tajanini op. cit. p. 559.

(١٢٦) استمرت الحرب بين البندقية وميلان لمدة سنوات عدة ، ولم تنقرب إلا بموت فيليبو ماري فيكونتي عام ١٤٤٧ ، وعلى أية حال فقد كان هو الخاسر ، إذ تارت جموة ، ومدت البندقية حدودها غرباً .

(١٢٧) نوع من القوارب الخفيفة ، محدودب الشكل أشبه بالسلحفاة .

(١٢٨) أصدر البابا يوجين قراراً بغض مجمع بازل واستدعى مجعاً آخر في ٥ فبراير ١٤٤٨ ، ثم انتقل بعد عام واحد إلى فلورنسة ، وقد قبل الإمبراطور البيزنطي اتحاد المكيستين اليونانية والرومانية لكن اليونان رفضوا هذا الأمر

(١٢٩) هو ميكولو الثالث مركز فرارا الثاني عشر (١٣٨٣ - ١٤٤١) وكان إذ ذاك في الخامسة والخمسين من عمره ، ويبدو أن طافور شديد الاهتمام بمسألة السن ، أنظر ما سبق من ٦٥ والفصل السادس والعشرين من ٢٣٢ . وليس من اليسير معرفة الإشارة إلى الجلالون وإن كان *Diego de Valera : Cronica de Espana Abreviada*, Pl. IV, cap. 9 يشير إلى هذا الموضوع حيث كتب يقول « إن مؤرخي أسبانيا وفرنسا يشيرون إليها (أى إلى الهزيمة في Roncesvalles) بأنها حدثت بسبب كونت فرنسي اسمه Galalon الذي لا يزال بعض ذريته يعيشون في فرنسا ، وإذا حدث أن تناول أحدهم الطعام مع آخرين وضع الخبز مقلوباً أمامه على اللادة » . وجالالون (Galalon) هو الخائن في أضية رولاند .

(١٣٠) يبدو أن البيئة المعاصرة لهذه المأساة قد فقدت ، ومن ثم لم يعد من اليسير التفرقة بين الحقيقة والخيال ، ولقد ماتت زوجة نيكولو الأولى عام ١٣٩٧م ، ثم عاد فتزوج مرة ثانية سنة ١٤١٨ م من *Parisina Malatesta* ، وقد أصبح Ugo ابن زوجها عشيقاً لها ، وقد أمسك الخاطنان ليلة ٢٠ مايو ١٤٢٥ وألقي بهما في السجن وأعدما في اليوم التالي ، وقد أصبح للركيز كثير من الأبناء غير الشرعيين بعد موت « باربريسا » ، ثم كانت زوجته الثالثة *Ricciarda de Saluzzo* سنة ١٤٣١ ، وقد اشترط عليها أن يخلفه من بعده ابنه « ليونيلو *Leonello* » للولود عام ١٤٠٧ مها ررق منها من صبية ، وقد أعلن شرعيته منه البابا مارتن الخامس ، أنظر

Gardner : *Dukes and Poets of Ferrara*, 1904, PP. 87 ff.

(١٣١) ربما كانت الإشارة هنا يقصد بها أنها كانت دلت قدمين كبيرين .

(١٣٢) إلتقى طافور بيكولا بنشينيون من قبل ، أنظر ص ٣٣ ، حاشية رقم ١١ .

(١٣٣) كان فيليو ماريا فيكونتي بن جيان جاليزو G. Galeazzo وقد تولى العرش بعد موت أخيه عام ١٤١٢م وكان آخر حكام بيت فيكونتي الطعانة وظل يحكم مدة خمس وثلاثين سنة ، والمروى عنه أنه كان ذا طلمة باهية القبع وأنه كان شديد الإحساس بهذا العيب ، ومن ثم فإن قلما كان يظهر للناس ، وأحد نفسه بالعيش في حبرات سرية ، وكان إذا خرج أبى أن يحويه الناس في الشوارع .

(١٣٤) لم يكن فيليو ماريا ولي عهد يخلفه ، أما ابنته بيانكا Blanca فقد تزوجت ١٤٤١ من فرنسكو سفورزا الذي اعتلى عرش الدوقية بعد فترة قصيرة من الحكم الجمهوري سنة ١٤٥٠ .

(١٣٥) هو قائد جماعة مرتزقة وقد تزوج بأرملة فيليو ماريا فيكونتي .

(١٣٦) إذا كانت هذه هي لوسرن فقد اختلط الأمر على طافور .

(١٣٧) عبر آدم دي أوسك هذا المر في سنة ١٤٠٢ حيث « سعب في عربة يجرها ثور ، وقد قد أنهم كالتب بصورة نجملة نصف ميت من جراء البرد وحيلين مصوبتين ، حتى لا أرى أخطار المر » راجع Chronicle, ed. by Sir E. M. Thompson, 2nd ed. P. 242.

(١٣٨) هناك وصف لبازيل في هذا الوقت وضعه ايناس سيلفاس Aeneas

Sylvius الذي عرف فيما بعد باسم البابا ييوس الثاني ، وهو الوصف المترجم في Chreighton : History of the Papacy, new ed. II, P. 199 . هذا وقد عقد المجلس عام ١٤٣١ واستمر منعقدا حتى سنة ١٤٤٩ .

(١٣٩) دون جوان دي سيلفا أول كونت لسفوتينا ألبرت الأكبر للملك جوان الثاني ، وقد كان ألبرت الأكبر هو الضابط الذي كان موكولا إليه حراسة علم للمدينة بمساعدة إحدى الزبورات لللكية .

(١٤٠) من الأرجح أنها ملربا شتين التي كانت سابقاً أحد الأديرة البندكتانية واللتق بها كنيسة حج شهيرة .

(١٤١) أنظر ما سبق ص ١٥٦ .

(١٤٢) شيدت القلعة القديمة عام ١٣٧٦ في رينز Rhense قرب كوبلنز ، وقد حل عليها بناء حدث وجرى فيها آخر انتخاب إمبراطورى عام ١٤٠٠ م .

(١٤٣) رينز كان يبنى ذلك جوهانسبرج لكنها تبعد عن كولنز عدة أميال كثيرة .

(١٤٤) تم انتخاب ديتريش الثانى فون مورز عام ١٤١٤ ومات سنة ١٤٦٤ وهو واحد من أقوى أمراء الكنيسة ، وعلى الرغم من إشارة طافور هذه إلا أن فون مورز اتخذ خطوات صغيرة في العمل على إصلاح سيرة رجال الدين .

(١٤٥) هو أدولف الثانى أول دوق لسكوفس ١٣٧١ — ١٤٤٨ ، وكانت زوجته الثانية « ماريا » أخت فيليب الطيب .

(١٤٦) وكل إلى أرنولد ديجموت عام ١٤٢٣ بدوقية جيلدرز Guelders وتسلين Zulphe .

(١٤٧) لا — كمن أن يكون المقصود بها Lille ، ولا بد من أن طافور يشير إلى مكان صغير مجاور لبوا — لى — ديك Bois-le-duc وخط بين الأسجين .

(١٤٨) يلى فيليب الطيب الذى امتد حكمه من ١٤١٩ حتى ١٤٦٧ م ، وكان قد تزوج عام ١٤٣٠ بإيزابلا ابنة خوان الأول ملك البرتغال وفيليب دى لانكستر .

(١٤٩) جون دى لانكستر هو الابن غير الشرعى لـ فالرام الثالث Waleram دوق لوكسمبرج ، وقد ولد سنة ١٣٩٠ م واعترف بينوته الشرعية سنة ١٤٣٩ ومات عام ١٤٦٦ م ، وكان يمد واحداً من أعظم جند يومه ، وقد أسر مرتين في بعض المعارك ، وأنعم عليه بوسام طائفة القطيع الذهبى عام ١٤٣٣ م ولكن ليس بالطريقة التى يرونها طافور في الرحلة ، إذ يبدو أنه يخلط بين جان دى لاريموى Grimoult وسير دى موتيج الذى اتهم بالجلين وأخرج من الطائفة عام ١٤٣٩ م .

(١٥٠) هو الذى أصبح فيما بعد عرف باسم « شارل الأصغر » الولود سنة ١٤٣٣ والمتوفى عام ١٤٧٧ ، وكان قد تزوج في سنة ١٤٦٨ بـ جريت دى يورك أخت إدوارد الرابع .

(١٥١) فيما يتعلق بروجن راجع *Malcolm Letts: Bruges and Slnys (London. 1926)* ولقد كانت هذه المدينة وقت زيارة طافور لا ران تعتبر سوقاً من أكبر الأسواق التجارية في أوروبا ، أنظر أيضا *Pirenne - Economic & Social History of Medieval Europe, chs. 5&6.*

cf. M. Letts : op cit. (١٥٢)

(١٥٣) وكان موقعها عند الجانب الشرقى من القصر الكبير ، ولكنها تهدمت سنة ١٧٨٧ م .

(١٥٤) يشير طافور إلى ثورة ١٤٣٧ حيث هاجم الثوار الدوق عبد بران ، « بوفرى » وكادوا أن يتلوه وكانت نجاته إحدى للجزات ، ومن ثم كانت نفعته هاجم عديدة صاود قتالها في العام التالى واحتلها .

(١٥٥) كانت ماريز هي ميناء روجس البحرى في ذلك الحين واسمها أصبحت اليوم مدينة في الداخل .

(١٥٦) ثارت « غنت » سنة ١٤٥٢ ، ويرجع الفصل في مقاومتها للحصار للضروب عليها إلى استحكاماتها العظيمة ، غير أن هزيمة « حافيرا » يوم ٢٣ يوليو ١٤٥٣ أدت إلى خضوع الثوار ، وفي يوم ٣٠ يوليو ركب الألمان من أهلها للدوق فيليب مائتين عترة ، وفرض عليها أقصى الشروط الدلة .

(١٥٧) قام الإمبراطور سيجسمند عام ١٤٦٥ بمنح « انتورب » حق عقد سوقين في كل عام ، ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة في الازدهار والرخاء بصورة لم نشاهدها من قبل ، لكنها لم تستطع أن تكون مركز تجارة الشمال إلا منذ بداية القرن السادس عشر إذ كانت « برجنس » لا تزال مافياً حطيرألماء ، أنظر في ذلك

Pirenne Hist. de Belgique, II P. 440 ; J. Wagg : Antwerp 1477-1669. (1916).

(١٥٨) أنظر ما سبق ص ١٠٩-١١٠ .

(١٥٩) لابد من أن يكون السوق الذى يجسده طافور في الآن هو *Ingoldstadt* ابن فردريك دوق بافاريا المسمى لانديشوت .

(١٦٠) انعقد مجمع كوستانس عام ١٤١٤ وهو الذي قرر حرق « جون »

هس ، انظر في ذلك J. H. Wylie The Council of Constance to the

Death of John Huss (Lond., 1900)

(١٦١) هو غير John de Turquemada المحقق في ديوان التفتيش ، ولكنه

من رجال الدين وقد مات سنة ١٤٦٨ ، كما أنه أحد رسل البابا الذين أوفدوا
لمنعور المجمع انعقد في بارل .

(١٦٢) بلنمي كاسبر شليك Kaspar Schliek إلى إحدى الأسرات الشريفة

في فرايسكوبيا ، وكان قد التحق بخدمة الإمبراطور سيجسمند كاتباً في ديوان
مراسلاته ، ثم ما لبث أن أصبح صديق الإمبراطور وموضع ثقته بصورة جعلته يفتدى
عليه الأموال ومظاهر الشرف ، وقد ظل يشغل منصب المستشارية زمن « ألبرت »
الثاني وفردريك الثالث .

(١٦٣) من هس حتى عدة صفحات تالية يمكن مراجعة رحلات « يوحنا

بوتسباخ J. Butzbach انظر في ذلك M. Latta (in) English Historical

Rev. January, 1917.

(١٦٤) Cf. Eng. Hist. Rev. Jan. 1917, p. 92.

(١٦٥) هو فردريك الثاني حليف الإمبراطور سيجسمند

(١٦٦) كان ألبرت دى استرنا زوج ابنة الإمبراطور سيجسمند ، وقد أصبح

ملك الرومان عام ١٤٣٧ ، ومات وهو في محاربة الترك سنة ١٤٣٩ .

(١٦٧) في سنة ١٤٢٠ غزا البنلاقة جميع نواحي « فريولي » ومدوا حدودهم

ناحية الشمال الغربي إلى الجبال .

(١٦٨) لم يكن هناك بطبيعة الحال رواج بملك بولندة الذي كان يدّك

صديقاً صغيراً ، لكن حينما كان سيجسمند في مرضه الأخير أخذت الإمبراطورة في
التآمر ضده فرتبت زواجها من ملك بولندة بعد موت الإمبراطور ، كما رتبت

حصلها على تيجان يوهيميا وبولندة والمجر ، وكانت الإمبراطورة إذ ذاك في الخامسة والأربعين من عمرها ، غير أن المؤامرة اكتشفت وألقيت الإمبراطورة في السجن الذي ظلت حبيسة فيه حتى ردت إليها حريتها ولكنها ما لبثت أن ماتت سنة ١٤٥٧م ،

انظر في ذلك : J. Aschbach : Geschichte Kaiser Sigismunds, Hamburg. 1846. Vol. IV. pp. 391. 395.

(١٦٩) كان فلاديسلاوس الثالث Wladislaus (١٤٣٤ - ١٤٤٤) لا يزال طفلا في التاسعة من عمره حينما أصبح ملكا ثم وافته الموت وهو في العشرين في معركة « فارنا » حيث كان يحارب الترك .

(١٧٠) يوجد مظهر رائع لدينا عام ١٤٨٩ وُلِدَ في J. Schwardfeger Vienna Gloriosa, Vienna. 1928. p. 26.

(١٧١) كانت الإمبراطورة إليزابيث مبددة ذات شجاعة كبيرة وتصميم قوي ، وقد مات زوجها عنها قبل ولادة ابنها حيث دبرت مرقاة تاج المجر المقدس ووضعته على رأس الطفل الرضيع ، وتوحد منذ كرات وصيغتها هيلين كوتار — التي اختلست التاج — في المكتبة الإمبراطورية بـينا (مخترق ٢٩٣٠) ، وقد طبعتها س. اندليخر S. Endlicher عام ١٨٤٦ وكانت موضع أحد بحوث Gustav Freytag : Bilder aus der deutschen Vergangenheit (von Mittelalter zu Neuzeit, ch. x).

ويوجد وصف رائع للطفل من حيث « إنه كان في تنويره قليل من الهبة » وكان يبكي بصوت عال .

(١٧٢) هو فردريك الثالث (١٤٤٠ - ١٤٩٣) الذي جتبر أضعف من خلفوا أوتو العظيم ، أما فيما يتعلق بخلفه فراجع Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, p. 897 هذا وقد تزوج ابنه مكسيميليان من ماري البرجندية.

(١٧٣) انظر ما سبق ص ٢٣٠ .

(١٧٤) شيد بيترو كوزو الصالة القائمة في قصر البلدية بين عامي ١١٧٢ ، ١٢١٩ ،

وقد ريت الجدران بثلاثمائة لوحة فية من إبداع جيوفاني ميرتو وآخرين
بعد سنة ١٤٢٠ .

(١٧٥) هو بطرس أباو (١٢٥٠ — ١٣١٦) الفيلسوف والعالم الطبي
الإيطالي ، وقد مات ميتة طبيعية وإن كان قد حوكم أمام محاكم التفتيش مرتين
تهمة ممارسته السحر ، وكانت وفاته قبل الفراغ من محاكمته الثانية ومن ثم صعدوا
دومة نكته وأحرقوها .

(١٧٦) في يناير ١٤٣٩ قرر البابا نقل «المجمع» إلى فلورنسة ، وبدأ رحلته في
اليوم السادس عشر من يناير وبذلك يمكن تحديد تاريخ وصول طافور إلى
فرارا ، انظر Creighton . History of the Papacy, new ed. II. p p 340 ff.
وإنه لأمر غير كيف رأى طافور كل ما يصفه ثم وصل بعد ذلك إلى فرارا بعد
خمس وعشرين يوماً من وصوله إلى بريسلو ، ذلك أن الرحلة تستغرق اثني عشر
يوماً (انظر ص ٢٣٦ س ٢١ من هذه الترجمة العربية) .

(١٧٧) ورد وصف هذا الحمل الفريد في Hazlitt : Venetian Republic, vol. IV, pp. 141 ff.
فقد حمل أسطول مؤلف من خمس وعشرين سفينة وستة
أعربة عبر جبال الألب في التيرول وذلك في عربات يجرها الرجال والثيران حتى داخل
Lago di San Andrea ومن هناك عبر جبل « بانجو » إلى « لاجودي جاروا »
وكانت للسافة التي قطعت تبلغ مائتي ميل ، وقد ردت التكاليف بحمسة عشر ألف
دوكات أو أكثر ، وقد أزل الأسطول بأجمعه في فبراير ١٤٣٩ ؛ ومن البين أن
طافور شاهد نقل واحد من السفن الأخيرة .

(١٧٨) فيما يتعلق بيلشينو راجع ما سبق ص ١٣ .

(١٧٩) ليس من السهل تفهم ما يريد طافور هنا ، ذلك أن اليارية شاركوا
في الحرب الصليبية الأولى وبرهنوا على حماسهم لها وشجاعتهم في الاستيلاء على
بيت المقدس وقد أدى ذلك إلى حصولهم على كثير من الامتيازات التعاريف ، وربما

كانت الاشارة في المتن راجعه إلى واحد من تلك الاضطرابات التي حافت المدينة
المسكودة الطامح في القرن الثالث عشر ، وقد يمت يرا إلى فلورنسة في سنة ١٤٠٥ .

(١٨٠) انظر سابق ص ١٠

(١٨١) يشير طافور إلى ظاهرة مده على حد ميل ونصف ميل من « بيترا مالا »
عند منبع جبل « دى دو » المعروف باسم « إي فوكي Fouchi I » وهو تحتوي
على خروج غازات غير حارقة أشبه ما تكون بظهور بركاني ، وهذه النيران
تسكون على حد قدم من سطح الأرض ، وأحسن ما تظهر بوضوح في الليل

(١٨٢) هو أحد الأدبرة النارية ، أسسه روجر الأول ثم نقل من هناك
حينما أعاد شارل الخامس بناء قلعة « سان سلفاتور » .

(١٨٣) لا تزال الصور والرسوم تمثل روعة الكنيسة وتبطلها من أجل
كنائس العصور الوسطى .

(١٨٤) لا تزال « تراباني » تعد المركز الرئيسى لتجارة المرجان الصقل .

كشاف أبجدى

بالأعلام والأماكن الواردة في هذه الترجمة العربية (*)

(*) قام بعمل هذا الكشف زميل الدكتور اسحاق تاوضروس عيد للأدب بكلية
الأدب جامعة عين شمس ، فله من خالص الشكر .

استامب : ٢٠٧
 استيفان دوريا : ٤
 استيفان الان : ١١٩
 اسرائيل : ٨١
 اسكلافونيا (دلشيا) : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٩
 اسكاما : ١١٦ ، ١٢٣
 اسكندرية : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٨
 ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢١٣
 اسطفان (القديس) : ٤٦
 آسيى : ٣٠ ، ٣١
 اشيلية : ٤ ، ١١ ، ١٦ ، ٥٧ ، ٦٤
 ٧١ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٧٢
 ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣
 اصبقة : ٤
 افتين : ٢٠ ، ١٨٠
 اكنافوس : ٢٥
 اكوبيا : ٢٤١
 آلب : ١٣ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤١
 آليا : ١٢٠
 الياف : ٤١ ، ٥٩ ، ١٠٠
 البانيا : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٩
 البرت (إمبراطور) : ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
 القونسو فرناندى ميا : ٧ ، ١١٩ ، ١٣٧
 القون دى ماتا : ١١٥
 الميرز : ١٩٣

أنسالوم : ٤٨
 أبوليا : ٣٦ ، ٢٥١
 إتنا : ٢٥٤
 أنيوبيا : ٩٠
 أجانا (القديسة) : ٢٠
 أجاءون : ٣٨
 أحبر : ٢٢٦
 أخاب : ٣٦ ، ١٢١
 أحيل : ١٠٣ ، ١١٤
 أرجل : ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٥٥
 أرمينيا : ٥٤ ، ١٠٤ ، ١٣٤
 آدم (قبر) : ٥١
 أدريانوبل : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٦
 آراس : ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨
 أرينودا مالانيسيا : ٣١ ، ٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥١
 أرجنتينا : ١٩٧
 أرسولا (القديسة) : ٢٠٣
 أرفونة : ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٣٩
 ١٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
 أريس : ٢٢٥
 أريما : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠
 أزوف : ١١ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 اسبارتيل : ٤
 اسبانيا : ٣١ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٨٨
 ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٨
 ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣
 الإسبثارية : ٣٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩

المانيا : ١٠٢ ، ١٥٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،
 ٢٢٦
 الميان (سور) : ٥
 الليرا : ٧
 انا (القديسة) : ٤٨
 انتورب : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩
 انكينمور : ٢٤٣
 انجلترا : ٢١١
 اندلس : ١٣٧
 انطاكية : ٥٤
 انطوان دي فلوثيان : ٣٩ ، ١٠٥
 انطونيوس دي بادوا (القديس) :
 ٤٩ ، ٢٤٢
 انسكونا : ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٥١
 ايس : ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠١ ، ١٠٣
 اودوس (جزيرة) : ١٥٨
 اوغسطس : ٢٥
 اوفرن : ١٠٧
 اولم (اولوس) : ٢٢٥
 ايتشيا : ٧
 ايطاليا : ٧٨ ، ٨٨ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ،
 ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ، ٢٤١ ،
 ايقونا (ميناء) : ١٠٩
 ايليا (النى) : ٤٧
 ايليام : ١١٢
 باطيون : ٦١ ، ٧٣ ، ٧٤

باتراس (خليج) : ١٥٩
 باتروكولوس : ١١٤
 باتيندورف : ٢٢٥ ، ٢٣٠
 باي : ٢٥٢
 باثيا : ٥١
 برما : ١٨٧ ، ١٨٨
 باررو : ٣٥ ، ١٦٢
 باريس : ٢٨ ، ٣٠٨ ، ٢١٦
 بازيل : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٢
 بلسك : ٢
 باسيل (القديس) : ١٤٦ ، ١٥٧
 باسينو البتانو : ١١
 بادوا : ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
 باكوا (بحر) : ١٣٥
 بارمو : ٢٥٣ ، ٢٥٤
 البحر الأسود : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ،
 ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢١٣ ،
 ٢٢٥
 البحر الليت : ٤٩
 بدرازا : ٢٦
 بدرو (دوق) : ١٠٢
 بدرو (كونت) : ١١٩
 بربانت : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩
 براج : ٢٢٧
 برلسادا : ٢٧
 برليدا (ميناء) : ٤
 براندريج : ٢٣٠

بطرس للصنف (كنيسة) : ٢٧
 بطرس (القديس) : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ،
 ٤٨ ، ١٨٩
 بطرس (كنيسة القديس) : ١٩ ،
 ٢٠ ، ٢١
 بطرس الرندي : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٦
 بلاطس : ٤٦
 بلاسكو : ٢٥٤
 بلجريتو : ٢٥٣
 بلد الوليد : ١٨٥
 بلدون (قبر) : ٤٦
 بلنيكارو (دير للسبح ضابط الكل) :
 ١٤٦
 البندمية : ١٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ،
 ٩٣ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،
 ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 برنارد (دير القديس) : ٢٦
 بر (نهر) : ١٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٥ ، ١٨٧

بروسا : ١٦٣ ، ١٦٦
 البرتغال : ١٠٢ ، ١١٠
 برنويديري : ١٢
 برجديا : ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
 ٢١٩ ، ٢٣٠
 برملاف : ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٦
 البسفور : ١٤٧ ، ١٥٥
 برهانة : ٧
 برشيا : ٢٤٦
 بركيو (شدة) : ٣٠
 برنديزي : ٢٥١
 بروغوس : ٢٦
 بروجس : ١٨١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨
 بروسة : ١٥٤
 بروسيا : ٢٣١
 برولانس : ٧ ، ١١١
 بروكسل : ٢٠٥ ، ٢٠٩
 بريترجون : ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
 بستوا : ١٣ ، ٢٤٩
 تشكنس : ١١٠
 بطرس ألاتو (الساحر) : ٢٤٢

بواتيلو : ١٨٣

بوا — لي — ديك : ٢٠٤ ، ٢١٩

بودا : ٢٣٩

بورنو فيبري : ١٣

بولالك : ١١٠

بولس (دير القديس) : ٢٧

بولس (جسد القديس) : ٢١

بولس (رأس القديس) : ٢٣

بولدة : ٨٨ ، ١٣٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨

بولويا : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧

١٨٨ ، ٢٥٠

بوهيميا : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

٢٣١ ، ٢٣٦

بياتشيزا : ١٨٨

بيت المقدس : ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١

٢٦ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣

٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٦٥ ، ٩٠

١٠٠ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٦٢

١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦

٢٠٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠

٢٤٨ ، ٢٤٩

بيت لحم : ٤٧ ، ٤٨

بيتراسا : ١٢

بيرحوس : ١٢٨ ، ١٩٣ ، ١٩٩

٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣

بيرو بارفادي كامبوس : ١٦٢ ، ١٦٣

بيروت : ٤٢ ، ٥٣ ، ٧٨

بيروجا : ٣٠

بيريه : ١٠ ، ١١٥ ، ١٤١ ، ١٥١

١٥٤

بيزا : ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

بيزارو : ٢٥١

بيكاردي : ٢١٥

باجور (قلعة) : ٢٢٧

بانبا (بحر) : ١٣٥

بانبي (نهر) : ١٣٦

البار : ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦

١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٢

براجان (امبراطور) : ٢٦

بريان (بوابة) : ٢٣

بركيا : ١٠٣ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠

١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٤

بريشيو : ٢٤١

بريمويل : ٢٠٦

تيلدوس (جزيرة) : ١١٢ ، ١١٣

١٥٦

توردو دل كاسيو : ١٧٢

تورنو (برج) : ٢

توزول : ٢٣٣

توما (القديس) : ٤٤ ، ٩٠ ، ٩١

توس : ٢٥٤ ، ٢٥٥

التيير : ١٧ ، ١٩

٧ : (جزيرة) نيتان

٢٤٢ : نيتس ليقس (ناؤرخ)

٢٥١ : نيرادى لا فورد

٣٠ : نيرنى

١٣٧ ، ٧٩ : نيمور لك

٥١ : (جبل) نابور

٥٦ : نناديلا

٢١٧ : نالدى لابن

١٨٥ : نالون

١١٤ : ناليولى

١٠٣ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ١٠ : نانوس

٢٩ : نايوس ماريوس

٦ : نجر النار

٥٤ : نجيل الاسود

٤ ، ٣ : نجيل طارق

١٣٤ : نجر اكسة

١٨٧ : نجر انديلادى السكودا

٢٥٤ : نجر جنق

٢٧ ، ١٩ ، ١٨ : (بابا) نجر مجورى

٢٣٣ ، ٢٠٥ ، ١٤ : (ملك) نجران

٢٥٤

١١٦ : نجران الانبلى

٢٢٥ : نجران دى تور كبادا

٢٢٥ : نجران دى سيموفيا

٢١٨ : نجران دى موريللو

١٣٠ ، ١١٥ : نجران كارو

١٧٦ ، ١٧٢ : (القديس) نجران جورج

٤٢ : (ديرسلت) نجران جورج

٢٣٨ : نجران فونيروك

٤٥ : (جبل) نجلجة

٢٢ : نجلتو

٥٣ : نجليل

١٢ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٥ ، ٤ : نجرة

٢٣٠ ، ١٥٩ ، ١٥٥ ، ١٠٩ ، ٥٤

٢٤٩

٢١٨ : نجيف

٣١ : نجيرو

١٦٣ ، ١٦٢ : نجيير كيسارا

٢٠٦ : نجيير كويكسادا

٤٦ ، ٤٣ ، ٤٢ : نجرافرى دى بويون

٢٠٧ : نجران كليفيز

٢٢٦ : نجران

٣٢ : نجيرو

٤٩ : نجيرو شابات

١٧ ، ٢٧ : (القديس) نجيروم

١٦٠

٢١٩ ، ٢٠٤ : نجلدز

٤٨ : نجيوس الصغير

٤٨ : نجيوس الكبير

حواص : ٦٥
 حواء (قبر) : ٥١
 خوان دی آنجلو : ١٦٣
 حوان (الملك) : ٥٥
 خيرو نیمو دوریا : ٤
 خيرو نیمو دی فولتاخو : ٤
 خيوس (جزيرة) : ١٠ ، ١٠٩ ،
 ٢٢٠ ، ١١١ ، ١١٠
 الدانوب : ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩
 داود (الملك) : ٤٨
 داود (قامة الملك) : ٤٣
 دراجس : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،
 ١٤١
 الدردنيل (مضيق) : ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٥٥
 دلاشيا : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢
 دمشق : ٤٢ ، ٥٣ ، ٨١
 ديباط : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٩٠ ،
 ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠
 دوا اداره : ٦٨
 دومينجوت : ١٨١
 دومنيكان : ٢١٨
 دوميسكو (دير) : ١٤
 الدون (نهر) : ١٣٦ ، ١٣٧
 دون استيفان إلان : ١٢٠
 دون بريلا : ١٢٠

دون يرو روزگاور : ١٢٠
 دون جوان : ١١٥ ، ٢٢٩
 دون خوان : ٢
 دون ستيقن : ٢٢١ ، ٢٣٣
 دون سانت بول : ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨
 دون فادريك : ٢٣٣
 دون فرناند : ١٢٠
 دون فرناندوري جيفارا : ٢٣٨
 دون لويس دی قزمان : ١٤ ، ١٦
 ديجو تيموديو : ٥٩
 دی کوتقي : ٩٣
 دی لوس دوتسيوس : ٢٢٤
 ديمتری (القديس) : ١٤٧
 راجوزة : ٣٥ ، ١٥٩
 رأس يغان : ١٠٣
 رافنا : ٢٣ ، ٢٥١
 رامة : ٤٢
 الراين : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٢٢
 راينلانده : ٢٣٣
 رشيد : ٩٩
 الرمة : ٥٣
 روان : ٢١٦
 رودس : ٣٩ ، ٤٠ ، ٩٤ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩

سانت مارتا (كنيسة) : ٩٦ ، ٩٣
 سانتا ماريا (راس) : ١٥٦ ، ١١٣
 سانتاماريا ارا كولي (كنيسة) : ٢٦
 سانتا ماريا ماجوري (كنيسة) : ٢٧
 سانتا ماريا نونا (دير) : ٢٦
 سان لوكاز : ٤ ، ٣ ، ١
 سبارتيفنتو (راس) : ٢٥١ ، ٣٥
 سالانو : ١٦٢ ، ١٦٠
 سبنة : ٦ ، ٥ ، ٤
 سبوليتو : ٣٠
 سبيزيا : ١٢
 ستاليا : ٤١
 ستامان (دير) : ٣٧
 ستراسبورج : ٢٣٧ ، ٢٢٢ ، ١٩٧
 سترمبولي : ٢٥٣
 سترى ليلانت : ١٢
 ستيغن : ٢٢٠
 سجموند : ٢٢٦ ، ١٦٣ ، ٢٤ ،
 ٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٢
 سجوم وعمورة : ٤٩ ، ٤٣
 سردينيا : ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٤٨ ، ٧
 سرقوسة : ٢٥٤
 سريتا : ١٠٣
 سفورزا : ٣٠

١١٠ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٧٥ .
 روزة (صمان القديسة) : ٣٠
 الروس : ١٣٤
 روسيا : ١٥٢ ، ١٣٦
 رومانيا : ١٥٦
 روما : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
 ٥٦ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦٨
 رومولوس (قبر) : ٢٧
 رييجو : ٢٥٢
 ريغوس (قبر) : ٢٧
 رييجو : ٢٥١ ، ٣٣ ، ٢٢
 زارا : ٣٥
 زكريا (القديس) : ٤٧
 سايبيزا (جزيرة) : ٣٧
 ساتاليا (خليج) : ١٠٣
 سالويرينا : ٧
 سالونيسكا : ١٥٧ ، ١٥٦
 سافوما : ٨
 سافوي : ١٠٢
 سالوست : ٢٩
 ساموس (جزيرة) : ١٠٩
 سامو تراس : ١٣٩
 سان بدير : ٢٢٤ ، ١٩٤ ، ١٩٣
 سان سستو (كردينال) : ٢٢٥
 سان كروزو (كردينال) : ٢٢٥
 سان لورنزو : ١٠

سلجوق : ٢٣٤ ، ٢٢٩ ، ٢٢٧
 سينا : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٤
 ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢
 السيديت (مجلس) : ٢٩
 شافهوزن : ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
 الشام : ١٦٤ ، ١٧٤
 شارب : ٣٠٧
 شرلان : ١٥٢ ، ٢٢٦
 ششونة (بروج) : ٨١
 غيوجيا : ١٨١
 صايم : ٦٥
 صقلية : ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 صوب : ١٣٠
 صوفيا (القديسة) : ١١٤ ، ١٤٢ ،
 ١٤٦
 صهيون (جبل) : ٤٢ ، ٤٣
 صور : ٥٣
 طرايزون : ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 الطرف الأغر : ١
 طروادة : ٩٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
 ١٣٩ ، ١٥٦ ، ١٩٤ ، ٢٤٣
 طريق الآلام : ٤٦
 طليطلة : ١١٩ ، ١٢٠ ، ٢٢٦
 طنجة : ٤

مكسويا : ٢٢٧
 ملامسكا : ٥٩
 ملستر (بابا) : ٢٣
 ميمستر موزوديني : ١٦
 سميريا : ١١٤
 سلوير : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
 سلايس : ٢٠٩ ، ٢١٠
 سليون (سيد) : ٤٦ ، ٥١
 سبت أنكلو (حصن القديس) :
 ١٩ ، ٢٠
 سبت ناسيل : ٣٧
 سلت بندرو (قلعة) : ١٠٩
 سلت جوتار (بحر) : ١٩١ ، ١٩٢
 سلت كاترين (القديسة) : ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٨٢ (المدير) : ٥٢ ، ٧٠ ،
 ٧٥ ، ٩٩
 سلت كروس : ٢٦
 سلت لازار : ١٩٧
 سلنوربا : ٤٤
 سلنباخو : ١٩٩ ، ٢٠٩
 سوريا : ١٥٥
 سوفينت : ١٠٩
 سبتيرا (جزيرة) : ٣٨
 سيچورفا : ٥٦
 سيزيا : ١٣
 سيليريا : ١٥٥
 سيلات : ٨٤

قرمان القديس يوحنا (انظر :
 الاستتارية)
 فرعون : ٨١
 فرناندو (ملك أراجون) : ٢٢٤
 فرناندو دي أنجلو : ١٦٣
 فرتسا : ٨٨ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ،
 ٢٤٨
 فرنسيس (القديس) : ١١٣٠ ، ١١٣٣ ،
 ٧١٨
 الفرنسكان : ٤٤ ، ٤٦
 فرند تيريزي أبل : ٢٢٤
 فريوتي : ٢٤١
 فشنزا : ٢٤٦
 ولاندرز : ١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٦
 فلورنسا : ١٣ ، ١٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢١٧ ، ٢٤٨
 فوجا فيكا : ١١٢
 فيترو : ٣٠ ، ١١٤
 فينولير : ١٣٦
 فيرنولا : ٢٤٩
 فيترونا (فيرونا) : ٢٤٦
 فيرونكا : ٢١ ، ٢٣
 فيزو : ١١٠ ، ٢٢٠
 فيلا ديال : ٦٦
 فينا : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
 فادس : ٤ ، ٥ ، ٦
 القاهرة : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ،
 ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

عاموص (قلعة) : ٤٣
 عسقلان : ٥٣
 عكا : ٥٣
 العصرة (عيد) : ٤٣
 عيسى الناصري : ٢٦
 غاليبولي : ١٥٥
 غاليسيا : ١ ، ١٢٩
 عنيت : ٢١٦ ، ٢١٧
 غرامطة : ٧٤ ، ٧٦
 غيليا : ٨٥
 فارس : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٤
 فاروس : ١٠
 فالايرونا (كتيبة) : ١٤٦
 فالونا : ٣٥ ، ١٥٩
 فانو : ٢٥٢
 فرانكسكو (كونت) : ١٢ ، ٣١ ، ١٦٠ ،
 ١٨٩
 فرانشينو كاني : ١٩١
 فرارا : ١٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٥ ، ٢٥٠
 فرانكفورت : ٢١٨ ، ٢١٩
 فرانكلينو : ١٥ ، ١٨٢
 مردريك (الإمبراطور) : ٢٢٧
 مردريك الدوق : ٢٤٠
 فردند كونت فيلا ندرلندو : ١٩٩

۲۴۶، ۲۳۶، ۲۳۴
 قشتال الروح (جزيرة): ۱۰۴، ۴۱
 قصر التيه (ديدالس): ۳۸
 فطالويا: ۷، ۲۴۳، ۲۵۴
 قطلونيون: ۴
 قلمورية: ۲۵۱، ۲۵۲
 القوقاز: ۱۳۴
 قيصر: ۲۳
 كارلا مروزيني: ۱۶۰
 كارلومور سلبو: ۳۳
 كارميننا (كونت): ۱۷۷، ۱۷۸
 كارنيرو (جيل): ۱
 كاراساجس: ۱۰۹
 كارال جيتوفيز (حصي): ۲
 كامبرشليك: ۲۲۵، ۲۲۶، ۲۲۸
 كامبوس: ۲۶
 كاما: ۱۰، ۴۶، ۱۳۳، ۱۳۴
 ۱۳۵، ۱۳۶، ۱۴۰، ۱۵۵
 كاميل: ۲۳۶
 كامبو ساتو: ۲۴۹
 كامبو دوليو: ۲۲
 كامبو دي فياري: ۲۲
 كاناي: ۲۴۹
 كانديا (كريا): ۳۸، ۷۷
 كانديلور (لورد): ۴۱، ۶۰
 الكتلان: ۷

۷۷، ۸۱، ۸۷، ۹۲، ۹۷
 ۹۹، ۱۳۴
 انهر لاف. ص: ۴۲، ۴۳، ۴۴، ۵۲
 ۷۹، ۲۳۰
 قبرص: ۱۰، ۴۱، ۵۴، ۵۶، ۶۴
 ۶۸، ۷۰، ۷۸، ۱۰۰، ۱۰۲
 ۱۰۳، ۱۰۵، ۱۷۴
 قدس الاقداس (مذبح): ۲۳
 قرطاجنة: ۷
 قرطبة: ۱۲۰، ۱۳۴، ۲۳۷
 قزوين: ۱۳۶
 قسطنطين (ابراهيمور): ۲۳، ۱۴۴
 ۱۴۵، ۱۴۹
 القسططينية: ۱۰، ۳۶، ۱۰۹
 ۱۱۱، ۱۱۴، ۱۱۵، ۱۱۸
 ۱۱۹، ۱۲۱، ۱۲۲، ۱۲۴
 ۱۲۵، ۱۲۶، ۱۲۹، ۱۳۰
 ۱۳۱، ۱۳۲، ۱۳۹، ۱۴۱
 ۱۴۳، ۱۴۶، ۱۴۷، ۱۴۹
 ۱۵۱، ۱۵۲، ۱۵۳، ۱۵۴
 ۱۷۲، ۱۷۵، ۱۸۳، ۲۲۰
 ۲۲۶، ۲۴۳
 قشتالة: ۳، ۱۴۰، ۱۴۱، ۱۴۲
 ۵۶، ۵۷، ۵۹، ۶۲، ۶۴، ۹۳
 ۹۶، ۱۰۲، ۱۱۰، ۱۱۵، ۱۱۹
 ۱۲۰، ۱۲۴، ۱۲۹، ۱۳۷، ۱۵۲
 ۱۶۱، ۱۷۰، ۱۹۹، ۲۰۴
 ۲۰۸، ۲۱۳، ۲۱۷، ۲۲۵

کراس : ۲۴۲
 کراکاو : ۲۳۲
 کریت : ۱۵۸ ، ۳۸
 کریستوفر (قدیس) : ۱۶۰ ، ۱۷۵
 کریکی : ۲۰۷
 کلازافا : ۱۴
 کلیر (القديس) : ۳۰
 کلیفس : ۲۰۳ ، ۲۱۹
 کنای (جزیره) : ۱۵۸
 کوبلنز : ۱۹۹
 کوردن لنجن : ۱۱۵
 کورسیکا : ۲۴۸
 کورفو : ۳۶
 کورکان : ۱۳۵ ، ۱۳۸
 کورنث : ۶۳
 کورنو : ۱۵۹
 کورو : ۳۷
 کوروپا (کپیسة سيدنا) : ۹
 کوس (جزیره) : ۱۰۹
 کومستارا : ۵۴
 کولاکیم : ۳۹
 کولخیس (قلعة) : ۵۴
 کولبریا (برج) : ۲۵۴
 کولوتیا : ۱۹۶ ، ۲۱۰
 الکولوسيوم : ۲۵
 کولویا : ۱۹۸ ، ۱۹۹ ، ۲۰۱ ، ۲۰۳
 کولستاس : ۲۱۴
 کوبسکا : ۱۹۳
 کیما : ۱۳۰
 کیوس : ۱۳۰
 لادیسلاوس (ملك تالي) : ۲۶
 لافورد : ۲۶
 لاهاله : ۲۱۲
 لبة (کوت) : ۱ ، ۲ ، ۳
 لیان : ۵۳
 لجهورن : ۱۲ ، ۱۳
 لجهورية (ميناء) : ۲۴۹
 لفيبر : ۲۲۰
 لدويج : ۲۲۰ ، ۲۲۲
 لريتش : ۱۲
 لمارز : ۴۸ ، ۵۰
 لکسة : ۷
 لبارديا : ۱۴ ، ۱۸۹
 لونهایم : ۲۲۰
 لوردوبا شار (سوق) : ۱۳۸
 لورنس (القديس) : ۱۴۴
 لوسرسا : ۱۹۱
 لوفان : ۲۱۹
 لوقا (القديس) : ۲۳ ، ۱۴۵ ، ۲۴۲
 لیاری (جزیره) : ۲۵۳
 لیونش : ۱۳
 لیتوایا : ۱۳۶
 لیفانتین (حصن) : ۲۲۰
 لیل (میلیناس) : ۲۰۴ ، ۲۰۵
 لیون : ۷
 ما دالون : ۴۸
 مارتا : ۴۸
 مارتین (بابا) : ۳۱
 مارجریس : ۵۳ ، ۵۵

کرارا : ۲۴۲
 کراکاو : ۲۳۲
 کریت : ۱۵۸ ، ۳۸
 کریستوفر (قدیس) : ۱۶۰ ، ۱۷۵
 کریکی : ۲۰۷
 کلازافا : ۱۴
 کلیر (القديس) : ۳۰
 کلیفس : ۲۰۳ ، ۲۱۹
 کنای (جزیره) : ۱۵۸
 کوبلنز : ۱۹۹
 کوردن لنجن : ۱۱۵
 کورسیکا : ۲۴۸
 کورفو : ۳۶
 کورکان : ۱۳۵ ، ۱۳۸
 کورنث : ۶۳
 کورنو : ۱۵۹
 کورو : ۳۷
 کوروپا (کپیسة سيدنا) : ۹
 کوس (جزیره) : ۱۰۹
 کومستارا : ۵۴
 کولاکیم : ۳۹
 کولخیس (قلعة) : ۵۴
 کولبریا (برج) : ۲۵۴
 کولوتیا : ۱۹۶ ، ۲۱۰
 الکولوسيوم : ۲۵
 کولویا : ۱۹۸ ، ۱۹۹ ، ۲۰۱ ، ۲۰۳
 کولستاس : ۲۱۴
 کوبسکا : ۱۹۳
 کیما : ۱۳۰

ماونيز : ١١٢
 الحجر : ١٥٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
 محمد (صلى الله عليه وسلم) : ٩٠
 مدالون : ٥٠
 مدينا : ٢١٨
 مرفص (كنيسة القديس) : ١٦ ، ١٦١ ،
 ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨
 مرمرة : ١١٤ ، ١٥٥
 مريم المجدلية : ٤٨
 مسينا (مضيق) : ٢٥١ ، ٢٥٢
 مصالة بن مصالة : ٤
 مصر : ١٠٦ ، ١٣٤ ، ١٥٥ ، ١٧٣ ، ١٨٣
 المطرية : ٧٠
 مكة : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٠
 ميثلين : (جزيرة) ١١٣
 ميذا : ٥٤
 ميسين : ٢٢٧ ، ٢٤٠
 ميلان : ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٣٠ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٦
 ميلانو : ١١ ، ٣٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٨ ، ٢٠٧
 مينز : ١٩٨ ، ٢٢٠
 ميورقة : ٧
 نابلي : ١٢ ، ١٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 نازي : ٣٠
 ناصر الدين : ٥٣

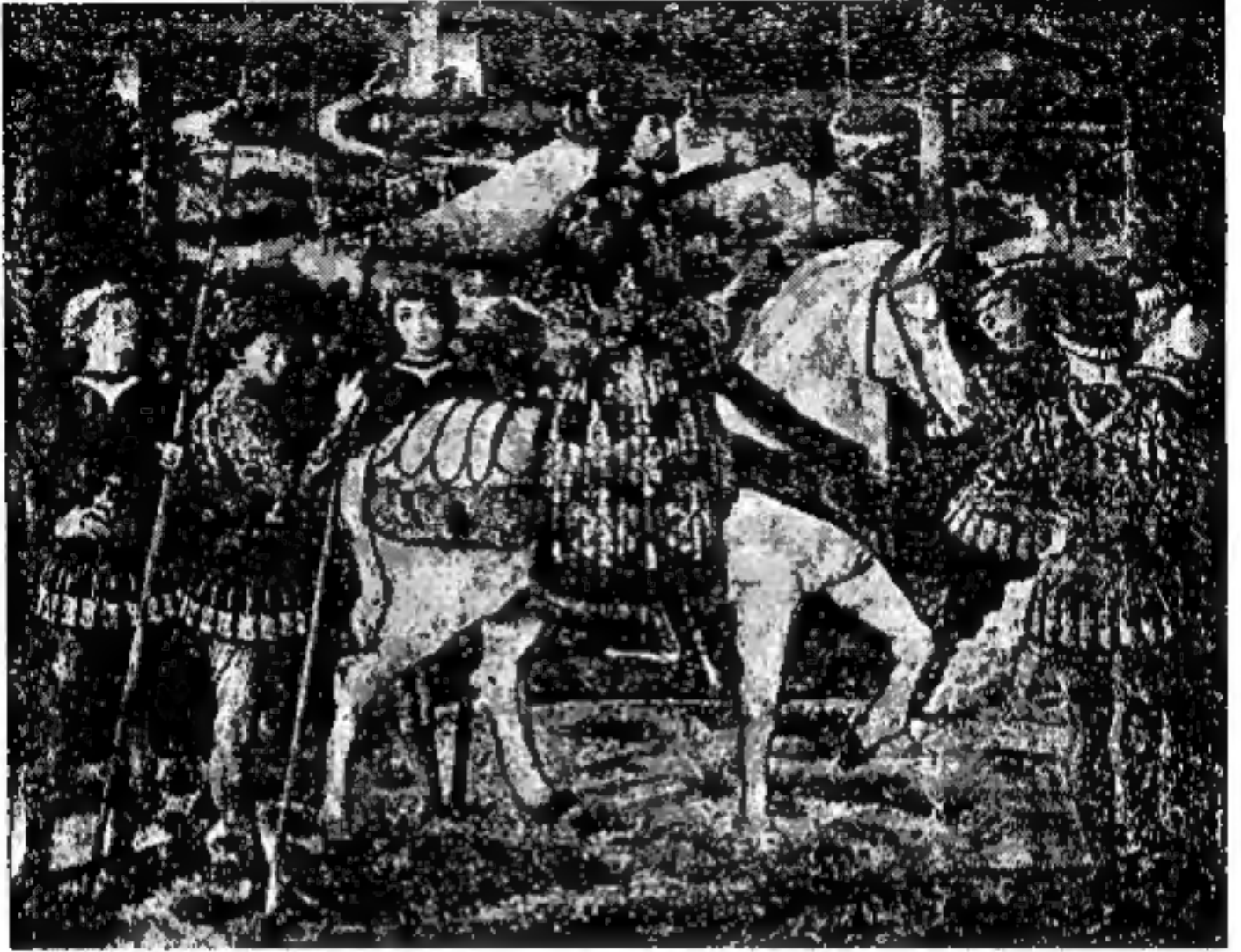
ماركوس (مثال) : ٢٤
 ماري (المذراه) : ٤٥ ، ٤٦
 ماري (بيت المذراه) : ٤٤
 مارييا ستيلا (دير) : ١٩٤
 مارييا الكبرى (كنيسة القديسة) :
 ٢٤ ، ٢٦ ، ١٤٥
 ماريينا (القديسة) : ١٢١ ، ١٧٥
 للاغوصة : ١٠ ، ٥٤
 مالملة : ١٥٦
 مالملة : ٦٠٥
 مالميز : ٢٠٥
 ملاسيا : ٣١
 ملطية : ١٣٢
 لانسكب : ٧
 منورقة : ٧
 مودون : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥٩
 موديك : ١٣
 مورانيا : ٢٣٩
 المورة : ١٢١ ، ١٥٩
 موزن فيلافرانكا : ٢٤٣
 موزين سوارز : ٦٨
 موسى : ٧٧
 مرسين - سواريس : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧
 مونت بليجرينو : ٢٥٤
 مونت تراباني (جبل) : ٢٥٤
 مونت ساتو (جزيرة) : ١٥٦
 مونترات : ١٧٤
 ماتوا : ١٧٤
 مونريالي (كنيسة) : ٢٥٣

هنري (ملك) : ١٣٧
 هولند : ١٣٧ ، ٦
 هيلانه (القديسة) : ٤٥٠ ، ٤٤٤ ، ٥٠
 ١٤٦
 هيلين (الطروادية) : ٣٨
 هايانا (القديسة) : ٢٤ ، ٢٦ ، ١٢١ ،
 ١٧٥
 وادي الوليد : ٢٣٩
 ولوس بانيجاس : ١٦٣
 يالا : ٤١ ، ٥٣
 اليماقية : ٤٤
 يفتوب جيرى : ٥٦ ، ١٠١
 يودا : ٢١ ، ٤٦
 يوجين (بابا) : ١٣ ، ١٧ ، ١١١ ،
 ١٦١ ، ١٨٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠
 يوحنا المعمدان : ٤٧ ، ٤٨ ، ٢١٨ ،
 ٢٤٨ ،
 يوحنا المعمدان (أصبح) : ٣٢
 يوحنا المعمدان (رأس) : ٢٦
 القديس يوحنا (فرسان) : ١٠٥
 يوحنا (كنيسة القديس) : ٢٢ ، ٢٤
 يوحنا اللاتيران (القديس) : ٢٥
 يوديجو (قلعة) : ٤١
 يوسف الصديق : ٧١
 يوليوس قيصر : ٢٢ ، ٢٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٤
 اليونان : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٧
 ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٤

الناصرة : ٥٣
 نربوبة : ٧
 نورمندا : ٢١٦
 نقارة : ٢٠٣
 نهر الأردن : ٤٨
 النسا : ٢٣١
 نوح : ٥٤
 نور مبرج : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
 نوبشات : ٢٤٠ ، ٢٤١
 نيجرو بونكو (جزيرة) : ١٥٧
 نيس : ١١١ ، ٨
 نيقوسيا : ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣
 نيقوميديا : ١٥٤
 نيكولا بيشيرينو : ٢٤٩
 نيكولا بيشينو : ١٣ ، ١٨٨
 نيكولا دي مينون : ١١٠
 نيكولودى كونتى : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ،
 ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
 ٩٢ ، ٩٩
 نيجيجين : ٢٠٠ ، ٢١٩
 نينودى كابريرا : ١٠٥
 هانتر بيرف : ١٩٩
 هانيبال : ٢٤٩
 الهيدروم : ١٤٩
 الهند : ٤٤ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
 ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٣٥ ،
 ١٤٠ ، ١٧٤



مبارزة من حولة هولندية ترجع إلى القرن
الخامس عشر الميلادي أو مستهل السادس عشر .



الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوجس
في كنيسة قصر ريكاردى بفلورنسا